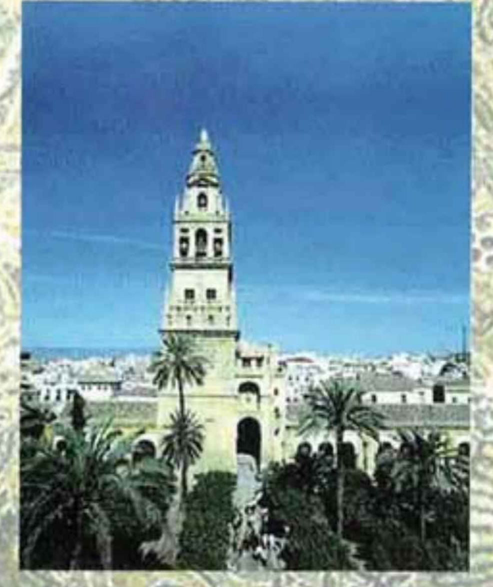


مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٩١ - رمضان ١٤٢١ هـ - نوفمبر/ديسمبر ٢٠٠٠م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 291 - NOV. / DEC. 2000









- فواتح السور
- خصوصيات القرآن الكريم
- الإسلام في غرب إفريقية
- الانتماء وبناء الشخصية العربية
- قرية واحة تذكر أمسها
- مجلات الأطفال بين الواقع والمأمول
- الكذب في حياة الإنسان
- تطور حركة الاستعراب الإسبانية

رمضان في الذاكرة الأندلسية



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر، ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

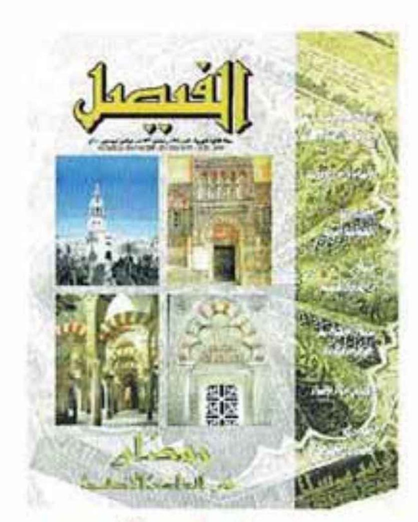
السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة السعودية للتوزيع ـ هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢). مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠. سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٩٦٣٠٠. تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٠٠٢١٦. قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٠٠٩٧٤. الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٠٠٩٦٢. البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٠٠٩٧٣. الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٠٠٩٧١. الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٩٤١٥ ـ ٠٠٢١٣. الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٠٠٩٦٥. السودان شركة النحوي للتجارة والتوزيع ص.ب ١٠٣٧١ ت: ٧٧١٥٤٧/٢٧ فاكس ٧٧٤٣٣٦، المغرب ـ CAS - SOCHPRESS - CAS ٢٤٥٧٤٥، CASABLANCA - MOROCO TEL: فاكس ٢٤٠٠٣١/٣٢-٢١٢-٠٠، باكستان ٥٦٨٣٤٩٤ PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3, PAKI-STAN TEL: ـ فاكس ٥٦٨٣٧٠٤-٢١-٩٢-٠٠. الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢١٨٦١٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧ فاكس ٢٢٣٣٣٨، سلطنة عمان ـ المتحدة لخدمة وسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت: ٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٠٠٩٦٨.





رمضان في الذاكرة الأندلسية

لشهر رمضان الكريم مكانة خاصة في نفوس المسلمين الذين يحرصون على الاحتفاء به بوسائل شتى، وكان مسلمو الأندلس يبالغون في هذا الاحتفاء، بل تجاوزوا في بعض الأحيان الحدود الشرعية تأثراً بمواطنيهم من النصارى في احتفالاتهم الدينية، وكانت ليالي رمضان فرصة للتواصل الاجتماعي، وإبراز مواهب القراء في حفظ كتاب الله. فماذا في ذاكرة التاريخ عن رمضان الأندلس؟

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

حلة جميلة

بادئ ذي بدء نشكر لكم مجهوداتكم الممتازة على إصدار مجلتنا الموقرة بهذا الشكل والأسلوب الرصين.

وفي الحقيقة أعدها - إي والله وبلا نفاق - مجلتنا العربية الأولى لما تحتويه من موضوعات مختلفة ورصينة تكفي وتشبع الجوعان من نقص الثقافة، وتصحيح المعلومات، وتجديد زاد الثقافة التي أصبح يشوبها الكثير من الشوائب من مجلات لا ندري ما هدفها؟ ولماذا تصدر؟ وتشوش المعلومات من إذاعات تذكر المعلومة ولا تتحقق من صحتها من مصدرها، وفضائيات لا هدف لها إلا نشر الرذيلة والجنس فاختلط الصالح بالطالح.. فلم يبق لنا إلا الاعتماد على مجلة كمجلة الفيصل التي أعدها أفضل من حيث تناول الموضوعات والتحقيقات.

فمثلاً في الاستطلاعات نجد المجلة تتناول الموضوع من الناحية التاريخية والأصل والتطورات على مر السنين، وهذا ما يطلبه القارئ. أما ذكر المستجدات الحديثة فأنا أعيشها وأشاهدها يومياً في التلفاز والصحف وغيرها فأحييكم على هذا الأسلوب.

وأيضاً من حيث الملفات أو الموضوعات الخاصة نجدكم تبذلون جهوداً مشكورة في التحري والتدقيق، ليأتي الموضوع متكاملاً إلى حد أن القارئ لا يحتاج إلى العودة إلى كتب ومراجع أخرى.

وإذا جاز لي ذكر بعض الملاحظات، فإنني أضعها على النحو التالي:

أولاً: لبست المجلة في الفترة الأخيرة حلة جميلة، وشهدت تطوراً ملحوظاً، كحذف بعض الأبواب ثم إرجاعها في شكل جديد. وبمتابعتي للأعداد وجدت أن جميع الأبواب عادت إلا باباً واحداً، وهو في رأيي أجمل الأبواب وأمتعها، وكان يميز الفيصل من غيرها، وأقصد بذلك باب «دائرة المعارف» فرجائي أن تنظروا في إرجاع هذا الباب ويكون هديتكم لنا في بداية السنة الخامسة والعشرين.

ثانياً: نجد أن مجلات أخرى قد استحدثت بها أبواب، كانت في الأساس أبواب المجلة فعلى سبيل المثال:

- باب الفنون: كان يتم عرض لوحة لرسام عالمي أو محلي، مع تناول قصة اللوحة والمدرسة التي تنتمي إليها وتاريخها فنرجو النظر في هذا الباب.

- باب المستحدثات في العالم: هذا الباب كان في الأساس من أبواب المجلة، وتلقفته المجلات الأخرى، وهو يتناول ما يطرأ في العالم من أفكار ودراسات وأبحاث عن عالم الحيوان والتكنولوجيا والبيئة وغيرها.

وقد يحتاج تنفيذ مثل هذه الاقتراحات إلى زيادة صفحات المجلة، ورفع سعرها بعض الشيء، كأن يباع في مصر بمبلغ خمسة جنيهات، ولا أظن أن هذا المبلغ كثير على مجلة كالفيصل.

وتقبلوا فائق تحياتي.

نبيل علي أحمد علي غانم
مصر - أبو حماد - الشرقية

التحرير:

الشكر لكم على ما تكنونه من تقدير لمجلتكم «الفيصل» ومتابعتكم الدقيقة لما ينشر فيها، وما اقترحتموه جدير بالاهتمام، وسوف ننظر فيه بعناية، وفي ظننا أن اقتراحات الإخوة القراء بوصلة نستعين بها في تحديد الاتجاه الصحيح، ونأمل أن نكون دوماً عن حسن ظنهم.

«الفيصل» والجزائر

إنه لمن دواعي الفرح والسرور أن تعود إلينا مجلة «الفيصل» بعد انقطاع طويل عنا - أعرف أنها خارج عن نطاقها -. لكني أقول: الحمد لله على عودتها إلينا - في الجزائر - وهي كلها بهاءٌ ورونق، وأكثر ثقافة وعلمية كما عودتنا طوال أعوامها التي ناهزت العشرين. فأرجو أن تبقى على هذا الطريق والعهد الذي عاهدت عليه القراء.

أرجو الله أن تكون كذلك - خاصة وأني عدت لأتصفح ما تكتبونه منذ العدد (٢٧٩) رمضان ١٤٢٠هـ. وإنه ليحزُّ في نفسي ما ضيعته من أعداد طيلة أعوام سابقة. وأعرف أني فقدت الكثير من المواضيع الثقافية والعلمية الجادة. وكلُّ هذا ترك فجوة كبيرة في معلوماتي وفي ما أملكه من «الفيصل» الفيحاء في مكتبتي المتواضعة. أرجو تداركه في أقرب الفرص.

إنَّ مجلة الفيصل الفيحاء لا يُعاب عليها شيء، ولا يمكن لمثلي انتقادها، ولكن أقترح عليكم أن تعرفونا أكثر بتاريخ المملكة ومناطقها الأثرية وحياتها العلمية والثقافية، وكل ما يستجد في ذلك، كما كنتم تفعلون في الماضي. كما أرجو وأملُ أن تهتم المجلة بالحوارات الثقافية والعلمية مع الشخصيات التي لها باعٌ طويلٌ في ذلك؛ لأن الحوار - كما تعلمون - ينشط الفكرة، ويستنبط منها كل جديد خاف، ويجعل الردُّ عليها كبيراً وغزيراً؛ وهذا كله يؤدي إلى إثراء الفكر والمعرفة.

وأخيراً أرجو استحداث صفحة تسمى: «من ذاكرة الفيصل» - مثلاً - يتم فيها عرض بعض ما صدر في هذه المجلة ذات شهر من ذات عام - وذلك لأن الذاكرة تنشط الفكر الحاضر. وتربط الماضي بحنين جميل له الفائدة الكبيرة في مستقبلنا، إن شاء الله. وأرجو أن تبعثوا لي بعض الأعداد من مجلة «الفيصل» لسنة ١٤٢٠هـ (قبل شهر رمضان) وخاصة المُلحق الذي صدر عن الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - وأدخله فسيح جناته - وإن كان هناك ملحق عن مئوية تأسيس المملكة العربية السعودية - ولا بد أن يكون - فأرجو إرساله. هذا قبل أن أحضر نفسي لطلب بعض المجلدات التي فاتتني طوال هذه الأعوام وجزاكم الله كل الخير.

محمد حكيم بادود
٣١ شارع أول من نوفمبر
ولاية تمنسيلت - الرمز ٣٨٠٠٠ - الجمهورية الجزائرية

التحرير:

نشكر لك هذا الإطراء، وقد نشرت المجلة استطلاعات مصورة، ومقالات عن مدن المملكة ومناطقها الأثرية، إلى جانب رصد الحركة الثقافية فيها من خلال الملف الثقافي، نأمل أن تجد فيها النفع والفائدة، وسوف ننظر في اقتراحك الخاص بالحوارات إن شاء الله.

عنصرية!!

يسرني أن أكتب إليكم هذه الرسالة رداً على ما جاء في عدد المجلة الصادر في المحرم سنة ١٤٢١هـ، حيث تضمن صورة لامرأة إفريقية حاملة دلواً على رأسها، وهذا دليل على عنصرية واحتقار وسخرية من الأفارقة.

لو كان صحيحاً كما تزعمون في مجلتكم على أنها تعطي ثقافة إسلامية لما فعلتم ذلك.
وأنا أقول لكم: مهما فعلتم ومهما كرهتم الأفارقة، فإن الأفارقة سيتقدمون بإذن الله تعالى.
قال الله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن*. الحجرات: ١١.

التحرير:
كنا نود من الأخ صاحب الرسالة أن يذكر اسمه، لأن ما أورده رأي من حقه أن يبديه، ومن الواجب علينا أن نحترمه مهما اختلفنا معه، وإذا لم نرسخ لمفهوم «اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»، فإننا سنظل نراوح في محلنا، بينما يتقدم العالم من حولنا.
ولعل القارئ الكريم يعود إلى الصورة ليتأملها جيداً وهي في سياقها الذي هو «النص» هنا، فإنه سيجد أن المقصود هو التعبير عن مضمون المقام، من دون أي سخرية من أي قوم، لأن رسالة المجلة إرساء قيم الإسلام الداعية إلى احترام إنسانية الإنسان بغض النظر عن أصله وعنصره ودينه، والآية الكريمة التي أوردها تغني عن أي مقال.

أم المساكين

السؤال الثاني «أم المساكين» الوارد حول مسابقة العدد (٢٨٨) ذكر كثير من المراجع القديمة والحديثة أن لقب أم المساكين أطلق على أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية كما ورد في «أسد الغابة في معرفة الصحابة». ونساء النبي وكتاب «أمهات المؤمنين» وأيضاً المنجد والموسوعة وغيرها، ولكن إذا عدنا إلى الحديث النبوي «أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً» أو كما قال عليه الصلاة والسلام فكانت أمهات المؤمنين يتسابقن إلى قياس أطول أيديهن، فلما ماتت زينب بنت جحش، رضي الله عنها، علمت أمهات المؤمنين أنها المقصودة، وكانت مشهورة بعمل الخير وكثرة الصدقة إذ كانت تشتغل بيديها ثم تنفق كل ذلك على الفقراء والمساكين.

لطفية أحمد جمعان
صنعاء - اليمن - ص.ب ٢٠١٢٢

تصحيح معلومات

أشكر لكم ردكم على ملاحظتي عن نصير الدين الطوسي في العدد ٢٨٨. وقد كان ردكم حقاً في محله، وقد قمت بمراجعة ما أوردتموه من مصادره، وكان صحيحاً، وعليه أعود لأكرر لكم شكري وتقديري، وطبعاً من طرفي قمت بتصحيح معلوماتي.

رُلى كمال
عمان - الأردن - ص.ب ٧٢٢٦ - الرمز البريدي ١١١١٨

جوائز المسابقة!!

جوائز المسابقة الحالية غير مناسبة من حيث العدد ولا ترضي إلا ثلاثة قراء من عشرات الآلاف لذلك أقترح بقاء المبلغ نفسه على أن يصبح عدد الجوائز عشر جوائز، قيمة كل واحدة ٣٠٠ ريال، أو ثلاث جوائز، قيمة كل واحدة منها ٥٠٠ ريال وسبع جوائز بواقع ٢٠٠ ريال لكل جائزة، وإلغاء جائزة الاشتراك فهنالك تناقض واضح.
كما نرجو جعل مدة تلقي الإجابات ٤٥ يوماً من تاريخ صدور العدد لضمان مشاركة أكبر عدد من القراء.

د. سعاد جلال الدين
ص.ب ٣٢٣١ - دمشق - سورية

التحرير:
نشكر لك الاهتمام والمتابعة، وسوف يتم النظر في اقتراحك، علماً بأن هناك اتجاهاً لتعديل شكل المسابقة، وعدد جوائزها، وقيمتها المادية؛ تلبية لرغبات الإخوة القراء. أما الاقتراح الثاني فهو معمول به منذ أشهر مضت.

ردود سريعة

الأخ مختار زوهيري - تلمسان - الجزائر:
إذا أردت نسخ شيء مما هو وارد في كشاف الفيصل العام والسنوي فيمكنك مراسلة قسم خدمات **المعلومات - خدمة الباحثين** على العنوان: ص.ب ٥١٠٤٩ - **الرياض** ١١٥٤٣ وناسوخ رقم: ٤٦٥٩٩٩٣، وحيث إنك تطلب من الإخوة القراء مساعدتك بما لديهم من كتب ومجلات إسلامية، فإننا ننشر عنوانك لعل من الإخوة القراء من يستطيع تلبية رغبتك:

بلدية سيدي مجاهد
مغنية - تلمسان ١٣٣٣٠ - الجزائر.

الأخوان محمد صالح النصر - حلب - سورية، ومحمد قاسم زي صعدة - اليمن:
الجهد الذي يبذل في إخراج المجلة والذي تشكراننا عليه هو واجب تحتمه رسالة المجلة، وما نأمله أن تكون عند حسن ظن القراء، وأن نتمكن من تقديم زاد ثقافي بجدون فيه المتعة، والفائدة، وإذا كنتما، تشكراننا على عودة المسابقة، فإننا نعدكما بتطويرها بما يلبي رغبات القراء الأعزاء.

الأخ خزيمة علي حسين - كراتشي:
نشكر لك الاهتمام بمتابعة المجلة، والتعليق على ما ينشر فيها، ونأسف إذا لم يأت في عرض كتاب «اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية عبر القرون» للدكتور سيد رضوان علي (الندوي) أنه أعد بإشراف وتمويل كرسي السيد محمد برهان الدين للعربية، ونحن إذ نشكر لك هذه المعلومة، نأمل أن نتلقى مشاركاتك، ولعلها تكون مقالات عن هذا الجزء العزيز من عالمنا الإسلامي.

الأخ بن دحو أحمد - عين تموشنت - الجزائر:
نشكر لك إطراءك، ونعتذر عن عدم استطاعتنا تلبية رغبتك المتمثلة في إرسال طوابع بريدية إليك، ولعلك تجد في إحدى المجلات التي تهتم بركن التعارف بين القراء من لديه الهواية نفسها، ويستطيع أن يمدك بما تريد من طوابع، أما هذا الركن فلا وجود له في المجلة، لاهتمامنا بأن يكون تعارف القراء من خلال تبادل الأفكار عبر المجلة.

الأخ الدكتور مشتاق عباس معن - صنعاء - اليمن:
ما قلته عن تأخر وصول المجلة إلى بعض الدول العربية نعمل على حله، وذلك بالاتفاق مع شركات التوزيع في هذه الدول، ومن جهتنا سنعمل على طباعة المجلة في وقت مبكر يتيح لها التوافر في الأسواق مع بداية الشهر العربي.
ويسعدنا شعورك بأن المجلة بيتك الذي تجد فيه كل ما ترغب، ونرحب بمشاركاتك، وقد أرسلت مكافأتك عن الموضوع المنشور في عدد أغسطس/آب ١٩٩٩م إلى عنوانك الجديد.

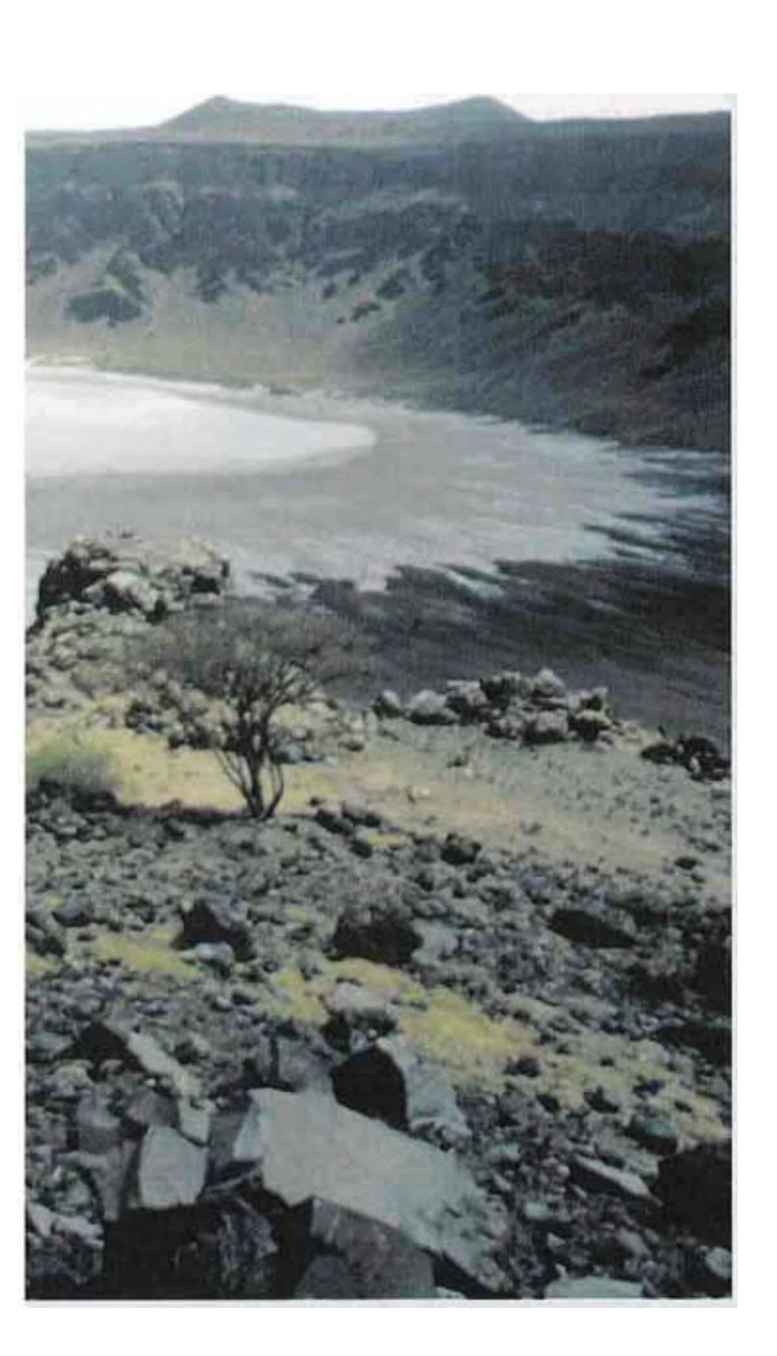


إعداد وتصوير: **جورج سبلي***
ترجمة: **نعيم الغول**
الرياض - السعودية

تحكي الأسطورة «أن حفرة الوعبة إنما هي مقلع لـ (طميّة)؛ وطميّة جبل موجود في الشمال الشرقي من موقع الحفرة، وقد تحركت طميّة من مكانها بسبب عشقها لجبلٍ يسمى (قِطَن) وعندما قربت منه اعترضها جبل صغير يسمى (عكّاش) وأوقف سيرها». [الفيصل]

ويدلل من يحكون هذه الأسطورة على صحتها بأن مساحة هذه الحفرة هي مساحة الجبل المسمى «طميّة». وأن هناك بقايا حجر وصخور مازالت موجودة في خط السير الذي سلكته «طميّة» نحو عشيقها، وهي مشابهة للصخور والتكوين الأصلي الحالي للجبل.

وتردد العامة بيت شعر يجسد العلاقة بين طميّة وقِطَن:



«الهوى قدامنا عذّب طميّه
يوم لاح إلها قطن والدار خالي»

وقرية الوعبة التي تحمل الحفرة اسمها تقع على بعد ٧٠٠كم من الرياض على الطريق السريع من



السؤال عن كيفية حدوث هذا التجويف العظيم لا يزال بلا إجابة قاطعة!

الرياض إلى الطائف فبعد أن تقطع هذه المسافة، وتتجه نحو إشارة مرورية عند أم الدوم دغيبجة، وبالقرب من بلدة الحفر يمكنك السؤال عن الطريق الموصل إلى قرية الوعبة الصغيرة، حيث يوجد خلف المنازل القليلة المتناثرة في هذه القرية سلسلة من التلال المنخفضة الارتفاع والروابي الوعرة. وبالاتجاه نحوها عبر الضواحي إلى قمة ربوة يبدو للمرء فجأة منظر ساحر، هو حفرة الوعبة، يجعله

ترجمة: نعيم الغول

يتشوق إلى أن يهبط تلك المرتفعات.

يبلغ عرض الحفرة الموجودة في القمة كيلين، **ويمتد الملح الموجود بها نحو مئتين وستين مترًا في الجزء السفلي منها. وللوصول إلى هناك عليك أن تسلك طريقًا وعرة تتطلب منك الصعود على** الصخور، مع أنه بوسـ... يمشي على الأقدام للوصول إلى موقع عين ماء (ينبوع)، وبقايا كوخ راع بالقرب من الحافة الداخلية.

وتعد هذه الواحة الصغيرة بحد ذاتها مثيرة للاهتمام، إذ يوجد بها كثير من الطيور وأفعى أو اثنتان، فضلاً عن المناظر الخلابة التي تدهشك وأنت تصعد السفوح الأولية للحفرة ونزولاً إلى قعرها المتألق!

كيف حدث هذا التجويف العظيم؟

كانت هذه الصخور المهشمة لحفرة الوعبة تحتجز ذات يوم بحيرة من مياه الأمطار. وكان هذا الماء ينز (يرشح) ملحًا ومعادن من المواد التي يحتجزها، إلى أن تغلب عليه التبخر والرشح تاركًا وراءه طبقة من الملح بعرض **نصف كيل. ولكن ما هذه القوة الهائلة التي صنعت هذا التجويف العظيم؟ هل هي شهاب «نيزك» ناري ترك ذيله المتوهج عبر عتمة السماء، وترك بصماته المأساوية** ... طويل من سير الإنسان وجماله وماشيته عبر هذه الصحراء؟ وللعثور على الجواب أخذ العلماء يتفحصون الصخور.

مناظر خلابة

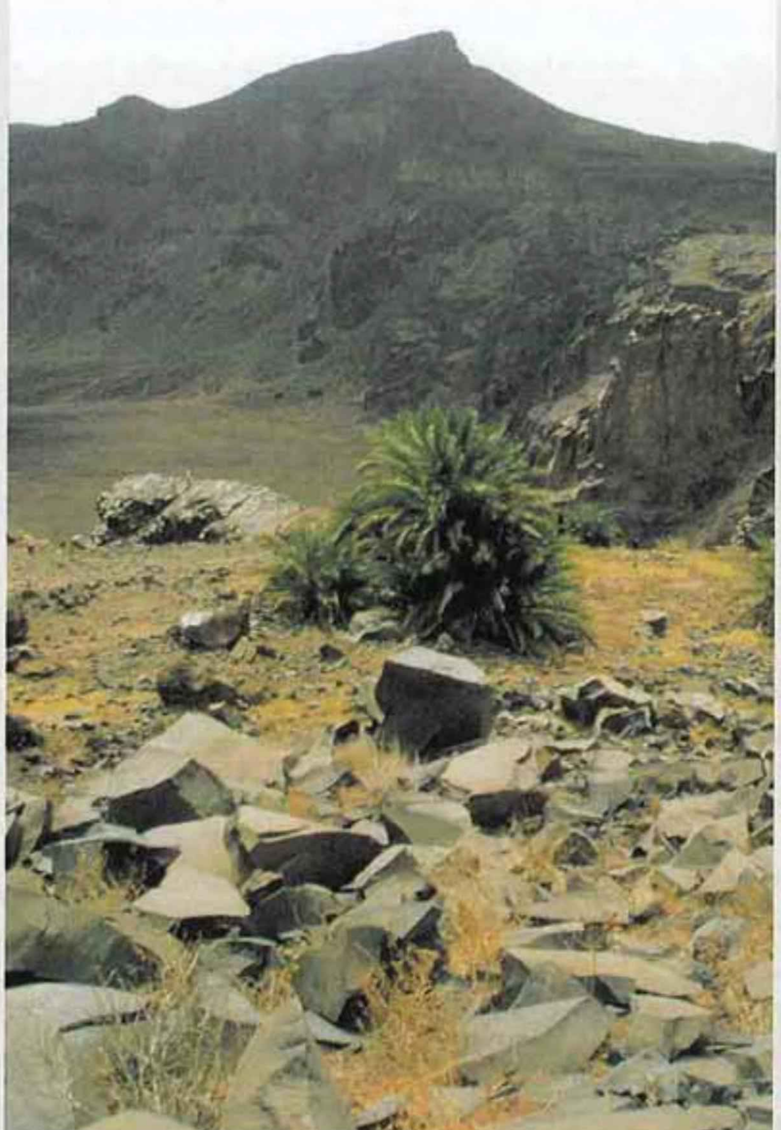
ولوعورة هذه المنطقة، فإن الطريق إلى هذه الحفرة غير الاعتيادية تعد صعبة جدًا. فمعظم الطرق الثانوية على امتداد كثير من السنوات لم تكن أكثر من مجرد مسارات، وهي دروب ومسالك قديمة معروفة محليًا للجمال وقطعان الماشية، أما إذا أراد المرء أن يسلكها بالسيارة فهو يحتاج إلى مركبة ذات قوة دفع بأربع عجلات مزودًا بالماء والوقود والبنزين، على أن ترافقه سيارة واحدة على الأقل مجهزة، على المستوى نفسه، حتى تكون قادرة على الدعم والمساندة في هذه الرحلة المرهقة إذا تطلب الأمر ذلك.

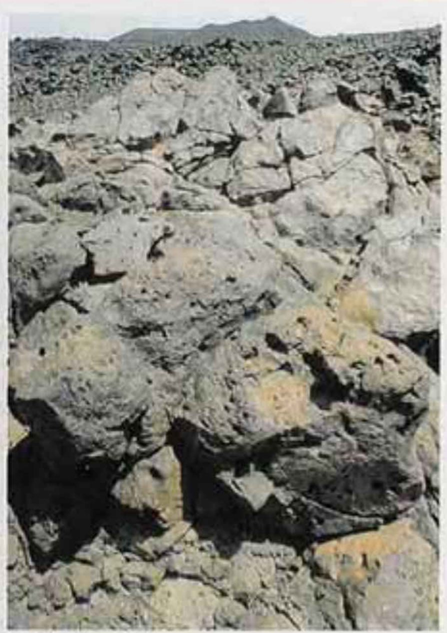
وكانت الرحلة في الماضي طويلة ومغبرة،



مشهد جميل يغري بالتخييم على ضوء القمر

السؤال عن كيفية حدوث هذا التجويف العظيم لا يزال بلا إجابة قاطعة!





الطريق إلى الحفرة
لا يزال وعراً لوجود
الصخور الضخمة

وإذا أراد المرء أن يستطلع تلك الحفرة كان عليه أن يخيم بالقرب منها. أما في هذه الأيام فمعظم الطرق التي توصل إلى قرية الوعبة ممهدة، وبوسع المسافر أن يشتري الوقود والماء إذا احتاج إليهما، كما أنه لم يعد يحتاج إلى أن يصطحب معه كل شيء. ولكن الأمر لا يزال يحتاج إلى قيادة سيارة قوية متينة تخترق تلك المنطقة للوصول إلى حافة الحفرة، ولكن ليست بالضرورة أن تكون هذه السيارة مركبة ذات قوة دفع بأربع عجلات. وعلى الرغم من أن زيارة ذلك المكان يمكن أن تكون في فترة ما بعد الظهر بعيداً عن الخط السريع، فإن سحر هذا المنظر وجماله الآسر يتبدى للمرء ويشعر به أكثر عندما تكون الزيارة والتخييم ليلاً على ضوء القمر.

مصدران

وإذ ا ألقينا نظرة فاحصة على هذه الحفرة التي تصنف في مصاف الحفر العالمية المحسوبة، فإنه يتبين لنا أن صنعها يحتاج إلى قدر هائل من الطاقة، ويحتمل أن تكون هذه الطاقة من أحد مصدرين:

الأول، من باطن الكرة الأرضية الملتهب، والآخر من مكان علوي بعيد يكمن في الامتدادات الثلجية


ليس مستبعداً أن تكون الحفرة نتيجة حمم بركانية

فإن العوامل (الجيولوجية) بما تحمله من حرب مائية هي فكرة مثيرة أيضًا. وهذا يذكرنا بأن أحداثًا عظيمة يمكن أن تنتج من أسباب قد تبدو أنها ليست بذات شأن. وبذلك فإنه يتبين لنا أن الأشياء الاعتيادية من حولنا هي ليست بهذه الدرجة من الاعتيادية التي نظنها. إنها ليست أقل شأنًا من العناصر الأولية لإحداث السحر، وإمكانات لا حصر لها من جمع رائع بين أشياء بسيطة.

وهناك دليل أكثر أهمية وهو طبقة الملح التي تغطي أرضية قعر الحفرة، وبما أن التبخر يوجد الآن فهذا يعني وجود ماء في وقت ما، وإذا توافر ماء ومصدر حرارة فبالإمكان إنتاج نوع آخر من الانفجارات. وهذا يعني أن ثمة بركانًا وجد يومًا ما في هذه المنطقة.

والدلائل بسيطة.. فإذا رشح ماء كاف إلى حمم وصخور بركان مخروطية، فقد يخوض الماء والحمم البركانية معركة شرسة تحت الأرض؛ معركة تُحل أخيرًا في انفجار عنيف مفاجئ يطمس بشكل كامل كل أثر للجبل السابق.

حل اللغز

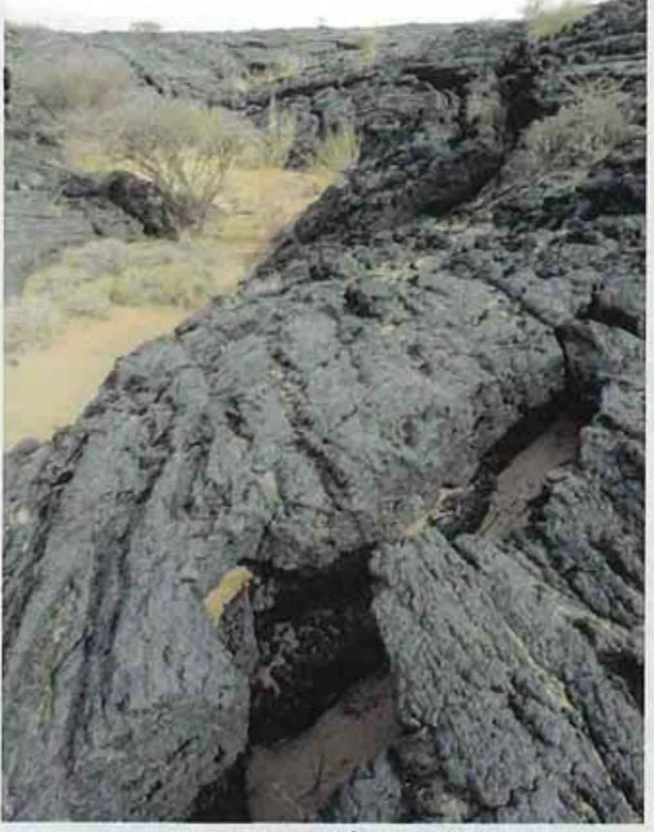
ويتمثل الدليل الأول بالمشهد التالي: تنتصب جدران الحفرة عمودية تقريباً، ولما كانت البراكين

للفضاء الخارجي فهل كانت هذه الحفرة نتيجة ثورة بركان حدث قبل الحقبة التاريخية، أم أن تصادماً انفجارياً كونياً هو الذي أوجدها؟

الواقع أنه من دون إجراء بحث علمي رئيس يتضمن أعمال حفر عميقة في تلك المنطقة، فإننا لن نعرف الحقيقة بشكل مؤكد. وبمقدار مايحمله احتمال أن تكون قذيفة سقطت من الفضاء الخارجي من إثارة،


الصخور كانت تحتجز بحيرة من مياه الأمطار

الوُعْب وعـاب: جـمع الوَعْب. والاسـتيـعـاب هو الاسـتـقـصـاء في الشـيء والاسـتـئـصـال، والوعب: الواسع؛ والوعاب: مواضع.
مـعـجـم البلدان (وعـــاب) ٣٧٩/٥، دار صـــادر - بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
الوعب: إيعابك الشيء في الشيء، كأنه يأتي عليه كله، وعب الشيء وعبا وأوعبه واستوعبه: أخذه أجمع.
واستـوعب المكان والوعاء الشيء: وسـعه. والاسـتيـعـاب: الاسـتـقـصـاء في كل شيء. وبيت وعيب: واسع يستوعب كل ما جعل فيه. وطريق وعب: واسع والوعب: ما اتسع من الأرض.
[الفيصل]


الطبقات الصخرية قد تكون مكمن حل اللغز

تندفع من سطح الأرض إلى أعلى، فإن ذلك قد يشير إلى أن السبب في إحداث هذه الحفرة هو شهاب (نيزك) ما أو مذنب.

وتنحدر الفتحة بعيداً عن صحراء مستوية تحيط به تقريباً. وبالتأكيد، فإن بركاناً ما سيكون قد ترك خلفه على الأقل جزءاً يشهد على شكله المخروطي.

ومن ناحية أخرى، فقد أثبتت البحوث أن الحفر التي تحدث نتيجة تصادم تشكّل حوافّ مرتفعة أيضاً، لأن المادة التي لا تتبخر عند نقطة الاصطدام مباشرة تذوب وتتناثر نحو الخارج إلى أن تبرد وتتصلب لتصبح صخوراً مرة ثانية.

إنه من الصعب على المرء أن يكف عن مواصلة النظر إلى مشهد حفرة وعبة. ولكن المناظر البرية الأكثر تواضعاً - البعيدة عن وسائد حافة الحفرة للحمم المتحجرة - توفر دليلاً كافياً على أننا أمام بقعة شهدت نشاطاً بركانياً مكثفاً. وفي الواقع فإن أحد المسارات الترابية الذي يؤدي - في طريق العودة - إلى القرية يعبر لساناً من الحمم البركانية يمتد بعيداً في تلك الرقعة من الأرض بمقدار عدة أكيال عرضاً.

إن الطبقات الصخرية للحمم البركانية قد تناثرت في جميع أنحاء ذلك المكان على امتداد الطريق المحاذية للخط السريع. وبقدر ما يتعلق الأمر بهذا الشأن، فإن تلك الطبقات الصخرية التي تناثرت على امتداد طريق العودة إلى الرياض قد تكون «مدفع الدخان» والتي تفسر هذا اللغز!!

الهوامش

• ينشر هذا الاستطلاع (بتصرف) بالتنسيق مع صحيفة «الرياض ديلي» Riyadh Daily التي سبق لها نشره باللغة الإنجليزية في عددها الصادر بتاريخ (٢٣ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ/ ٢١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠م).

رمضان في الذاكرة الأندلسية

خالد عبدالكريم البكر
الرياض - السعودية

ارتبط شهر رمضان المبارك وأفئدة المسلمين برباط وجداني عظيم، فعلاوة على كونه مناسبة دينية كبرى تهبُّ فيها المِنَح الإلهية على أولئك الصالحين المتعرضين لنفحات الرحمن؛ فقد شهد الشهر الكريم معظم الوثبات الإسلامية الكبرى، ممثلة بالفتوحات العسكرية والحضارية التي حققها المسلمون في مواسم رمضان. ولذا فقد عرف أسلافنا لهذا الشهر فضائله، فاختصوه بعنايتهم البالغة، وميّزوه من باقي الشهور بمميزات اجتماعية كثيرة، صارت على مرّ الزمن أشبه ما تكون بـ «التقاليد الرمضانية العريقة» التي اشتركت فيها المجتمعات الإسلامية قاطبة، على تباين أمكنتها، وتعاقب أزمنتها.



ولم يكن المجتمع الإسلامي في الأندلس بمعزل عن الاحتفاء بموسم رمضان، وإنما ضرب مسلمو الأندلس بسهم وافر في هذا الميدان، بل إن بعض العامة من الناس في الأندلس، بالغوا في احتفائهم بالشهر الكريم إلى أن تجاوزت بهم المبالغة الحدود الشرعية المقررة، تحدوهم رغبة جامحة - فيما يبدو - لمحاكاة المناسبات الدينية المتنوعة لدى مواطنيهم من النصارى الإسبان، فاجتهد الفقهاء في ردِّهم إلى جادة الصواب بالوعظ والإرشاد والإفتاء، إلى غير ذلك مما سيرد.

التهيؤ لرمضان

لقد كان مسلمو الأندلس يأخذون أهبة الاستعداد لموسم رمضان قبل حلوله بشهر أو أكثر، فما إن ينسلخ رجب ويستهلّ شعبان حتى

يبدأ العمل في إعداد المساجد وصيانة مرافقها، ولا سيما المسجد الجامع في قرطبة. وكان الفقهاء والصالحون يشاركون سدنة المسجد الجامع في القيام بمثل هذه الأعمال التطوعية، غير أن المهمة الرسمية في إعداد المساجد لمثل هذه المواسم، كانت تقع على كاهل قاضي البلد. ونستدل على ذلك مما رواه القاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ) من أن القاضي الأندلسي محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن يحيى المعروف بابن أبي عيسى (ت ٣٣٩هـ) كان يحضر مسجد الجامع عقب شعبان من كل عام مع السدنة والقوّام لخدمته، من كنسه وصقل مصالحه، تنويهاً لمدخل الشهر، فيشاركهم في ذلك مشمراً عن ساعديه(١).

لكن إعداد المسجد الجامع بقرطبة لاستقبال رمضان، لم يقتصر على هذا الحدّ، وإنما امتد ليشمل تجهيز المسجد بمستلزمات الإضاءة كالزيت وفتائل الكتان والشموع، إضافة إلى أصناف من العود والبخور(٢).



المسجد الجامع بقرطبة



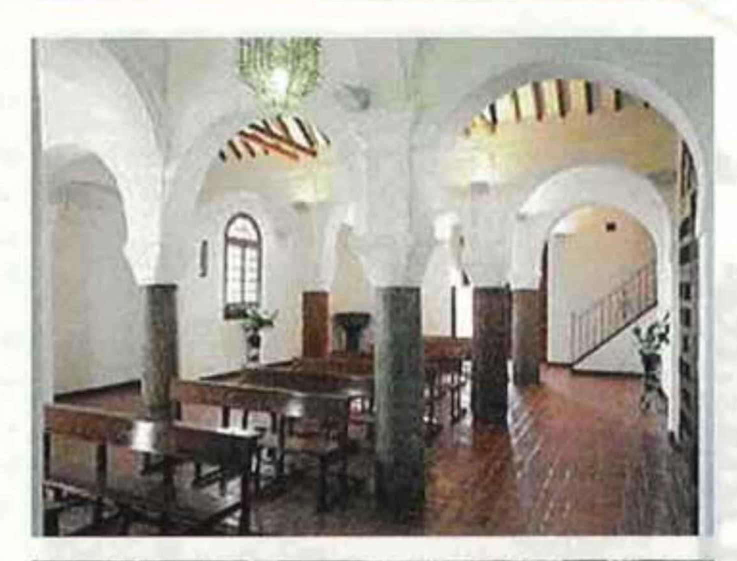
منظر عام لقرطبة

النار وسيلة للإعلان

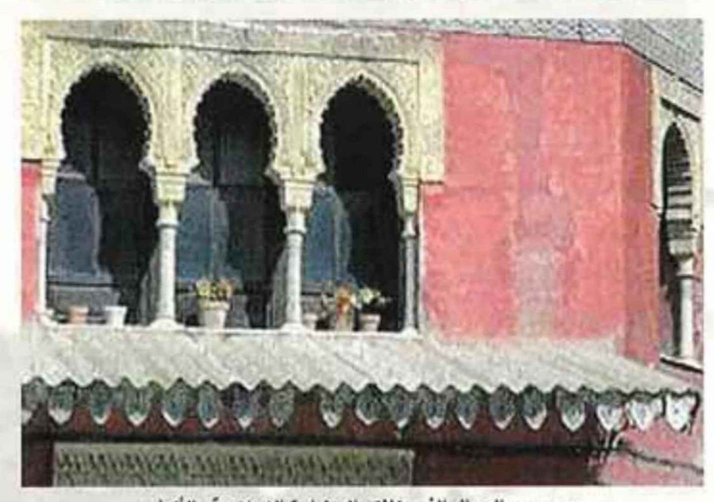
ويبدو أن الإعلان عن دخول الشهر الكريم كان يتم في المساجد أو الأسواق أو غيرها من الأماكن العامة في المدن الكبرى، أما في الريف الأندلسي فكانت القرى تحتفل برؤية هلال رمضان عبر إيقاد النار لإعلام القرى المجاورة ببدء شهر الصيام(٣). وهي طريقة شبيهة بأسلوب إشعال النار في الأبراج الساحلية للإنذار بقدوم غارات بحرية محتملة. ولذا فإن من المرجح أن إيقاد النار في قرى الأندلس مع استهلال رمضان، كان يتم في أبراج مخصصة لهذا الغرض، حتى يصل الدخان إلى أقصى ارتفاع ممكن.

ومثلما استعمل الأندلسيون هذه الوسيلة في الريف للإعلان عن دخول الشهر الكريم، فقد توصلوا إلى وسيلة أخرى للإعلان عن غروب الشمس وحلول موعد الإفطار داخل المدن الأندلسية، وهي استعمال البوق، وقد أشار الونشريسي إلى ذلك بقوله: «وهذا البوق صار علماً في الأندلس في رمضان على غروب الشمس ودخول وقت الإفطار»(٤). وهذه الطريقة مماثلة لاستعمال المدفع في كثير من المدن الإسلامية حتى وقت قريب، وذلك بقصد الإعلان عن دخول الشهر الكريم، أو انقضائه، أو دخول وقت الإمساك ونحو ذلك.

وإذا ما حلّ وقت الإفطار، فإن المائدة الأندلسية تزدان بصنوف من الأطعمة الرمضانية، ولعل من بينها لوناً من الطعام يسمى بـ «جوذاب الوارد»، وهو من المأكولات الخاصة برمضان، وقد أشار إليه ابن قُزمان







صور من الجمال الذي خلفته الحضارة الإسلامية بالأندلس

في أحد أزجاله، فقال(٥):

جُوذابه قمح الضيف
أينكم إخواني
رمضان ذاب مُقبل
الخبر قد جاني

وتُقدم لنا المصادر صوراً من التماسك الاجتماعي للأسر الأندلسية في رمضان، فالأبناء يلتفون حول أبيهم على مائدة الإفطار في جو أسري حميم، فهذا قاضي القضاة الأندلسي في عصره منذر بن سعيد البلوطي(ت:٣٥٥هـ) يجتمع إليه أولاده في ليالي رمضان، وقد أخبر عن ذلك ابنه سعيد، فقال: «قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم مع أبينا للإفطار بداره البرانية، فإذا سائل يقول: أطعمونا من عشائكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة هذه الليلة، ويكثر من ذلك. فقال القاضي: إن استُجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا واحد»(٦). ويستفاد من النص صورة اجتماعية أخرى، وهي أن المتسولين كانوا يستغلون مثل هذه الأوقات لاستدرار عطف الناس.

إبراز المواهب

ولقد شكلت ليالي رمضان فرصة مثالية لإبراز مواهب القراء في حفظ كتاب الله وتجويده والإحاطة بأوجه قراءاته، وذلك في صلاة التراويح. فقد كان الأمراء الأمويون يلتمسون القراء المجوِّدين، فيبعثون في طلبهم من مختلف أنحاء الأندلس إلى العاصمة قرطبة، كالذي فعله الأمير الحكم الرَّبَضي بن هشام (ت:٢٠٦هـ) حينما واظب على استدعاء حفص بن عبدالسلام السلمي من سرقسطة إلى قرطبة، وذلك في شهر رمضان من كل عام، ليعهد إليه بإمامته في صلاة التراويح(٧). وهذا الإجراء لا يدل على ندرة القراء بقرطبة عاصمة أمويي الأندلس، وإنما يرجع - فيما يبدو - إلى حجم المكانة العلمية والاجتماعية لحفص بن عبدالسلام، إذ كان من



التراث الإسلامي في الأندلس لا يزال نابضًا في ذاكرة التاريخ

ألصق الطلبة الأندلسيين بالإمام مالك بن أنس، وظلّ ملازمًا له مدة سبعة أعوام متتالية. أما المقرئون من الشبان فكانوا يستعرضون مهاراتهم في قراءة القرآن الكريم بأوجه كثيرة من القراءات، مما يجعلهم هدفًا لانتقادات كبار فقهاء المالكية الذين التزموا حرف نافع(٨).

ويلاحظ أن مسلمي الأندلس أضفوا على ليالي رمضان طابعًا احتفاليًا، ولا سيما صلاة التراويح التي تُعد مناسبة موسمية، ولذا تم تزويد المساجد بما تحتاج إليه من وسائل الإضاءة، فقد خُصص للمسجد الجامع بقرطبة ثلاثة أرباع قنطار من فتائل الكتان، ومئتان وخمسون ربعًا من الزيت، وثلاثة قناطير من الشمع، يزن أكبرها نحو خمسين أو ستين رطلاً، توقد بجانب الإمام(٩). فإذا دخلت العشر الأواخر من رمضان، أضيئت جميع ثريات المسجد الجامع، وعددها مئتان وأربع وعشرون ثريا موزعة على أروقة المسجد(١٠). وتستمر أجواء الاحتفال الديني بشكل متصاعد حتى إذا جاءت ليلة ٢٧ رمضان، أوقدت جميع الشموع في المسجد(١١)، وكذلك الحال في ليلة الختمة، حيث يوقد من البخور أربع أواقٍ من العنبر وثماني أواقٍ من العود الرطب(١٢).

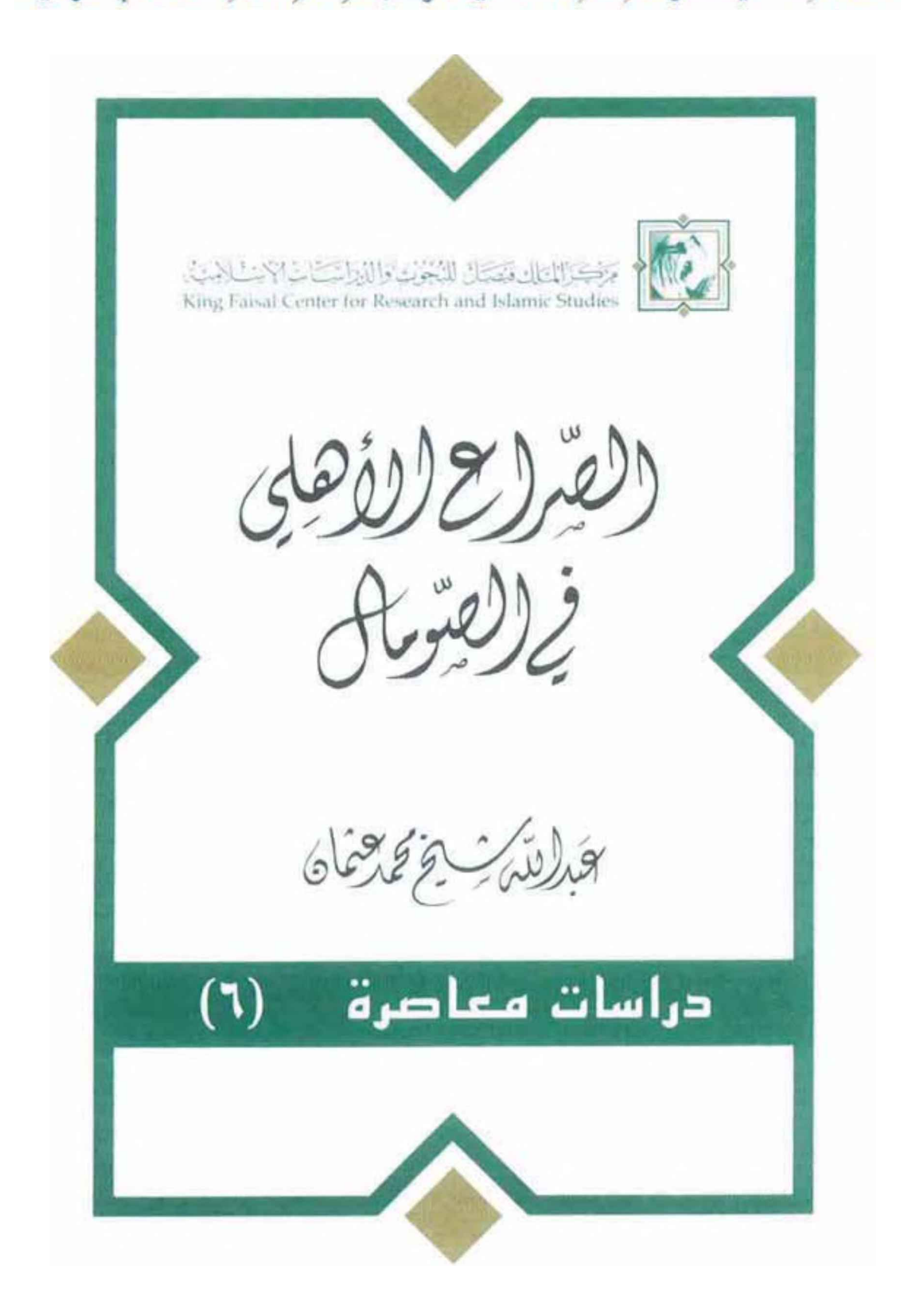
ويبدو أن إيقاد الشموع، تعبيرًا عن الاحتفال بهذه الليالي، لم يقتصر فقط على المساجد، وإنما امتد إلى الأماكن العامة كالأسواق والطرقات، وأدى ذلك في بعض الأحيان إلى تجاوزات شرعية، تمثلت في اختلاط الرجال بالنساء، وظهور المنكرات، وهذا ما تكشفه فتوى الإمام الشاطبي، حيث جاء فيها: «إن تعظيم الليلة، ليلة الختم أو الشهر بإيقاد النيران فيه تعظيم للنار، مع زيادة السرف واجتماع الغوغاء وظهور المنكرات باجتماع الرجال والنساء وغير ذلك مما لا يحل»(١٣).

بقي أن نشير إلى أن قسمًا من الصالحين وجدوا لشهر رمضان في الأندلس مزية قد لا توجد في بعض الأقاليم الإسلامية، وذلك لكون الأندلس ثغرًا من ثغور المسلمين، فتطوعوا للمرابطة في بعض الثغور الأمامية خلال شهر رمضان، مثلما كان يفعل عبدالله بن سعيد العاملي الرباحي(١٤)، عسى أن يضاعف الله لهم الأجر والمثوبة في هذا الشهر الكريم.

المراجع

١. القاضي عياض، ترتيب المدارك، المجلد الثاني، ص٤٠٨.
٢. ابن عذاري، البيان المغرب، جـ٢، ص٢٨٧.
٣. الونشريسي، المعيار المعرب عن فتاوى إفريقية والمغرب، جـ١٠، ص١٤٩.
٤. الونشريسي، المعيار المعرب، جـ٢، ص٤٦٦.
٥. محمد بن عيسى اللخمي أبو بكر بن قزمان (ت: ٥٥٥هـ)، ديوان ابن قزمان، نشره فيدريكو كورينتي، ص ٨٦٤ ـ ٨٦٥.
٦. أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (ت:١٠٤١هـ)، جـ٢، ص١٧.
٧. ابن الفرضي عبدالله بن محمد (ت ٤٠٣هـ)، تاريخ علماء الأندلس، جـ١، ص٢١٥.
٨. محمد بن الحارث الخشني (ت: بعد ٣٦٦هـ)، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص ٣٧ ـ ٣٨.
٩. ابن عذاري (ت نحو ٦٩٥هـ)، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، جـ٢، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨، والمقري، نفح الطيب، جـ١، ص ٥٤٩.
١٠. المقري، نفح الطيب، جـ١، ص٥٥١.
١١. محمد بن محمد الإدريسي الصقلي (ت: ٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جـ٢، ص٥٧٧.
١٢. ابن عذاري، البيان المغرب، جـ٢، ص٢٨٨.
١٣. إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ص٢٠٨.
١٤. خلف بن عبدالملك ابن بشكوال (ت: ٥٧٨هـ)، الصلة، جـ١، ص٣٦٠.

صدر حديثًا عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية



يطلب من : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
إدارة التسويق - ص ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ - هاتف ٤٦٥٢٢٥٥ ناسوخ ٤٦٥٩٩٩٣

عندما يوغل التاريخ في السخرية!..

خير الدين عبدالرحمن
حلب - سورية

قبل أن تستفحل الهيمنة اليهودية على هولندا، مثلما استفحلت في أكثر الدول الأوربية - وغير الأوربية أيضاً - كانت الحكومة الهولندية تتوجس من نفوذ يهودي في هذا البلد أو ذاك، وتتشاور مع الحكومات الأوربية الحليفة والصديقة بشأن أنسب السبل لمواجهة ذلك النفوذ أو محاصرته. هذا ما حدث بالضبط لدى انتصار الثورة الشيوعية في روسيا قبل ثلاثة وثمانين عاماً. فقد كلفت الحكومة الهولندية وزير خارجيتها أونديك إجراء اتصال عاجل بالحكومة البريطانية وإبلاغها مخاوف هولندا من ثورة روسية يسيطر عليها اليهود تماماً.

لم تكن الحكومة الهولندية تدري آنذاك أن الاتصالات والصفقات بين الحركة الصهيونية العالمية والقوى المتنفذة في بريطانيا - سواء الواضحة منها أو الخفية - كانت قد نضجت تماماً لتستقر على اتفاق بشأن ارتكاب إحدى أبشع الجرائم في التاريخ، تلك هي التهجير الجماعي ليهود أوربا إلى فلسطين، وتمكينهم من اغتصاب البلاد، والاقتلاع الجمعي لشعبها، وتشريده بالقوة والقهر تمهيداً لإلغائه ودفعه إلى الاضمحلال في المنافي؛ لذلك جاءت الرسالة التي بعث بها وزير خارجية هولندا آنذاك، تنفيذاً لقرار حكومته، إلى الحكومة البريطانية لتشكل مدعاة دهشة كبرى لمن اطلعوا عليها لاحقاً، ولتظهر كم يتمادى التاريخ في سخريته من خلال مفارقات تحملها الأقدار.

تحذير من اليهود

أول جوانب المفارقة أن رسالة وزير الخارجية الهولندي - آنذاك - أونديك، كانت موجهة إلى نظيره وزير الخارجية البريطاني بلفور. طبيعي أن يخاطب وزير خارجية نظيره في دولة أخرى، لكن غير الطبيعي أن يتم توجيه التحذير والإعراب عن القلق من الهيمنة اليهودية إلى شخص ذي ارتباط يهودي وثيق، ألزم بريطانيا بتبني المشروع الاستيطاني الاستعماري الصهيوني في فلسطين من خلال تعهد رسمي اشتهر لاحقاً باسم «تصريح بلفور»، ومن خلال تواطؤ بعثت بريطانيا بموجبه تسعين ألفاً من جنودها لاحتلال فلسطين تنفيذاً لما كان ظاهرياً إدارة البلاد بموجب صك انتداب أصدرته عصبة الأمم، بينما كان عملياً تنفيذ التوافق على تهجير مئات الآلاف من اليهود إلى فلسطين، وتمكينهم من السيطرة عليها وانتزاعها من أهلها.

ثاني جوانب المفارقة أن رسالة وزير خارجية هولندا المرسلة إلى بلفور كانت مؤرخة في الأول من شهر نوفمبر عام ١٩١٧م، أي قبل يوم واحد من إصدار تصريح بلفور الذي ألزم بريطانيا الاشتراك في جريمة إلغاء وطن وافتعال آخر، ومحاولة إبادة شعب، وامتهان أمة للهيمنة عليها، ونهب مواردها.

لكن ذروة المفارقة تكمن في مضمون الرسالة الهولندية ومفاهيمها وهدفها بينما هي موجهة إلى شخص تولت ابنته لاحقاً الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية التي كانت بمنزلة حكومة الاستيطان الاستعماري اليهودي في فلسطين.

جاء في الرسالة:

«إنني أعتبر القضاء على الثورة الروسية أكثر أهمية للعالم من كسب الحرب الحالية (العالمية الأولى)، ولذا أقترح إيقاف الحرب حالاً وتوجيه اهتمامنا جميعاً إلى روسيا والقضاء

على ثورتهـــا، لأن هذه الثـــورة - إن تمكنت من ترسيخ جذورها في البلاد الروسية - سوف تكون وبالاً على العالم أجمع، لا لكونها اشتراكية، ولا لأنها روسية، بل لكونها يهودية خالصة، تُسيَّر من قبل اليهود، ووفق إرادتهم، ونجاحها لن يكونِ إلا لمصلحة اليهود وحدهم؛ وإذا قدر لهم السيطرة على الروس فسوف يعمدون إلى توسيع نفوذهم، وتحقيق برامجهم. إن هؤلاء اليهود الذين لا وطن لهم يسعون منذ أقدم العصور إلى تدمير الشعوب الأخرى ليقيموا على أنقاضها مجدهم الذي يحلمون به. فالحذر الحذر، ولا تجنحوا إلى القول: إن هذه الفئة القليلة العدد من اليهود لن تتمكن من السيطرة على روسيا العظيمة، فكيف لها أن تتحكم في العالم بأسره. أنتم أدرى من سواكم بكيفية تحكم بضع مئات من الإنجليز بالقارة الهندية منذ عدة أجيال، رغم أن الهند تحوي أكثر من ثلاثمئة وخمسين مليونا من البشر (آنذاك، أما الآن ففيما كان يعرف هندا - أي الهند الحالية وباكستان وبنجلاديش وسريلانكا - نحو مليار وربع المليار من البشر)، فلماذا يكون مستحيلاً على اليهود ما هو ممكن للإنجليز؟ ولذا أرجو ألا تنكروا هذه الحقيقة الناصعة، وأن تتيقنوا من وجود الخطر اليهودي على العالم.

وأخيراً أكرر رجائي بأن تولوا الموضوع الأهمية اللائقة، وتعلمونا قراركم.

التوقيع: أونديك»(١).

هذا ما جاء في رسالة وزير الخارجية الهولندي أونديك إلى وزير الخارجية البريطاني بلفور يحذره من اليهود الذين سيطروا على روسيا و«سوف يعمدون إلى توسيع نفوذهم وتحقيق برامجهم..» إذ إن «هذه الفئة القليلة.. تتحكم في العالم». إنه استشراف صائب نفاذ للمستقبل، كشف ما قد حدث فعلاً من هيمنة يهودية على معظم دول العالم، لم تقف عند حدود دول كبرى مثل الولايات المتحدة، وروسيا، والصين، والهند، وبريطانيا، وفرنسا، بل تجاوزتها حتى إلى بعض البلدان المستهدفة مباشرة قبل سواها بما أسماه أونديك بحق «الخطر اليهودي على العالم».



كارل ماركس

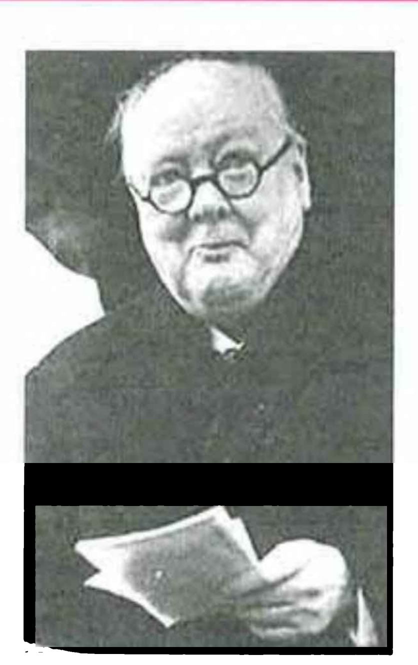
الويل لمن يتصدى للخرافة

تستمر حلقات المفارقات عندما نجد أن عشر معشار ما جاء في رسالة وزير الخارجية الهولندي الأسبق أونديك كفيل اليوم بزج من يجازف بقوله في السجن وتدمير حياته وعلاقاته وتشويه سمعته بموجب القوانين التي فرض اليهود تطبيقها في معظم البلدان الأوربية، والتي بموجبها للمرء مطلق الحرية في التهجم بأقذع الشتائم والافتراءات على الله عز وجل، وعلى الأنبياء والرسل، وعلى الأديان، وعلى سائر الأمم وملوكها ورؤسائها وتراثها وقيمها، لكن الويل كل الويل لمن يتساءل عن مدى صحة خرافة ابتدعها اليهود، أو أكذوبة أطلقوها، أو يستذكر جريمة ارتكبوها في أي زمان أو مكان! أليس هذا ما أصاب روجيه جارودي أمام القضاء الفرنسي والمؤرخ لودفيج أمام القضاء البريطاني، وسواهم كثير في بريطانيا وفرنسا وهولندا وسويسرا وكندا واستراليا والولايات المتحدة ودول أخرى.. ومن يدري أكان هذا سوف يصير الحال حتى في دول كانت إلى وقت قريب معادية للصهيونية ومن ضحاياها المباشرة.

ذات يوم كتب رئيس وزراء بريطانيا الأسبق دزرائيلي - وهو يهودي تظاهر باعتناق المسيحية - مؤكداً أن الذين يحكمون البلدان المختلفة في أوربا أساساً ليسوا أولئك الظاهرين تحت الأضواء على خشبة المسرح، وإنما هم آخرون يحركون الخيوط من وراء الستار، و«كلهم يهود»، كذلك كتب أن «اليهود وقفوا على رأس جميع الجماعات السرية بلا استثناء»(٢). لعل في هذا ما يفسر على نحو أفضل ما رمى إليه ثيودور هرتزل بقوله: إن «الكفاح من أجل خلق شيء جديد يناسب الحياة اليهودية المعاصرة وتطلعاتها يظهر الدافع إلى تدمير العوالم التي سبقته»، وهو تدمير مرتبط بمخاطبته كل يهودي قائلاً: «كل إنسان آخر على خطأ، وأنت وحدك على صواب».

تشرشل بين القول والفعل

تتجدد المفارقات عندما نقرأ لونستون تشرشل، رئيس الحكومة البريطانية الأسبق، ما نشرته له صحيفة صندي هيرالد المصورة يوم ٨ فبراير/شباط ١٩٢٠م عن تقويمه لدور اليهود: «يبدو أن الدعاية المخطط لها مسبقًا ضد إنجيل يسوع وضد يسوع بالذات، ولدت في أعماق ذاك الشعب نفسه، الغامض والخفي، الذي اختير ليكون ظاهرة فريدة - كما هي إلهية كذلك هي شيطانية - ابتداء من سبارتاك - ويسهاوت حتى كارل ماركس وانتهاء بتروتسكي وبيل كونا في هنغاريا وروزا لوكسمبورغ في ألمانيا وإيمي غولدمان في الولايات المتحدة الأمريكية. هذه المؤامرة العالمية مستمرة في النمو لسحق الحضارة، وإعادة المجتمع إلى البدايات الأولى للتقدم؛ إلى فرض الحسد والغيرة والحقد وعدم المساواة». لكننا لا نلبث أن نجد ونستون تشرشل هذا نفسه قد مضى بعد ذلك ليدعم المشروع الصهيوني لاغتصاب فلسطين، ويعيد ترتيب أوضاع المنطقة حول فلسطين بما يخدم هذا المشروع الذي لا ينفصل اغتصابه لفلسطين عن باقي فصول ما أسماه تشرشل نفسه «هذه المؤامرة العالمية». بل إنه ازداد التزامًا بوضع طاقات بريطانيا وجهودها في خدمة ذلك المشروع حتى بعد أن نشرت صحيفة باريس في أول يونيو/حزيران ١٩٢٨م رسالة بعث بها الصهيوني البارز باروخ ليفي قبل نحو نصف قرن



ونستون تشرشل

إلى كارل ماركس قال فيها: «في التنظيم الإنساني الجديد، على أبناء إسرائيل الانتشار على وجه الأرض كلها، حيث يجب أن يصبحوا في كل مكان الموجهين.. وهكذا يتحقق وعد التلمود..».

كانت المفارقة قد تكررت معكوسة من قبل مع نابليون بونابرت الذي خاطب مجلس الدولة الفرنسي بقوله: «إن اليهود مثل الجراد ودودة الحرير يلتهمون فرنسا.. وإن وضعهم الآن هو دولة ضمن دولة»، بينما كان نابليون بونابرت نفسه قد قاد جيش فرنسا وأسطولها لاحتلال فلسطين - عقب انضمامه إلى المحفل الماسوني - ووجه نداء إلى يهود أوربا للالتحاق به في أثناء حصاره الخائب لمدينة عكا من أجل إقامة دولة لهم في فلسطين، لكن إخفاق الحصار أمام صمود سكان عكا جعل نابليون يرتد خائبًا ويتحول إلى مصر.

توالت المفارقات، لكن المفارقة الكبرى هي استمرار الاندفاع اليهودي للهيمنة على مواقع النفوذ والتأثير والقرار في معظم المجتمعات، من غير أن تتصدى له تلك المجتمعات دفاعًا عن النفس. إنها في رؤية مفكر يهودي أمريكي هو نعوم تشومسكي بأن «من يحولون إسرائيل إلى قاعدة عسكرية عملاقة فوق واقع صغير إنما يدفعونها حتمًا إلى الموت.. إن أكبر عدو لإسرائيل هو أمريكا»(٣)، «أمريكا» نفسها التي تعدها بعض حكومات ضحايا إسرائيل «وسيطًا نزيهًا» بين القاتل والمقتول، متناسية أن أمريكا هي التي حولت إسرائيل إلى «قاعدة عسكرية عملاقة»، وحولت ضحايا إسرائيل إلى فئات من أيتام على مائدة اللئام.

ليس في هذه المفارقات غرابة، بل هي سوف تتجدد - وبعبثية صارخة أحيانًا - إلى أن يحين وعد الله فينطق الحجر والشجر بعدما يضيق حتى الجماد ذرعًا باليهود، فيستنجد بالمسلمين عليهم. إنها البشرى التي حدث النبي محمد صلى الله عليه وسلم بها، فنسيها بعضنا مثلما نسي قول الله عز وجل: *لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود*. المائدة:٨٢. إنه قول لا ينساه الذين آمنوا حقًا على أي حال.

المراجع

١. نص الرسالة في: دوغلاس ريد، جدل حول صهيون، ترجمة غياث كنعو، دار الحصاد، دمشق، ط٢، ١٩٩٨م، حاشية المترجم ص٢١٩ - ٢٢٠.
٢. المصدر السابق، ص٢١٥.
٣. نعوم تشومسكي، مقابلة مع أورينت برس، في: جريدة الاتحاد، أبو ظبي، ٧يناير/كانون الثاني٢٠٠٠م.

الانتماء وبناء الشخصية العربية

وفيق صفوت مختار
سوهاج - مصر

يعتري عالمنا العربي الكبير مآخذ كثيرة من شأنها أن تعيق سعينا الطموح نحو غدٍ أفضل، وكلما أمعنّا البحث والتدقيق في هذه المآخذ لنحدِّد الداء، ونصنع الدواء، رأينا ذبول الشعور بالانتماء، وأفول الإحساس بالمسؤولية. نعم.. هذا عالمنا العربي، ونحن نعيش في زمن يحاولون فيه طمس الهويّة، ونزع جذور الشخصية العربية!!

ولكن ما معنى الانتماء؟ وكيف يتولد؟ وما وسائل تعميقه في النفس؟

الانتماء.. بين الوراثة والاكتساب

يولد الفرد كائناً حيّاً (بيولوجياً) لا يعرف شيئاً عن المقومات الاجتماعية، ثم يتشرّب تدريجيّاً قيم المجتمع وعاداته، بيد أن هذا التشرُّب يتّسم بأنه تشرُّب تفاعلي، فالفرد يقف من المؤثرات الاجتماعية المحيطة به موقف المنتقي، وإن كان انتماؤه في بدء الأمر لا شعورياً.

ولعل أول قناة اتصال تتوافر أمام الوليد هي تلك القناة الحسيّة المباشرة بينه وبين أمه لما تشبعه من حاجات حيوانية (بيولوجية) متمثلة في الرضاعة، ليس ذلك فحسب، بل لما تشبعه أيضاً من حاجات نفسية (سيكولوجية) كمنحه الحبّ والحنو، فيشعر الطفل بالانتماء، ويحس بالولاء أو التوحد بينه وبين الكائن الحي الذي انبثق عنه.

ومع استمرار نمو الطفل تتسع دائرته الاجتماعية التي يتحرك فيها ، حتى يستطيع أن يتفهم ما يجري في عالم الكبار، ويشرع في تكوين صداقات مع من حوله، ويمكنه أيضاً أن يتفهم بعض المعاني الاجتماعية كالتعاون Co - operation والتنافس Competition. ويصير كذلك أكثر قدرة على التعامل مع التصورات والمفاهيم المجرَّدة، ومن ثم فإن انتماءاته لا تكون للأشياء والكائنات المفردة، بل تكون للكليات، أو لما ليس واقعاً في نطاق «المحسوسات» Concretes، وهكذا يتم تشرُّب المجتمع Society لا بوصفه كياناً جمالياً (استاتيكياً) محسوساً، بل بوصفه مفهوماً أو تصوراً مجرداً.

ونستطيع أن نؤكد أن الجنس البشري صار مُجبراً على الانتماء، لأن الإنسان كائن اجتماعي بتكوينه، يميل إلى الآخرين، يتفاعل معهم بأن يؤثر فيهم، ويتأثر بهم، فالفرد يرتبط مع الآخرين بمصالح مشتركة تدعو إلى التعاون والارتباط، فيعطي ويأخذ، يتلمس من الآخرين الحماية والمساعدة، وفي الوقت ذاته يشعر بأنه يستطيع أن يمدَّ يد العون والمساعدة إلى الآخرين.

وإذا نظرنا إلى الانتماء بوصفه مكتسباً من البيئة المحيطة بالفرد فإن اكتسابه يتمّ بواسطة مجموعة معقدة من العمليات التفاعلية بين الإنسان والبيئات المحيطة به.

ويؤكد علماء النفس والتربية أن الإنسان يحتاج إلى جماعة يأخذ عنها الأعراف(١) والقيم والمعايير الاجتماعية والسلوكية التي تجعله في نهاية المطاف يتكيف تكيُّفاً سليماً مع البيئة التي يعيش بكنفها.

الانتماء الأسري

يقوم بناء الأسرة على الزواج، ذلك الرباط المقدس: *ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون*. الروم: ٢١.

ثم يتكوّن كائن حيّ جديد هو الجنين Fetus حتى يولد، وبعد الميلاد يظل الوليد متعلقاً بثدي الأم حتى يستقل تدريجياً حينما يبدأ في تناول أطعمة أخرى.

والطفل يظل دائماً في حاجة إلى رعاية والدته وعنايتها بسائر شؤونه، حتى إن الأب نفسه يتطلع إلى زوجته لتؤدي واجباتها ومسؤولياتها تجاهه، لذلك لا غرو أن الرسول

صلى الله عليه وسلم يوصي بالأم، ففي حديث رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك».

والطفل يحس بالانتماء إلى أسرته لأنها مصدر غذائه، كما أنها تكفل له الإقامة في سكن يجمع في إطاره أفراد الأسرة، بحيث يعني المسكن عملية نفسية، لأنه بمنزلة جهاز تجميع متكامل لأعضاء الأسرة، فيضمن لأفراده في النهاية الدفء والحماية والشعور بالأمن.

هذا التكامل الحيوي (البيولوجي) والنفسي للأسرة، ومن ثم الإحساس بالانتماء إليها من جانب أعضائها إنما يرجع إلى عوامل وراثية من جهة، وإلى عوامل بيئية من جهة أخرى. فالأبناء هم نتاج (بيولوجي) للوالدين، ولذا فإنهم يحملون مقومات الوراثة من الوالدين، وهذا الانتماء (البيولوجي) يوجد على مستويين:

الأول: لا شعوري Unconscious، أي الانتماء الحيوي الحتمي للسلالة. والثاني: شعوري Conscious حيث يحس أفراد الأسرة بالتكافل والتكامل فيما يتعلق بتلك المقومات المهمة في استمرار الحياة كالطعام والكساء والمأوى، على أنه يوجد تلاحم بين هذين النوعين، بحيث لا يمكن الفصل بينهما.

ومادامت حياتنا الوجدانية العاطفية منبثقة من وجودنا (البيولوجي)، وما دمنا متكاملين (بيولوجياً) مع الأسرة لزم أن يتم التكامل العاطفي بالارتباط وجدانياً وعاطفياً بالأسرة.

ونحن نحذر من فقدان بعض أفراد الأسرة لهذا التكامل الوجداني في بعض الأوقات تحت تأثير ظروف سلبية معاكسة، فقد يفقد الزوج أو الزوجة تكاملها العاطفي الوجداني فتنعكس تلك الأمور بترديها على الأبناء، ولكن حينما تتلاءم العلاقات العاطفية مرة أخرى وتبرأ من معضلاتها، يشعر الأبناء - ولا شك - بأن أسرهم خليقة بحبهم، وأنه لا سبيل أمامهم سوى الانتماء إلى الأسرة بكل الرضا والامتنان.

ونذكر أيضاً أنه كلما كان السلم التفاعلي في الأسرة متسقاً ومنتظماً وخالياً من الفجوات، كان النمو الثقافي للطفل متكاملاً، ولذلك فإن الطفل، كي يتكامل ثقافياً، يجب أن يكون في حالة انتماء أسري بدءاً بميلاده، بحيث يأتي تطوره الثقافي اللاحق استمراراً لخط البداية الذي انطلق منه.

وينبغي على الأسرة أن تأخذ على عاتقها تعليم أطفالها العادات التي تنظم حياتهم الحركية، كتناول الطعام، والتلبس بعادات النظافة والنظام، وتعلمهم أيضاً، كيفية توظيف انفعالاتهم بحيث يوجهونها لخدمة أهداف سوية.

كما أن الأسرة لابد أن تقوم بدور مهم في التربية يتمثل في إكساب الطفل التقاليد الموروثة والعادات الاجتماعية، لأنها تعد المجال التدريبي الأول الذي يعد الطفل للانخراط والتفاعل مع البيئة الاجتماعية، كما أنها تشرب أطفالها القيم الأخلاقية والمثل العليا كي يحققوا التكيف السوي مع الواقع الاجتماعي القائم، فلابد للأسرة إذن من تحقيق تطور أخلاقي رفيع المستوى باقتفاء أثر مثل عليا، هي المثل العليا نفسها التي ينشدها المجتمع، ويطمح إلى الوصول إليها.

والأسرة مكلفة بدور آخر مهم هو تشجيع النشء على التعبير عن وجهات نظرهم، وتكوين فلسفاتهم الخاصة بهم، وهو أمر لا تعارض فيه مع روح الانتماء إلى الأسرة، فنحن في ظل الفلسفات التربوية الحديثة لا ندعم ولاء الخضوع الأعمى للأفراد، بل لتصير لهم فلسفة خلقية واضحة المعالم لا لبس فيها ولا غموض، منبثقة - بطبيعة الحال - من مبادئ الدين الإسلامي الحنيف بمنهاجه التربوي والروحي القويم، وبذلك يتحقق التكامل الخلقي لهم، ويكونون في نهاية المطاف خير دعاة للحرية.

وينبغي ألا تهمل الأسرة، وهي تقوم بالتنشئة الاجتماعية، الجانب الروحي في إطار التكامل الانتمائي إليها، ولهذا الجانب الروحي عدة مبادئ يجب على الأسرة أن تترسمها في تنشئة أبنائها ومنها:



محمود حسن إسماعيل

- الإيمان المطلق بالله عز وجل، الذي خلق كل شيء، ويرعى الكون من منطلق عدالته ورحمته، ويتدبر أمور الناس من صحة ورزق وسعادة. *ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور*. آل عمران: ١٠٩.

- الإيمان بقيمة الإنسان، وتفرده عن سائر المخلوقات بما أوتي من عقل ورؤية وبصيرة وضمير ومشاعر وأحاسيس. *وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة*. البقرة: ٣٠

- الإيمان بوجود صلة مباشرة بين الإنسان وربه، فإذا ما استنجد الإنسان بربه سبحانه وتعالى في ضيقه وكربه وطلب منه العون والهداية والرشاد، فإنه سيجد حتماً الاستجابة والتلبية والعون الإلهي، كذلك

فعلى المرء أنْ يفوِّض أمره إلى الله عز وجل: *قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللهُ لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون، قل هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحُسْنَيين ونحن نتربَّص بكم أن يصيبكم اللهُ بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربَّصوا إنَّا معكم متربِّصون*. التوبة: ٥١ و٥٢.

- وإذا كنا نبغي حقًا خلق روح عميقة الانتماء وجب أن نوضح للأبناء - ذكورًا وإناثًا - واجباتهم نحو والديهم ومعاملتهم بالبر والإجلال والتقدير تأسيًا بقوله عز وجل: *وقضى ربُّك ألا تعبُدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانًا*. الإسراء: ٢٣.

الانتماء الوطني

الانتماء إلى الوطن لا يعني أنَّ أفراده يتنازلون عن فرديتهم من أجل الاندماج في القوام الاجتماعي الكلي، مناهضين الاستقلال الفكري والابتكار الفردي، أو أن الأفراد لا يعبؤون بالأعراف والقيم الاجتماعية وقد أخذوا يسلكون على نحو يناهض مؤسساته الاجتماعية، وينتقدونها، ويدعون إلى إقامة نقيضها حتى تكون أكثر تواؤمًا مع منطلبات التطورات الاجتماعية، والمستحدثات العلمية.

ولكن الانتماء الذي ندعو إليه، ونبشر به هو خدمة الوطن الذي ينتمي إليه أفراده بلا تنازع أو نزاع، ذلك أن التطور المنشود للوطن لا ينبع إلا من صميم قوامه ومن عناصره ومقوماته الثابتة فيه. وعلى ذلك فالوطن هو نقطة البداية لتحقيق ذوات أفراده بلا إحساس بالاغتراب، أو شعور بالمخاصمة تجاهه، لذلك يجب أن يظل أفراد الوطن في حالة تفاعل نشيط (دينامي) Dynamic مع واقعه ومستقبله.

ويمكننا أن ننظر إلى الوطن من زاويتين: زاوية «الأخذ»، وزاوية «العطاء». فنحن نأخذ من الوطن، ونعطيه أيضًا، ويخطئ تمامًا من يعتقد في تعامله مع الوطن أن يكتفي بالأخذ منه ثم يضن بالعطاء من أجله، أو من ينظر إلى الوطن نظرة عداء وعدوان فيبدأ في نهب خيراته وتبديد ثرواته بطريقة ما.

وهناك مجموعة من الأسس تُحدِّد تعامل المواطن مع وطنه نوجزها في الأفكار الآتية:

- في خلال مرحلتي الطفولة والمراهقة يأخذ الفرد من وطنه دون أن يقدم له شيئًا.
- الفرد منذ ميلاده وهو يتلقَّى من والديه ومُعلميه وغيرهم خبرات تربوية ومهنيَّة ومعرفية تصقل شخصيته، وتبصِّره بحقوق المواطنة الصالحة المنتجة وواجباتها، لذلك يتحتَّم عليه أن يُسدِّد الدَّين نفسه بأن يشارك بفاعلية في تربية الأجيال الصاعدة.
- إن المواطن السوي هو المواطن المنتج سواء أكان إنتاجه ماديًا أم معنويًا.
- أن يكون التزام المواطن السياسي أو الحزبي قائمًا على الاقتناع والإيمان، فالمشاركة في عملية الانتخاب أو الاقتراع هي نوع من العطاء للوطن، وفي الوقت نفسه يجب على النظام السياسي السائد أو القائم أن يكون مستعدًا للإصغاء إلى أصوات المنتقدين.

البطالة والأوضاع الاقتصادية المتردِّية ووقت الفراغ من الأسباب التي تولد عدم الولاء للوطن

غريزة تجسيد الوطن

من المفترض أنَّ لدى الإنسان غريزة Instinct تدفع به إلى تشخيص الأشياء، فالوطن هو أرض وسماء، وشعب ومؤسسات، ومجموعة من العادات والتقاليد، وإرث حضاري، فيتجسَّد هذا كله في ذهن المواطن، فيخاطبه ويناجيه، وتكمن هذه الظاهرة في عملية نفسية تسمى «الإسقاط» Projection(٢)، والشعراء عندما يناجون أوطانهم إنَّما يسقطون طبيعتهم الإنسانية على طبيعة الوطن المعنوية.

ونستعرض في الفقرات الآتية بعض النماذج الإسقاطية. فالشاعر المصري محمود حسن إسماعيل عندما يناجي نيل بلاده يقول:

سمعتَ في شطِّك الجميلِ
ما قالت الرِّيحُ للنخيلِ
يُسبِّحُ الطيرُ أم يُغنِّي
ويشرحُ الحبَّ للخميلِ
وأغصنٌ تلك أم صبايا
شربن من خمرة الأصيل؟

والشاعر السعودي حمد العسعوس يصف وطنه بقوله:

لربيعك يا وطني نكهة لم أجد مثلها
لترابك عطرٌ يراودني،
لحدودك سحرٌ ينازعني خطوتي
أنت فجرٌ.. وعطرٌ.. وسحرٌ.. ودالية
من لذيذ العنب

بهذه النماذج نستطيع أنْ نقرر أن الوطن الذي يخاطبه المرء مركَّب ذهني ينشأ في ذهنه نتيجة تفاعل الخبرات المستفادة من الخارج من المقومات الوجدانية الذاتية التي يقدِّمها المرء إلى تلك المقومات الموضوعية ويجعلها تتفاعل بعضها مع بعض.

وتأتي الأسرة في مقدمة من يشارك في تكوين ذلك المركَّب الذهني، ثم تأتي البيئة المحلية كالقرية أو المدينة، والتي تترك انطباعها في وجدان الطفل، فتشارك أيضًا في تشكيل صورته الذهنية عن الوطن.

ثم بيئة المدرسة حيث وفرة ما يقرؤه الطفل أو الشاب ويستوعبه عن المجتمعات

الأخرى التي قد تتغاير مع مجتمعه، علاوة على الحقائق التي لم تكن متيسرة له من قبل والتي تخص وطنه فيتعلمها ويهضمها، كالحقائق التاريخية والجغرافية والدينية والثقافية. أما البيئة الدينية فهي حجر الزاوية في تشكيل ذلك المركب الذهني حيث يشكل المسجد دائرة مهمة من الدوائر التي تمد المرء بالانطباعات عن هذا الوطن.

والانتماء الوطني، في سبيل تحقيقه على نحو مرض، قد تعترضه عدة معوقات نوجزها في النقاط الآتية، حتى يمكن تلافيها:

. إخفاق الأسرة أو المدرسة في غرس روح الانتماء في النشء:

إذا كانت الأسرة ممزقة العلاقات، تشيع في جوها روح البغضاء والتوجس والأنانية.. إلخ، فإنها لا تستطيع أن تقوم بتنشئة أفراد لديهم انتماء إليها، وهذا ينسحب على البيئة المدرسية والمحلية، فإذا كانت المدرسة منفصلة عن الواقع البيئي، ويلازمها الضعف في محاولاتها لجمع شمل تلاميذها تخفق في غرس روح الانتماء بين تلاميذها، وإذا كانت البيئة المحلية مضطربة يشيع في علاقاتها التفكك والانتهازية والتخبط أخفقت أيضا في غرس روح الانتماء بين أفرادها ومواطنيها.

. البطالة:

إن من العوامل التي تقوض روح الانتماء الوطني عدم توافر فرص العمل والوظائف والأنشطة التي يشعر الشباب من خلالها بأنهم إيجابيون ومنتجون ومشاركون حقيقيون في بناء أوطانهم، قس على ذلك مشاعر الضيق والتبرم عندما تهم الدولة بإلحاق الشباب في وظائف وأعمال لا تتناسب مع طبيعة خبراتهم أو مع نوعية مؤهلاتهم، أو أن الرواتب التي يتقاضونها لا تلبي احتياجاتهم وطموحاتهم. إن هذه المشاعر المحبطة لابد أن تكون مصحوبة بعدم الانتماء، ومن ثم فقد تنتقل مشاعر الانتماء إلى مجتمعات أخرى.

. المشكلات الاقتصادية:

إن الأوضاع الاقتصادية المتردية بلا شك، تخيم بظلالها الكئيبة على المجتمع، فانخفاض مستوى الدخل، وارتفاع الأسعار، واتساع الفوارق الطبقية، وإثقال كاهل المواطنين بالأعباء الضريبية، كلها عوامل تحول دون قيام روح انتمائية بين الأفراد وأوطانهم(٣). حتى إن فكرة المنح والهبات والمعونات التي تقدمها الدولة إلى مواطنيها من الفقراء لا يكفل لها الولاء والانتماء من جانبهم، خاصة في المجتمعات التي تكثر فيها التجاوزات والاستثناءات وحوادث السلب والنهب للأموال العامة.



وليم شكسبير

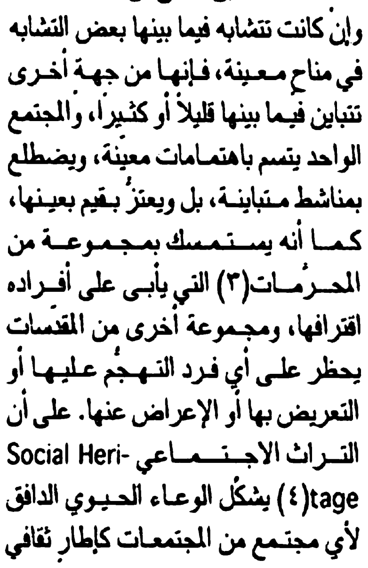
. وقت الفراغ:

أدت ظاهرة ارتفاع معدلات البطالة بنوعيها «الظاهرة والمقنعة» إلى تناقص فرص العمل أمام الشباب، ومن ثم ظهور ما يعرف بمشكلة وقت الفراغ، ويقرر علماء التربية وعلم النفس بصدد وقت الفراغ أن الطاقة المختزنة التي لا تجد تصريفا واستنفاذا تكون بمنزلة قنبلة موقوتة توجه إلى التدمير والتخريب وأعمال العنف. والملاحظ أن المخربين والمتآمرين وفاقدي الولاء لأوطانهم يزدادون عددا وخطورة في الأقطار التي تعاني من مشكلات البطالة، ومن ثم وقت الفراغ، وذلك لتفشي روح الكراهية في صدورهم من جراء الملل الذي يصيبهم.

الانتماء الثقافي

تعني الثقافة Culture من الزاوية (الأكاديمية): المعارف المنتقاة ذات المنهج الفكري واللغوي، والتي تقترب كثيرا من معنى العلم Science، والمثقف بهذا المعنى (الأكاديمي): هو الذي يأخذ بمناهج العلم المتباينة سواء أكانت مناهج استقراء Induction أم مناهج استنباط Deduction، أم أسسا نظرية تبدأ بالنظريات المجردة، أم مجموعة من القوانين العقلية المنطقية.

أما الثقافة بمعناها النفسي (السيكولوجي) فهي تعني: صقل العقل الفردي ودعمه ومساندته بالقوالب المنطقية العقلية ومنها: الإدراك الحسي Pereception، والتذكر Anamnesis، والخيال Imagination، والتصور العقلي Visualization، إضافة إلى الجوانب الوجدانية التي تقوم بتصنيع العواطف Sentiments، واللغة كجانب من الشخصية.



أما الثقافة بمعناها الاجتماعي فهي تنصب على طبيعة المجتمع والعلاقات الاجتماعية، والقوانين التي تتحكم فيها وتسوقها في اتجاهات محددة بشكل دقيق، على أن المجتمعات، وإن كانت تتشابه فيما بينها بعض التشابه في مناخ معينة، فإنها من جهة أخرى تتباين فيما بينها قليلا أو كثيرا، والمجتمع الواحد يتسم باهتمامات معينة، ويضطلع بمناشط متباينة، بل ويعتز بقيم بعينها، كما أنه يستمسك بمجموعة من المحرمات(٣) التي يأبى على أفراده اقترافها، ومجموعة أخرى من المقدسات يحظر على أي فرد التهجم عليها أو التعريض بها أو الإعراض عنها. على أن التراث الاجتماعي Social Heritage(٤) يشكل الوعاء الحيوي الدافق لأي مجتمع من المجتمعات كإطار ثقافي

لا غنى عنه، والتراث يتضمن عدة جوانب مهمة هي:

. اللغة:

المعروف أن اللغة قد مرت بمراحل ثلاث هي: مرحلة التعبير الوجداني، ومرحلة التعبير العقلي، ثم مرحلة التخزين الخبري.

والواقع أن أهم جانب من التراث يتمثل في اللغة المدونة إذ يستطيع الفرد أن يتعلم لغات كثيرة ليتمنى له أن يقف على الكنوز الثقافية التي كُتبت في لغات غير لغته الأصلية، حتى إن الإنسان لا يستخدم اللغة وسيلة استيعابية لمخزونات الخبرة فحسب، بل يعمد إلى إضافة مخزونه الخبري بما يؤلفه ويبتكره.

واللغة بما تنطوي عليه من لغة منطوقة أو مكتوبة تعدّ بمنزلة كائن حي يتفاعل مع الخبرات الجديدة للأجيال المتعاقبة. واللغة، وإن كانت بمنزلة الوعاء الذي تصب فيه المعاني والمشاعر، فإنها في الوقت نفسه ليست مجرد وعاء، بل هي لحم ودم، فإنْ لغةً مثل اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم الذي يدين به مئات الملايين من البشر، وعلى ذلك فاللغة الواحدة تدعم أواصر الانتماء وتقويه وتدعمه.

. المعتقدات:

المعتقدات Faiths، سواء أكانت معتقدات دينية أم معتقدات شعبية، هي بمنزلة نماذج لا يجوز فيها التعديل. وتعد المعتقدات من الدعائم الأساسية في تقوية الانتماء والولاء، فأصحاب الدين الواحد يحسون بالانتماء المشترك، وبأنهم يشكلون وحدة متماسكة، تجعلهم في تلاحم قوي صلب: *واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا. وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون.* آل عمران: ١٠٣.

. الفنون:

وهي تعد أيضاً من التراث المشترك الذي يميز شعباً من آخر، وأمةً من غيرها. لكن لو دققنا البحث والدراسة لاكتشفنا أنّ الفنون الإسلامية قد تميزت بأنْ هناك وحدة تجمعها، ولعل هذا هو سر تفوق الحضارة الإسلامية وقدرتها الفائقة على صبغ المنتجات الفنية في جميع الأقطار والأمصار الإسلامية بصبغة واحدة، على الرغم من احتفاظ كل قطر بملامحه الفنية الخاصة والمميزة.

كلما كان السلّم التفاعلي في الأسرة متّسقًا ومنتظمًا وخاليًا من الفجوات، كان النمو الثقافي للطفل متكاملاً

. العادات والتقاليد:

وهي التي تساعد الأفراد على التعامل بسهولة مع غيرهم، فهي بمنزلة لغة مشتركة لا خلاف عليها، وقد وهب الله سبحانه وتعالى الأمة العربية عادات وتقاليد تكاد تكون متماثلة. فنجد احترام الكبار، والعطف على الصغار، وتقدير الجار، وإكرام الضيف، ومناصرة الضعيف، كلها عادات وتقاليد متوارثة، تنتشر في ربوع الوطن في مصر كما في عمان، في السعودية كما في الكويت.

وحينما نستعرض آيات القرآن الكريم نستطيع بسهولة ويسر أن نتفهم تلك العادات والتقاليد التي تجمع الأمة العربية في وحدة انتمائية قل أن نجدها في أي أمة أخرى.

القرآن الكريم ينهي عن الظلم والجور: *ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل.* البقرة:١٨٨. ويؤكد كذلك احترام العهد والكلمة: *وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولا.* الإسراء: ٣٤. ويدعو القرآن الكريم إلى احترام حقوق الجار وصون كرامته: *يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم تذكّرون. فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم.* النور: ٢٧ و٢٨.

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة، حتى إن القرآن الكريم لم يترك كبيرة أو صغيرة بهذا الصدد إلا وأوضحها.

. القيم:

وهي تلك القيم المنوطة بالمرغوب والمستكره، والقيم المعنوية المتعلقة بالخير والشر.

وثمة خطآن يقع فيهما المجتمع بصدد القيم. أولهما: التنازل عن القيم القائمة والإطاحة بها، والضرب بها عرض الحائط، وثانيهما: هو اتخاذ موقف الجمود والتقوقع والتحجر؛ وعلى ذلك فإنْ هذين الخطأين من شأنهما أن يهددا الكيان الثقافي للأمة والمجتمع، ذلك أن الحياة الثقافية بحاجة إلى النمو والتدرج والاستمرار، وهذه جميعًا تتطلب عدم القفز من حالة إلى أخرى فجأة، وعدم التحجر والجمود على حالة واحدة أيضاً؛ فالثقافة في تطورها تشبه الكائن الحي الذي يتصل ماضيه بحاضره، كما يتصل حاضره بمستقبله.

والمجتمع يجب أن يجمع في أنحائه القدرة على التطور بالقيم من جهة، والقدرة على عدم التقوقع في نطاق القيم بحيث يتشبث بها بغير تعديل أو تطوير.

التراث وازدهار الثقافة

ثمة جانب من التراث يظل نابضًا بالحياة، مشكلاً جانبًا أساسيًا من الثقافة

المعاصرة، والثقافة لا تنفصل عن الماضي، ولا تغمض عينيها عن الحاضر، كما أنها لا تسد الطريق بينها وبين المستقبل، فإنَّ ذلك يدل على الاستمرارية التي تتسم بها الحضارة الإنسانية.

والتراث لا يموت على الإطلاق، وإنْ بدت بعض جوانبه وكأنها قد ماتت، ولعل من الأصح أنْ نقول: إنَّ الجانب الذي لا ينبض بالحياة من التراث يرقد في حالة من الكمون Latency فترة تقصر أو تطول.

والتراث بمنزلة مخزونٍ احتياطي يمكن أن نستخدم محتوياته في أي وقت تنشأ فيه الحاجة إلى ذلك. ولعلنا لا نتصور تقدم خطوة واحدة إلى الأمام بغير استناد إلى خبرات الماضي، فالقديم يساند الجديد، بيد أنَّ إحياء التراث يكون على مستويين: المستوى الطفوي، والمستوى التفاعلي، ونقصد بالمستوى الطفوي: أن نطفو بالتراث إلى سطح الحياة، وأنْ نقدم ذلك التراث إلى الشعوب، ونُذكِّر به حتى ولو أحسُّوا بالصدِّ عنه، والاغتراب عن مقوماته، وعدم تذوقه، أو حتى النفور منه، والإشاحة عنه، وعلى العكس، فإن الدفع به إلى سطح الحياة يجعل الرائين له والمطَّلعين عليه، والعارفين بمقوماته ينهلون منه، ويتفاعلون مع مقوماته كلَّما وجدوا سبيلاً إلى مثل هذا التفاعل.

ويمكن القول بأن المستوى الإحيائي الأول للتراث عن طريق المستوى الطفوي يُعد أساساً لا محيص عنه إذا أردنا أن نرتفع إلى مستوى التفاعل بما يناسب حياتنا من مقومات وراثية كانت في حالة من الكمون.

وإذا تناولنا جانباً من تراثنا - وليكن المجال الأدبي مثلاً - فإننا ننعى على بعض مثقفينا أنهم لا يُعيرون اهتماماً للتراث العربي القديم، وقد رأوا أنَّ الكلمة الحديثة هي الحقيقة فقط بالقراءة والتثقف، وأنَّ الكلمة القديمة صارت كالثوب القديم الذي تهلهل!!

والخطر الذي يتأتَّى عن انصراف الكُتَّاب والمثقفين بما يبدو فيما يكتبونه من خلل لُغوي وخطل في التعبير، وبُعد عن الأصالة اللغوية - بسبب انقطاعهم عن جذور الثقافة التي تتمثل في التراث - إنما يكمن في تأثيرهم البعيد المدى في النشء والشباب، والعجيب أنْ نرى أولئك المفصومين عن التراث العربي القديم قد ضربوا بجذور لا بأس بها في التراث الإنجليزي أو الفرنسي، فيحفظون شعر وليم شكسبير(٥) بإنجليزيته، أو شعر موليير(٦) بفرنسيته التي لا يستخدمها الفرنسيون أنفسهم الآن، دون أن يعمموا اهتماماتهم هذه بإزاء اللغة العربية!!.

إننا بحاجة - إذن - إلى أن تؤدي مؤسساتنا الصحفية، ووسائل الإعلام العربية، وكذا جامعاتنا ومدارسنا دوراً بهذا الصدد، بأن يكرسوا مجالاً أو أكثر ليقدموا فيه للإنسان العربي الآداب والفنون والعلوم العربية القديمة حتى يساعدوا بذلك على تحقيق الطفو التراثي على سطح حياتنا الثقافية.

ونؤكد من جديد، وفي ضوء ما تم عرضه من مقومات تراثية، أنَّ لأمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها تراثاً ثقافياً خالداً يكاد يجمع شعوبها في وحدة انتمائية قلما أن توجد في أي مجتمع آخر قديماً كان أم حديثاً، كل ما هنالك هي دعوة ملؤها الصدق، وقوامها العمل الدؤوب لإحياء تراثنا العربي التليد واستنهاضه، وتأكيد أصالته، وبعثه من رقاده الذي قد طال بعض الشيء.

الانتماء التاريخي

التاريخ History هو مجموعة من الأحداث والعمليات المؤثرة في قوام الفرد أو الجماعة، سواء أكان التأثير قوياً أم ضعيفاً، مستمراً أم مؤقتاً، وهذا يجعلنا ندرك أن الإنسان هو ابن التاريخ الذي عايشه.

وواقع الأمر أننا جميعاً ننتمي إلى تاريخنا مدركين أم غافلين، حتى إن الكثير من ألوان السلوك التي تبدو وكأنها خاضعة للإرادة الفردية أو الجماعية، إنما هي في واقع الأمر مقومات موروثة تحرك السلوك وتوجهه.

وعلى ذلك فالتاريخ ليس مجرد معلومات أو سرديات، أو أحداث يجب دراستها لفهمها وحفظها حتى لا تخبو في طيّ النسيان، بل ندرسها ونستوعبها بقصد الإفادة منها سلوكياً، ولإعلاء الشأن والإصلاح والتقدُّم والرقيِّ.

موليير

إن خبرات آلاف السنين التي تكتسبها الأمم لا تتلاشى من قوامها الجمعي بحالٍ من الأحوال، بل هي تقبع في ذاكرتها، وتظل بطريقة أو بأخرى في حياتها الواعية الحاضرة، والمستقبلية أيضاً، وأمة بلا تاريخ هي أمة ماتت يوم أنْ ولدت.

والتاريخ هو مخزون خبرة مهم يحيا في نطاقه مجموع الخبرات الهائلة الشعورية واللاشعورية، وهذا المخزون ليس مخزوناً للخبرات الجامدة، بل هو مخزون أشبه بعالم الأحياء من حيث التفاعل الدقيق والمستمر بين هذه الخبرات الهائلة، فليس التاريخ سجلاً أو محتوى ساكناً، بل هو عالم من العلاقات تتعلق وتتفاعل وتنجب أجيالاً، ذلك لأن للتاريخ حيويته الحركية (ديناميانه).

إذن فانتماؤنا الظاهري هو انتماء لمن نراهم من حولنا ونعايشهم، أما انتماؤنا الباطني فهو انتماء لأولئك الأجداد

الذين أورثونا خبراتهم وعقائدنا.

والمثير المهم الذي يجب أن نستلهمه بصدق، ونستحثه بعزم، هو أن لأمتنا العربية وحدة تاريخية وحضارية منبثقة من الدين الإسلامي، واللغة العربية بعمقها ورصانتها وإعجازها، والتراث الزاخر بكم هائل من القيم والمعتقدات والعادات والتقاليد التي تشكل في واقع الأمر تساميا وعلوا، بخلاف الآداب والعلوم والفنون، وتلك مقومات تذلل العقبات أو المعوقات التي قد تقف حائلاً مفزعاً أمام وحدة الأمة العربية الانتمائية التكاملية.

وإذا كنّا بصدد انتماء عربي تكاملي، فإننا نؤكد أنّ الشخصية السويّة لا تستطيع أن تحقق تكاملها الانتمائي إلا إذا استطاعت أن

والصلابة، ومنهجها العمق والتفاعل والعودة إلى الجذور العربية:

. دراسة التاريخ:

المعرفة هي اللبنة الأولى في تشييد صرح الانتماء، والخطوة الأولى على طريق التكامل والوحدة والتماسك، فليس من المعقول أو المقبول أن يتدعم ويتقوى الانتماء على جهل، أو بلا عودة حقيقية إلى الجذور العربية المغروسة في وجدان كل وطني عربي، ننهل منها لتأصيل الواقع التاريخي، ونصدر عنها لتكون خير معين لنا في مجابهة من يحاولون طمس الهوية التاريخية والحضارية. *ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون.* آل عمران: ١٠٤.

ولعلنا نعلم من مطالعة التراث التاريخي أن قائداً مثل صلاح الدين الأيوبي قد حظي بتقدير أعدائه أنفسهم وإعجابهم - بعد أن هزم فلول القوات المعتدية الصليبية في موقعة حطين عام ١١٨٧م - حتى قالوا: لقد كسب صلاح الدين للعرب والإسلام بقلبه أكثر مما كسبه بسيفه.

من المهم إذن للإنسان العربي أن يقرأ ويسمع ويشاهد تاريخ أمته واقعاً حياً حتى يحس بآلام أمته، ويستشعر في ذاته.. آماله وتطلعاته وطموحاته، ويدرك حجم التحديات التي تواجه عروبته، وليس خافيا ما يُدبر في السر والعلن لشعب البوسنة والهرسك والمسلمين في الشيشان من محاولة طمس هويتهم، وتذويبهم عنوة في الآخرين تاريخياً وحضارياً، إنها حرب من طراز يتمشى مع متغيرات القرن الحادي والعشرين، نستطيع أن نُطلق عليه: «حرب إبادة الهوية».

الوطن هو نقطة البداية لتحقيق ذوات أفراده بلا إحساس بالاغتراب، أو شعور بالمخاصمة تجاهه، لذلك يجب أن يظل أفراد الوطن في حالة تفاعل نشيط (دينامي) Dynamic مع واقعه ومستقبله

تحقق لنفسها الاستمرارية التاريخية. والشخصية بهذا المعنى لا يحق لها أن تغفل عن بعض الأحداث غير المواتية أو المعاكسة التي مرت بها، لأن الخبرات المؤلمة التي تزعج الضمير، كثيراً ما يغفلها اللاشعور، فالطريق الحتمي إلى التكامل الانتمائي الذي ننشده لأمتنا العربية يتحقق أول ما يتحقق بهضم تلك الآلام التي عانت منها في مرحلة من مراحل تطورها، كما أنها لا تعمد في المقابل إلى تزييف الواقع فتصور الهزائم والمحن على أنها انتصارات وإنجازات، كذلك فلا نركن بحال من الأحوال إلى اليأس والقنوط بحجة أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان، كما يدعي بعض الناس من دعاة الانهزامية، والمبشرين بالرجعية والاتكالية.

وسنورد بعض السُبل الداعية إلى تحقيق انتمائية عربية قوامها الوحدة والتماسك

. التفاعل مع التراث الأدبي التاريخي:

نلهث أحياناً كثيرة لقراءة مشاهير الفكر الغربي، ونرنو لمشاهدة ما يُقدّم على شاشة التلفاز من أفلام وحلقات أجنبية، بينما نحن في أمس الحاجة إلى قراءة كتب التراث، ومطالعة الفكر العربي التاريخي والحضاري، والبدء من حيث انتهى عباقرة العرب في شتى مناحي العلوم والآداب والفنون.

نحن في أشد العوز إلى مشاهدة أفلام وحلقات عربية تراثية وتاريخية ودينية أصيلة، تستقي موادها العلمية والسردية من قصص وبطولات تمتد بجذورها إلى عمق التاريخ، وليس خافيا على أحد أن في بطولات العرب وأمجادهم على مدار التاريخ القديم أو الحديث ما يشكل قواماً حياً وغنياً لأي عمل فني أو أدبي أو مسرحي متميز،

. مشاهدة الآثار التاريخية ودراستها:

تُعد الآثار بمنزلة التاريخ المُجسّد للأمة على مدار حقبها التاريخية الطويلة، المساجد تغمر أقطار الوطن العربي بروعتها وشموخها، وكذا القلاع والحصون والقصور والأسوار والأسواق. إن المشاهدة المتأنية والدراسة المدققة لهذه الآثار تجعلنا نتأمل هذه العظمة الشامخة المجسدة فنسبر أغوار التاريخ، ونعيش في كنف صانعي حضارتنا العربية الإسلامية.

. ممارسة الشعائر الدينية:

إن في ممارسة الشعائر وحدة إيمانية انتمائية عظيمة، فهل من شعور بالانتماء والولاء يتأتى مثلما يتأتى والفرد يشارك في الشعائر الدينية والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالصلاة والحج وغيرهما من سائر العبادات؟ *وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.* العنكبوت: ٤٥. *وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر*

يأتين من كل فجٍّ عميق. ليشهدُوا منافعَ لهم. الحج: ٢٧ ـ ٢٨.

الانتماء الروحي

إن الأسرة ركيزة الحياة الإنسانية، قد شاءت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يميّز الإنسان ـ وقد كرمه ربه، على كثير من مخلوقاته ـ فيجعل «سبحانه» التزاوج بين ذكره وأنثاه ـ مع أدائه وظيفته في استمرار النوع: *سبحان الذي خلق الأزواج كلّها ممَّا تُنبتُ الأرضُ ومن أنفسهم وممَّا لا يعلمون*. يس: ٣٦.

ومن ثمرات الأسرة إنجاب الأطفال، ومن مسؤوليات الأسرة حيال أطفالها إشباع الحاجات الحياتية (البيولوجية) والنفسية (السيكولوجية)، إضافة إلى صبغ سلوكهم بالصبغة الدينية، وحملهم على الانتماء الديني إلى أقصى حد ممكن، حتى إذا شبَّ الطفل بدأت الأسرة في تحفيظه آيات القرآن الكريم، ثم تبدأ بعد ذلك رحلة التقليد أو المحاكاة Imitation فيبدأ الطفل بتقليد والديه بالصلاة والصوم مثلهما. ثم تقوم الأعياد الدينية بدورها المهم والحيوي في تأصيل الوازع الديني بارتداء الثياب الجديدة، وتناول الأطعمة الفاخرة والحلوى، وتلقي الهدايا واللُّعب الجذَّابة. وفي طور الشباب يبدأ الشاب بتأدية أدوار إيجابية فعالة في الأنشطة الدينية.

كذلك تؤدي اللغة دوراً مهماً في تقوية وازع الانتماء الروحي لدى الصغار والكبار معاً، فالخطيب المفوه، والمفكر الديني الورع، والعالم الروحي، كل هؤلاء يعملون ـ بلا شك ـ على دعم الانتماء الروحي والديني وتقويته.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وهب أمتنا العربية نعمة الانتماء الروحي، فإننا سنحدِّد في الفقرتين الآتيتين الظروف التي قد تهدد الوحدة الانتمائية الروحية حتى يمكن تلافيها:

ـ الإغراءات الجنسية:

عندما تقوم الرغبات الجنسية المتأججة بدور فعّال في حياة الأفراد والمجتمعات، فإنها ـ بلا شك ـ تزلزل جوهر العقيدة، وتدمر القيم والمُثُل العُليا، كما تحطِّم إنسانية الأفراد، وتسلبهم إرادتهم وحريتهم وتقواهم، وتجرفهم إلى هوّة البغي والضلال والانحراف. والقرآن الكريم حذَّر من هذه الرغبات المنحرفة، في قوله عز وجل: *قلْ للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهُم ذلك أزكى لهم إن الله خبيرٌ بما يصنعون*. النور: ٣٠.

كما أن الانحرافات المادية تؤدي الدور المتردِّي نفسه، ولاسيما إذا كانت المجتمعات تعاني أوضاعاً اقتصادية سيئة، في الوقت الذي نهى القرآن الكريم عن ذلك بقوله: *يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل*. النساء: ٢٩.

ـ الإرهاب والاضطهاد:

نعلم علم اليقين أنَّ الشيوعية الإلحادية قدْ أرغمت جموع المتدينين والمؤمنين على التخلي عن ممارسة شعائرهم الدينية عنوة، بالقمع والتعذيب تارة، وبغلق دور العبادة وحظر تداول الكتب الدينية وإحياء الأعياد تارة أخرى، بينما ينهي الإسلام ـ صراحة ـ عن الإتيان بمثل هذه الأعمال البربرية: *ادعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلْهم بالتي هي أحسنُ*. النحل: ١٢٥.

حتى إن الجيوش المسلمة أُعدّت بأمر إلهي للدفاع عن الدين والعقيدة، وليس للاعتداء والعدوان: *وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، تُرهبون به عدوّ الله وعدوَّكم*. الأنفال: ٦٠.

فإذا ما جنح هؤلاء الأعداء للسلم، وجب على المؤمنين أن يقبلوه تأسياً بقوله عز وجل: *وإن جنَحوا للسَّلْم فاجنحْ لها وتوكَّلْ على الله، إنهُ هو السميعُ العليمُ*. الأنفال: ٦١.

الهوامش والمراجع

١. العرف Custom يعني مجموعة العادات والتقاليد المتعارف عليها لدى الجماعة، والمتوارثة من جيل إلى جيل، والتي تقوم بتوجيه تصرُّفات الإنسان الظاهرة أو النمط السلوكي المنتشر بين الناس والجماعات عبر فترة زمنية طويلة، ينجم عن الاكتساب والتعلُّم والتثقُّف، لكنه لا يخضع لمفعول الوراثة البيولوجية.

٢. الإسقاط Projection في علم النفس الحديث هو تفسير الأوضاع والمواقف والأحداث والأشياء بتسليط خبراتنا ومشاعرنا عليها والنظر إليها من خلال عملية انعكاس لما يدور في داخل نفوسنا.

٣. مُحرَّم Taboo لفظة ترجع نشأتها إلى عادات الأقوام البدائية، وتستخدم لفظة «تابو» في صيغة الاسم والنعت والصفة، وتدل بمعناها العام على المنع والحظر والتحريم بالنسبة إلى الأشياء والأشخاص والألفاظ والأفعال.

٤. تراث اجتماعي Social Heritage تطلق هذه اللفظة للدلالة على مجموع الآراء والعادات والتقاليد، وأنماط المعيشة، بالإضافة إلى المؤسسات والمنظمات التي تؤلف أساس الحضارة والثقافة لدى جماعة من الناس أو مجتمع من المجتمعات تتوارثها الأجيال وتتناقلها بعضها عن بعض، وقد يعتريها شيء من التحوير والتعديل، مثلما تخضع للتطور وتتعرض للانتقاء بفضل التفاعل والاحتكاك.

٥. وليم شكسبير شاعر ومسرحي إنجليزي ولد في عام ١٥٦٤م، كتب في الملاهي والمسرحيات التاريخية، وكتب في المآسي، توفي عام ١٦١٦م.

٦. موليير شاعر فرنسي ولد في عام ١٦٢٢م ألف عدداً من المسرحيات مثل: «المتحذلقات المضحكات» و«البخيل»، وتوفي عام ١٦٧٣م.

ـ أحمد إبراهيم مهنا، التربية في الإسلام، مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢م.

ـ أسماء حسن فهمي، مبادئ التربية الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤م.

ـ سعد المغربي، الإنسان وقضاياه النفسية والاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

ـ محمد عبدالهادي عفيفي، الأصول الثقافية للتربية، القاهرة، ١٩٧٥م.

ـ يوسف ميخائيل أسعد، الثقافة ومستقبل الشباب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

ـ يوسف ميخائيل أسعد، الانتماء وتكامل الشخصية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩٢م.

ـ وفيق صفوت مختار، أهم مصطلحات علم النفس، حلقة ١، ٢، مجلة الفيصل، العددان: ٢١٩ و٢٢٠، فبراير ـ مارس ١٩٩٥م، دار الفيصل، المملكة العربية السعودية.

الترجمة في اللغات الشرقية وقضية المصطلح الديني:

اليابانية نموذجاً

سمير عبدالحميد إبراهيم
الرياض - السعودية

كانت الحياة العامة في الإسلام - ولا تزال - قائمة أساسًا على استعمال اللغة العربية، وسيلة للتعامل في جميع الأمور، وكان لهذا أثره قبل دخول عناصر غير ناطقة بالعربية كالفرس والترك والهنود، ثم غيرهم من شعوب بلدان آسيا في أرخبيل الملايو وما جاوره، الذين لم يتحولوا إلى التكلم بالعربية، مما جعل المنطقة الإسلامية الناطقة بالعربية، مكانًا مناسبًا للنقل الثقافي بعد ذلك.

وفي العصر الأموي تطورت الحياة المشتركة نتيجة امتزاج عناصر جديدة، وبدأت حركة الترجمة التي ازدهرت فيما بعد في العصر العباسي كما يعرف الجميع، وهي الحركة التي ركزت في البداية في ترجمة الكتب التي تعالج موضوعات فلسفية وعلمية إلى اللغة العربية، وقام بأعمال الترجمة مترجمون مستقلون، كانوا في معظمهم، إما من غير المسلمين، وإما من حديثي العهد بالإسلام، وازدهرت الترجمة في القرن الرابع الهجري الذي أطلق عليه «العصر الذهبي للترجمة العربية»، وكان لمدرسة بغداد فضل كبير في ذلك، بينما احتل عبدالله بن المقفع (ت:١٤٢هـ) مكانة مرموقة بترجمته لكتاب «كليلة ودمنة» أو «خرافات بيدبا» عن الفارسية القديمة (البهلوية) والسنمكريتية، وعرف العالم كله «كليلة ودمنة» عن طريق تلك الترجمة العربية، وذلك لأن الأصل القديم لم يعثر عليه في اللغة البهلوية والسنمكريتية، وإن كان بعضهم يشير إلى وجود تشابه بين بعض حكايات كليلة ودمنة، وبعض حكايات وردت في «المهابهارتا» و«البانتشاتانترا».

للترجمة إيجابيات وسلبيات

ومن المعروف أن حركة الترجمة إلى العربية كان لها تأثيرها السلبي والإيجابي من وجهات نظر مختلفة، فقد أغنت الثقافة العربية الإسلامية من جهة، ومن جهة أخرى أوجدت فيها أفكاراً لم يستطع علماء الإسلام تنقيتها من الشوائب التي دخلت الفكر الإسلامي، وأدت إلى ظهور طوائف وجماعات أثرت سلبًا في حركة المد الإسلامي، وألقت بشوائب كثيرة على حوض العقيدة الصحيحة، لكن الترجمة على الرغم من ذلك أغنت الفكر العربي الإسلامي بطريقة خدمت الإسلام والدعوة الإسلامية، وصدت عن الإسلام هجمات كثيرة، عن طريق تمكين المسلمين من مواجهة الطرف الآخر بالأسلوب نفسه الذي تم تعرفه من خلال نقل أفكاره عبر الترجمة.

ونتيجة للظروف السياسية التي مرّ بها العالم الإسلامي، وقيام دولة مستقلة، بعيداً عن المنطقة الناطقة بالعربية، بدأ اهتمام تلك الدول بالترجمة والنقل عن العربية، فنقل الفرس إلى لغتهم أمهات الكتب العربية، ونقل الهنود أيضاً إلى الفارسية ثم الأوردية بعد ذلك ما يفيدهم من كتب عربية لا حصر لها، وتبع ذلك نقل الكتب العربية إلى لغات أخرى مثل البنغالية، والتاميلية، والبنجابية، والسندية، بالإضافة إلى لغة الملايو، واللغة الصينية، وأخيراً اللغة الكورية واللغة اليابانية في عصرنا الحديث.

يهمنا هنا بيان كيفية تطور فن الترجمة، فقد كان الأسلوب المتبع في النقل والترجمة منذ المراحل الأولى هو الترجمة الصريحة (الحرفية)، والترجمة غير الصريحة التي تقوم على تقليد عمل مكتوب بلغة غير عربية مع تغيير صورة البيئة وأسماء الأعلام والأماكن أو غيرها من وسائل، وقد اتبع هذا الأسلوب في ترجمة كتب الطب والفلسفة، وكذلك في ترجمة الأعمال الأدبية فيما بعد.

وكان للترجمة الصريحة أو الحرفية مضارها على حساب المعنى، وأدى ذلك إلى مراجعة الترجمات فيما بعد، كما لجأ فريق من المترجمين إلى الترجمة بالمعنى مثلما فعل حنين بن إسحاق (ت: ٢٦٠هـ) الذي نقل

علوم الطب والمنطق والطبيعة والرياضة، ولم تكن كتبه في حاجة إلى مراجعة إلا في العلوم الرياضية، لأنه لم يكن متضلعاً منها، وهذا يؤكد أن المترجم يجب أن يكون على معرفة بموضوعه الذي يترجمه، وأن يكون متخصصاً فيه بصرف النظر عن اللغة التي يترجم منها.

وموضوعنا هنا لا يتعلق بترجمة الأعمال الأدبية الإبداعية بقدر ما يتعلق بترجمة الكتب الدينية، وكتب الثقافة الإسلامية إلى اللغات الشرقية، فإذا كانت ترجمة الأعمال الإبداعية تستلزم أن تكون الترجمة إبداعية، والترجمة الإبداعية تتطلب بالضرورة مترجماً أو ناقلاً مبدعاً، إلا أن الإبداع ليس هو الأمر الوحيد الضروري هنا، فالإبداع يجب أن يقترن بالأمانة العلمية والدقة حتى تكون الترجمة مميزة ذات غنى وعمق، فغريق كان يلجأ أحياناً إلى الترجمة التفسيرية، ويجوز هذا في مجال العلوم كالطب والكيمياء وغيرها، وقد يُقبل أيضاً في الترجمة التلخيصية التي تقوم على إعطاء خلاصة للموضوع، لكن الأمر يختلف تماماً في ترجمة الكتب الدينية المتعلقة بمبادئ الإسلام، فالترجمة تستلزم الدقة والأمانة، وخاصة ما يتعلق بترجمة المصطلح الديني إلى لغة غير عربية من لغات الشعوب الإسلامية أو غيرها.

وليس من شك في أن آداب اللغة العربية بدأت منذ عقود تحظى باهتمام الغرب والشرق على السواء، ومن المعروف أن الشعر الجاهلي والإسلامي والحديث قد ترجم إلى معظم اللغات الأوربية واللغات الشرقية، كما ترجمت روايات عربية إلى لغات أوربية وإلى لغات شرقية كثيرة منها الفارسية والأوردية وحتى اليابانية وغيرها، وإذا ما استخدم المترجم طريقة الترجمة الحرة أو التفسيرية أو حتى التلخيصية فلا بأس، لكن الأمر خطيرٌ جداً إذا ما تصرف المترجم في ترجمته لمحتوى كتاب يتضمن موضوعاً يتعلق بالدين.

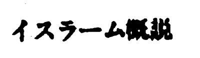
تجربة شبه القارة الهندية في ترجمة المصطلح الديني

بدأت الترجمة من العربية إلى الأوردية مع ظهور هذه اللغة في شبه القارة، ومضت الترجمة تزدهر جنباً إلى جنب مع تطور اللغة الأوردية وازدهارها بوصفها لغة أدبية وعلمية، ويمكن القول دونما تردد: إن الترجمة من العربية لم تؤدِّ دوراً مهماً في تطور اللغة الأوردية فقط، بل كان لها أثرها الواضح أيضاً في تطور لغات الشعوب الإسلامية كالفارسية والأفغانية (البشتو) والبنغالية والإندونيسية، وقد ينطبق هذا أيضاً على السواحلية ولغة الهاوسا وغيرهما من اللغات التي تأثرت بالعربية في إفريقية.

وفيما يتعلق باللغة الأوردية بذل العلماء والأدباء المسلمون جهداً كبيراً في نقل الفكر العربي إلى لغة أهل شبه القارة الهندية، وشعر بعضهم بالحاجة إلى معجم فألف العالم الفاضل مير عبدالواسع هانسوي كتابه «غرائب اللغات» الذي يعدّ أول معجم في الأوردية، إذ لم يُكتب بعده أي معجم إلا بعد خمسين سنة، وهو معجم «نوادر اللغات» لسراج الدين آرزو (١٠٩٩هجرية/ ١٦٨٧م - ١١٧٠ هجرية/ ١٧٥٦م) ونشير أيضاً إلى أن عبدالواسع كتب أيضاً معجماً باسم «حمد باري» تضمن الكلمات العربية وما يقابلها بالفارسية والأوردية، وكتب علماء الهند رسائل فقهية، ونظم الشعراء في موضوعات دينية.

وما يهمنا هنا هو إيضاح أن هؤلاء العلماء والأدباء لم يعمدوا إلى ترجمة الألفاظ العربية إلى لغات أهل الهند؛ لأنهم شعروا بعدم قدرة اللفظة الهندية على أداء معنى اللفظة العربية أو دلالتها، ومن ثم لجؤوا إلى إدخال الكلمات العربية كما هي في النص الهندي، وهكذا صارت الكلمات العربية في النص الديني تمثل أحياناً ٦٠٪ بينما الكلمات الفارسية والهندية تمثل ٤٠٪ فقط.(١).

ولم يقتصر الأمر على العلماء والأدباء المسلمين بل تعداه إلى غير المسلمين، فنلاحظ أن العالم والأديب الهندوكي «كبير» (ت: ٩٢٤هـ/١٥١٨م) يستخدم الكلمات العربية والفارسية والتركية في كتاباته، ويكتبها بالهندية كما ينطقها فيكتب كلمة مسجد هكذا: «مسيت»، ويكتب كلمة صدق هكذا: «سدك»، أما كعبة فيكتبها «كابا»، وكلمة تسبيح يكتبها «تسبيه» وهكذا، ولم يشأ أن يترجم المصطلح الديني، ووضعه كما هو، فالمسجد ليس له ما يقابله، ولهذا رأى أن يكتبه كما ينطقه، والكعبة لا معنى لها إلا معناها الذي يعرفه مسلمو الهند ولهذا كتبها كما ينطقها، والصدق في الإسلام له مدلوله الإيماني ولهذا لم يترجمه بكلمة أخرى، وهكذا دخلت المصطلحات الدينية إلى معظم لغات الهند ولغات شعوب العالم الإسلامي كما هي، وحافظت على مفاهيمها الدلالية.





غلاف كتاب «مدخل إلى الإسلام»

فكان العالم إذا كتب رسالة أو نظم قصيدة حرص تماماً على استخدام اللفظ العربي؛ وهذا مثال بسيط من منظومة قديمة بعنوان «كشف الوجود» لشاعر هندي مسلم:

«الله واحد أحد، هو الظاهر، وهو الباطن، واحد صمد، منزه عن كل شيء، دائم، قائم، لا ولد له، ولا أب، ولا أم، ولا يدركه العقل»..

فالعبارة السابقة تضمنت الكلمات العربية التالية: «الله، واحد، أحد، باطن، صمد، دايم (دائم)، قايم (قائم)»، ومنذ نشأة اللغة الأوردية وحتى اليوم لا تزال هذه الكلمات تستخدم بمعناها في العربية، وهكذا ساهم الأدباء والعلماء في إغناء لغتهم من جهة، ومن جهة أخرى تقديم مادة مترجمة في موضوعات دينية، تتسم بالدقة في التعبير، والبراعة في أداء المفهوم الأصلي، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بترجمة موضوعات تتعلق بالدين.

ولا شك أن هذا جعل العلماء يعارضون في البداية ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الفارسية والأوردية، مما اضطر العلماء الذين خاضوا هذه التجربة إلى وضع معان لألفاظ القرآن الكريم، تكتب فوق الكلمات، ثم جاءت مرحلة تالية، تم فيها ضبط الكلمات داخل جمل مفهومة، وكانت المرحلة الثالثة هي مرحلة الترجمة التفسيرية لمعاني ألفاظ القرآن الكريم.

وهكذا نلاحظ أن العلماء في الهند تمكنوا من التغلب على قضية ترجمة المصطلح الديني إلى لغاتهم، وأحسب الأمر كذلك في معظم لغات الشعوب الإسلامية؛ ففي الفارسية مثلاً يستخدمون كلمة «نماز» بمعنى الصلاة، ولكنهم يستخدمون أيضاً صلاة بمعناها العربي، وتبقى كلمة صلاة لديهم أكثر دقة من كلمة «نماز» إذا ما قصدنا أداء الصلاة

بالمصطلح الديني، ويستخدم اللفظ خدا بمعنى الله، ولكن لفظ الجلالة يبقى هو الشائع وهو الأقوى من حيث التعبير الدلالي. وكذا الأمر في الهند فهم يستخدمون الكلمة الفارسية «نماز» و أيضاً «خدا» وقد يستخدم آخرون كلمة «بهكوان» (السنسكريتية) لكن هذه الكلمة الأخيرة لا يمكن أن توضع في نص ديني يتعلق بالإسلام؛ لأن مفهومها الدلالي في الهندوكية مغاير تماماً لمفهوم الله في العقيدة الإسلامية أو حتى مفهوم اللفظة الفارسية خدا. وينقلنا هذا إلى ترجمة المصطلح الديني في اللغة اليابانية.

ترجمة المصطلح الديني في اليابانية

بدأت ترجمة المصطلح الديني العربي إلى اليابانية منذ نحو ستين سنة، حين نشر أحمد أريجا ترجمة معاني القرآن الكريم عام ١٩٣٨م/١٣٥٧هـ، وكان أريجا نصرانياً اعتنق الإسلام، ثم قصر حياته على الدعوة إليه، وهكذا نشر عدة كتيبات عن الإسلام على نفقته الخاصة، ومن الجدير بالذكر أن قربان علي أنشأ مطبعة عربية في طوكيو وطبع القرآن الكريم (النص العربي) دون ترجمة عام ١٩٣٨م.(٢).

كما أصدر مجلة شهرية باللغة التركية، وكانت هناك بعض الجمعيات اليابانية التي اهتمت بالإسلام قبل الحرب العالمية الثانية، ومن أهمها الجمعية الإسلامية لليابان العظمى، ومعهد الثقافات الشرقية، وجمعية مسجد كوبيه، وجمعية مسجد طوكيو، وكانت الجمعية الأولى تضم دارسين وباحثين غير مسلمين عكفوا على دراسة الإسلام من جوانبه الثقافية، ثم قدم إلى اليابان باحثون مسلمون من مختلف بلدان العالم الإسلامي، ساهموا مع مسلمي اليابان في ترجمة المزيد من الكتيبات عن الإسلام والثقافة الإسلامية، وزار عدد من المسلمين اليابانيين البلاد الإسلامية، وعايشوا المسلمين في حياتهم، ووقفوا على مفهوم المصطلح الديني ودلالاته، وشعروا بضرورة تعلم اللغة العربية وفهمها فهماً صحيحاً من أجل نقل الفكر الإسلامي لإخوانهم بشكل دقيق، وعلى الرغم من اعتماد بعض اليابانيين؛ مسلمين وغير مسلمين على النص الإنجليزي عند ترجمتهم لمعاني ألفاظ القرآن الكريم، فإن بعضهم وضع النص العربي أمامه وهو يترجم، كما ظهر مثقفون يابانيون يجيدون العربية مثل أجيرو ناكانو الذي درس في الأزهر والجامعة المصرية في زمان طه حسين(٣).

وعلى الرغم من اهتمام المثقفين اليابانيين بالإسلام قبيل الحرب العالمية الثانية مما كان له أثره في ظهور أبحاث جيدة للتعريف بالدين الحنيف، فإن أهمية الإسلام انتهت عند المثقفين والباحثين بعد أن أخفق حلم «آسيا الكبرى» وتوقف النشاط الإسلامي إلى أن انتهى احتلال أمريكا لليابان عام ١٩٥١م(٤).

بعد تشكيل جمعية مسلمي اليابان عام ١٩٥٢م، ووجود سفارات للدول العربية والإسلامية في طوكيو، نشطت حركة الترجمة من العربية إلى اليابانية على يد المسلمين اليابانيين والدعاة من البلدان الإسلامية والعربية، خاصة بعد عودة البعثات اليابانية من البلدان العربية، وتأسيس المركز الإسلامي، والمعهد العربي الإسلامي فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في طوكيو، ودعم أقسام اللغة العربية في جامعات اليابان، وأهم من هذا وذاك مساندة الحكومة السعودية ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ودعمهما لمسلمي اليابان، وهكذا صدرت ترجمة الحاج عمر ميتا لمعاني القرآن الكريم إلى اليابانية من النص العربي مباشرة، وأعيد تحريرها وطباعتها (ط أولى ١٩٧١م، والطبعة الثانية ١٩٨٢م).

بالإضافة إلى ترجمة معاني القرآن الكريم ظهرت مطبوعات باليابانية وترجمات من العربية مثل «قاموس الإسلام» الذي صدر عن دار هيبونشا، (تأليف) وترجمة «صحيح مسلم» الذي صدر عن جمعية مسلمي اليابان بدعم من صندوق خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، ومثل «الخلفاء الراشدون» الذي اهتمت بإصداره جمعية الصداقة اليابانية السعودية بالتعاون مع جمعية مسلمي اليابان (تأليف)، وكتاب «عقيدة أهل السنة والجماعة» للشيخ العثيمين (ترجمة) و«السياسة الشرعية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ترجمة) و«السيرة النبوية» لمصطفى السباعي رحمه الله (ترجمة) و«نساء النبي وبنات النبي» للدكتورة بنت الشاطئ (ترجمة) وغيرها.

> يركز الباحثون اليابانيون في موضوعات الشريعة الإسلامية والحكم، أما الكتب التي تنتشر بين عموم القراء فهي ترجمات كتاب ألف ليلة وليلة، وبعض الروايات والقصص القصيرة

أما موضوعات البحوث التي ينشرها الباحثون اليابانيون فيلاحظ أنهم يركزون في موضوعات الشريعة الإسلامية والحكم، كما يركز بعضهم في قضايا تاريخية وسياسية، أما الكتب التي تنتشر بين عموم القراء فهي ترجمات كتاب ألف ليلة وليلة، وبعض الروايات والقصص القصيرة للأدباء العرب وخاصة نجيب محفوظ، بينما الكتاب الذي يعالج قضايا دينية أو يتعلق بالإسلام قد لا يجد انتشاراً إلا بين طبقة الدارسين، أو من دخلوا في الإسلام حديثاً بعد أن شرح الله قلوبهم، وهؤلاء يواجهون صعوبة في فهم المصطلح الديني العربي المترجم إلى اليابانية.

اقتراحات

ولا يدّعي كاتب هذه السطور أنه عارف باليابانية أو مجيد لها، لكنه من واقع تجربته وما لديه من قليل بضاعة، وما أتاحته له فرص الاختلاط والممارسة تمكن من الوقوف على بعض النقاط المهمة فيما يتعلق بترجمة المصطلح الديني إلى اللغة اليابانية، وعليه فهناك اقتراحات متواضعة يقدمها للقائمين على أمر الدعوة الإسلامية في اليابان للأخذ بها إن رأوا أنها مناسبة، بعد التشاور مع المتخصصين من العرب واليابانيين، فما خاب من استشار.

عرفنا من السطور السابقة أن عمر تجربة الترجمة من العربية إلى اليابانية قصير جداً، وذلك لأن المترجمين اليابانيين اعتمدوا في الترجمة على نص وسيط إنجليزي أو فرنسي أو ألماني وحتى يومنا هذا يعتمدون كثيراً على نص أوردي أو تركي وسيط بدلاً من الترجمة المباشرة عن العربية، والسبب معروف، وهو نقص عدد المترجمين الذين يجيدون الترجمة من العربية إلى اليابانية، وافتقار المكتبة اليابانية إلى معجم مناسب يسهل على المترجمين مهمتهم، بالإضافة إلى نوعية الكتب التي

تترجم، والتي يسعى المترجم أو الناشر إلى طرحها في السوق الياباني لكي يجني من ورائها الفائدة المرجوة، وهكذا انتشرت ترجمة ألف ليلة وليلة وغيرها من القصص والروايات التي ترجمت مباشرة عن العربية.

والتغلب على الصعوبات السابقة يستلزم ما يأتي:

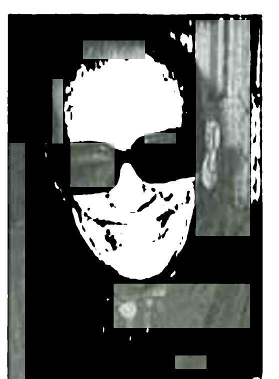
أولاً: الاهتمام بتدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية في اليابان، ووضع خطة جيدة لمنهج تعليم اللغة العربية لليابانيين، يمكن أن يطبق بداية في المعهد العربي الإسلامي فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في طوكيو، بالإضافة إلى ضرورة دعم اللغة العربية في الجامعات اليابانية، ودعم المعاهد والمؤسسات اليابانية التي تعنى بتدريس اللغة العربية والترجمة من العربية إلى اليابانية، من أجل تخريج جيل من اليابانيين يجيد اللغة العربية. ومن ناحية أخرى تستلزم الضرورة الاهتمام أيضاً بالدارسين العرب الذين يتعلمون اليابانية في الجامعات العربية سواء في برنامج تعليم اللغة اليابانية بجامعة الملك سعود بالرياض الذي توقف قبول الطلاب فيه منذ مدة، أم في قسم اللغة اليابانية بجامعة القاهرة حيث يقبل عدد كبير من الطلاب لدراسة اللغة اليابانية، يتجهون بعد تخرجهم للعمل في شركات تجارية.

ثانياً: إعداد مترجمين على مستوى جيد من المتخصصين اليابانيين والعرب، يتم تدريبهم في اليابان وفي بلدان العالم العربي، ضمن برامج محددة، لدى الجامعات والمؤسسات المعنية، على أن يشكل هؤلاء معاً فريق عمل مشترك، تسند إليه مهمة ترجمة سلسلة من الكتب التي تتعلق بمبادئ الإسلام وثقافته وحضارته، على أن يلتزم الفريق المذكور الدقة في ترجمة المصطلحات الدينية، أو إثبات المصطلح العربي وشرحه في الهامش حتى يرسخ المعنى في ذهن القارئ الياباني مع مرور الوقت، انطلاقاً من نجاح التجربة قديماً في عدد من اللغات الشرقية، وحديثاً في بعض اللغات الأوربية التي أخذت تستخدم الآن الكلمة العربية مسجد، صلاة، وصوم، وزكاة وغيرها بدلاً من المقابل الأوربي.

ثالثاً: العمل على إصدار معجم ياباني عربي وآخر عربي ياباني يهتمان بتقديم المصطلح الديني للناطقين باللغتين بشكل صحيح ودقيق، فتوحيد المصطلح في الترجمة أمر مهم جداً، خاصة أن المترجمين اليابانيين الأوائل اضطروا إلى استخدام المصطلحات البوذية والشنتوية مقابل المصطلح الإسلامي في ترجمتهم للكتب الإسلامية، وكانوا مضطرين إلى ذلك؛ لأنهم لم يجدوا أمامهم وسيلة غير تلك التي لجؤوا إليها، كما عمد النصارى منهم إلى استخدام المصطلح النصراني أحياناً، وفي مرحلة تالية انتبه المترجمون اليابانيون فكانوا يذكرون أحياناً المصطلح العربي، وربما شرحوا مفهومه أيضاً.

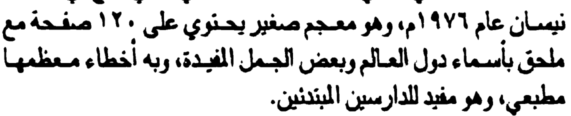
ويلاحظ أن المعاجم الثنائية أو غيرها التي ظهرت في اليابان كانت تسعى إلى تحقيق غاية أخرى غير ما نصبو إليه هنا، فقد صدر عام ١٩٨٠م معجم «القاموس المفصل عربي/ياباني» تحت إشراف لجنة تابعة لمعهد الشرق الأوسط وبرئاسة هـ تامورا (عمل سفيراً لبلاده في الرياض منذ سنوات طويلة وله مؤلف بعنوان «٥٥ عاماً في البلاد العربية»)، وبدعم من جمعية الصداقة السعودية اليابانية، وجمعية الصداقة الكويتية اليابانية، وقد شارك في إعداده نخبة من المتخصصين. ويبدو أن القاموس ترجمة لقاموس عربي قديم، لم يوضع له منهج محدد لتحقيق الفائدة المرجوة منه، وقد قامت سفارة المملكة العربية السعودية بطوكيو بشراء كميات كبيرة منه أودعتها مكتبة المعهد الإسلامي بطوكيو عام ١٩٨٢م.

كما صدر عام ١٩٩٣م معجم المصطلحات الأساسية للعلوم والتقنية عربي/ إنجليزي/ياباني، أشرف على وضعه الجغرافي الياباني إيواؤ كوبوري، بالاشتراك مع عدد من العرب واليابانيين، وذلك باستخدام الحاسوب في المقام الأول، ونال المشروع دعماً مالياً ضمن برنامج المساعدة لتطوير المواد التعليمية باللغة اليابانية من معهد اللغة اليابانية لمؤسسة اليابان The Japan Foundation واهتمت بنشره دار شركة الشرق الأوسط للخدمات الاستثمارية التي تولت تحريره بالتعاون مع شركة الزيت العربية المحدودة، وعلى الرغم من وجود بعض الملاحظات التي تؤخذ على هذا المعجم فإنه مفيد للمتخصصين في العلوم التقنية وهم الأقدر على تحديد مدى الفائدة منه.



نجيب محفوظ

وهناك معجم ثالث من وضع مؤسسة اليابان للتبادل الثقافي Japan Foundation وهو بعنوان «اللغة اليابانية: دروس الكانجي» الطبعة العربية، وقد صدر عام ١٩٧٨م في طوكيو، وهو من وضع أستاذ متخصص بجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، قامت بترجمته صديقة حياتي وتاكيشي أوجامي من راديو اليابان، ويتضمن الكتاب ٥٠٠ شكل من أشكال الكتابة الصينية المستخدمة في اليابانية مع شرح لطريقة كتابتها، وجمل توضح معانيها المختلفة، وبيان طريقة النطق الصينية وطريقة النطق اليابانية، بالإضافة إلى معجم آخر بعنوان «قاموس ياباني عربي» من تأليف ريوئيتشي ناجي طبع في أبريل / نيسان عام ١٩٧٦م، وهو معجم صغير يحتوي على ١٢٠ صفحة مع ملحق بأسماء دول العالم وبعض الجمل المفيدة، وبه أخطاء معظمها مطبعي، وهو مفيد للدارسين المبتدئين.



ومن هنا نلاحظ وجود حاجة ملحة إلى إعداد معجم عربي ياباني، وآخر ياباني عربي عن طريق تشكيل لجنة من بعض المتخصصين، على أن تقدم لهم المادة العلمية للمعجم، أي المداخل العربية للمعجم الذي يراعى فيه أن يكون سهلاً بسيطاً، وأن يتضمن مداخل أساسية تهتم بالمصطلحات الدينية، والألفاظ التي تخدم الدعوة الإسلامية، وتساعد على ترجمة الكتب العربية المتعلقة بجوانب الفكر الإسلامي، وأن يشارك في إعداده متخصصون من العرب واليابانيين، ويمكن أن يتم تمويل مشروع المعجم عن طريق المؤسسات والجمعيات الصديقة في اليابان، والمؤسسات والجمعيات التي تهتم بالدعوة إلى الإسلام في المملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى أهل الخير المعنيين بالدعوة الإسلامية وهم كُثر والحمد لله، وأيضاً بدعم من دار نشر تتولى توزيع المعجم بعد صدوره.

رابعاً: المراجعة الدقيقة للمصطلح الديني في الكتب المترجمة إلى اليابانية، وهذا أمر خطير جداً، وذلك لأن بعض الكتب المترجمة تتناول

أموراً تمس العقيدة الإسلامية، بل تتعلق بمبادئ الإسلام، وهنا تكمن الخطورة، فقد يتصرف المترجم في ترجمة عبارة تتعلق بالصلاة مثلاً، وهذا مثال واضح من ترجمة كتاب «مدخل إلى الإسلام» للبروفسور حميد الله، فالمترجمة السيدة كرودا ميوكو (مسلمة) تخرجت في كلية الآداب بجامعة كيئو اليابانية، قسم اللغة الفرنسية، كما درست في جامعة الأزهر، قسم الدراسات الخاصة، وكتبت عدة أبحاث منها المرأة في الإسلام، والصحوة الإسلامية، وقضية اللاجئين الفلسطينيين؛ ومن الواضح أنها ترجمت كتاب البروفسور حميد الله عن الفرنسية على الرغم من كتابة عنوانه بالعربية هكذا «مدخل إلى الإسلام» جنباً إلى جنب مع العنوان باليابانية Isramu Gaisetsu، وقد اهتم المركز الإسلامي في طوكيو بترجمة الكتاب ونشره، وصدر الكتاب في يوليو/ تموز ١٩٨٣م، وهو يندرج تحت قائمة الكتب التي تحتاج إلى مراجعة دقيقة، ويرجع السبب إلى أسلوب الترجمة، ووجود أخطاء في الترجمة واضحة إن لم تكن فاضحة، ففي صفحة ٣٢٠ وردت العبارة الآتية:

«الصلاة خمس مرات في اليوم، وفي يوم الجمعة يجب أن تقام الصلاة الثانية جماعة، وبالإضافة إلى هذا هناك صلاة تقام جماعة مرتين في السنة مرة بعد انتهاء رمضان في يوم العيد ومرة في الاحتفال بعيد الأضحى.

والصلاة الأولى ركعتان، والصلاة الثانية والثالثة أربع ركعات، والصلاة الرابعة ثلاث ركعات، والصلاة الخامسة أربع ركعات... والرسول كان يصلي الوتر ثلاث ركعات بعد الصلاة الخامسة».

ويلاحظ أن الترجمة خلت من ذكر كلمة صلاة الفجر أو الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر والمغرب والعشاء، وتم ترقيم هذه الصلوات، الصلاة الأولى والصلاة الثانية والصلاة الثالثة والرابعة والخامسة، وأشارت المترجمة إلى أوقاتها دون ذكر مسمياتها وهو أمر كان من المفروض أن تذكره حتى بلفظه العربي كأن تقول الظهر أو العصر أو المغرب مثلما ذكرت صلاة الوتر، وذلك لأهمية المصطلح هنا، وربما يكون لدى المترجمة عذرها هنا، لأنها عمدت إلى الترجمة الحرفية أو المعجمية، لكن الأمر التالي يوضح مكمن الخطورة في الترجمة، فقد جاء في الصفحة نفسها ص ٣٢٠ ما يأتي:

«في يوم الجمعة، وفي يوم العطلات القومية (الرسمية) الصلوات كلها ركعتان فقط...»؛ وهذا هو نص العبارة باللغة اليابانية:

Kinyobi to saijitsu no reihai wa subete ni rakato de aru

خطأ فاضح عن الصلوات في كتاب «مدخل إلى الإسلام»

ثم تأتي ترجمة عبارة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلي الوتر ثلاث ركعات بعد الصلاة الخامسة.

فكيف يمكن أن تكون الصلوات في يوم الجمعة وفي العطلات الرسمية ركعتين فقط.. ولا أدري من أين جاءت المترجمة بهذا المعنى، وأثبت هنا صورة لغلاف الكتاب والصفحة المذكورة، وقد ذكر القائمون على أمر المركز الإسلامي أنهم بصدد مراجعة الترجمات التي صدرت عن المركز، لكن الأمر يستلزم مراجعة كل ما صدر من ترجمات وكتابات باللغة اليابانية، وخاصة ما يتعلق منها بأمور الشريعة والفقه ومبادئ الإسلام الأساسية.

وهنا تكمن أهمية الاهتمام بترجمة المصطلح الديني، فمصطلح الصوم مثلاً في العربية يختلف مفهومه عن مفهوم المصطلح الياباني للصوم، وهو «دانجيكي» الذي يروج بين رهبان البوذية، ويعني الصوم تماماً عن تناول الطعام والشراب لأيام تطول أو تقصر طبقاً لقدرة الراهب أو الناسك على ذلك، بينما الصوم في الإسلام يختلف تماماً عن صوم الراهب أو الناسك البوذي، ولهذا وجب شرح المصطلح عند الترجمة مع إثبات اللفظ العربي، حتى يشيع وينتشر بين اليابانيين بمفهومه الإسلامي، فالياباني ينزعج إذا قيل له إن «دانجكي» شهر رمضان من فرائض الإسلام، لأن المفهوم في ذهنه هو امتناعه عن الطعام والشراب مدة ثلاثين يوماً بلياليها، وعلى العكس من ذلك سيشعر بالاطمئنان، إذا ما ذكرنا له معنى الصوم، وأنه الامتناع عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس، طيلة شهر رمضان.. وذكرنا له أيضاً ما يجب على الصائم من صون اللسان ومن الأمور الأخرى التي حددها الشارع.

وينطبق هذا أيضاً على مفهوم «الزكاة»، و«الحج»، و«الأضحية»، و«الصدقة»، و«الأمر بالمعروف»، و«النهي عن المنكر»، و«بر الوالدين» فضلاً عن مصطلحات أخرى مثل «البعث» و«يوم القيامة»، و«الرسول»، و«النبي»، و«أولياء الله»، و«التوحيد»، و«الشرك بالله»، و«التوبة»، و«المغفرة»، وغيرها من المصطلحات التي يصعب على المترجم أن يجد لها ما يقابلها في لغته، وهي المصطلحات التي اضطر المسلمون في البلدان التي شرفت بالإسلام في آسيا وإفريقية وغيرها إلى استخدامها كما هي في العربية شارحين مفهومها للناس، حتى صاروا يفهمون معناها كما يفهمه أهل العربية، ودخلت هذه المصطلحات بالتدريج في لغاتهم، حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من معجمها اللغوي، وتراثاً ثقافياً يستخدمه أدباء تلك البلدان، وتتناقله الأجيال عبر الأزمان.

المراجع

١. الأدب الأوردي الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص ٦٠ وما بعدها، ١٤١٣هـ.

٢. الإسلام والأديان في اليابان، د. سمير عبدالحميد إبراهيم، ١٤٢١هـ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض،١٤٢١هـ .

٣. الرحلة اليابانية، دارة الملك عبدالعزيز، ترجمة: سارة تاكاهاشي، طبعتان، ١٤١٦، ١٤١٩هـ.

٤. الإسلام والأديان في اليابان (مرجع سابق).

استطلاع

فجيج.. واحة تتذكر أمسها

محمد بو زيان بنعلي
فجيج - المغرب



«اتصل بي أصدقاء من الجزائر وتونس وليبيا والسودان والسعودية وسورية.. يقولون: إن كثيراً مما كتبته عن فجيج ينطبق أيضاً على القرى والواحات التي عاشوا فيها.. وإذن فللمسألة بُعْدٌ عربي يعكس وحدة الحضارة العربية الإسلامية من الخليج إلى المحيط».

[د. محمد عابد الجابري: حفريات في الذاكرة «حوار ص ٢٧٤»]

لقد قدم لنا ابن البلد الجابري نماذج غزيرة من مناحي الحياة الفجيجية في سيرته الذاتية «حفريات في الذاكرة»، وصورها تصويراً فذاً صادقاً معجباً جعل من فجيج شاهداً على وحدة الحضارة العربية الإسلامية من المحيط إلى الخليج باعتراف المثقفين الذين قرؤوها، مما أمدّني بدافع قوي للإفصاح عن حقائق أخرى، أو تفصيل بعض ما أجمله هو عسى أن تتعمق الصورة، ونستبين الفرق بين عظمة الماضي وشقاء الحاضر الموسوم بالحرمان والتهميش.

تحديد الموقع

تقع واحة فجيج في الجنوب الشرقي من المملكة المغربية على خط الحدود الذي أقامه المستعمر الفرنسي بين المغرب والجزائر في أوائل القرن

العشرين، وتمتد على مساحة ٢٥كم٢ تقريباً، كما تبعد عن مدينة وجدة بنحو ٣٦٥ كم. وتتميز المنطقة بتنوع تضاريسها إذ تتكون من مجموعة جبلية في شكل سلسلة تحيط بمنخفض حيث توجد الواحة، وتراوح ارتفاعات هذه الجبال المرسومة في شكل أعراف بين (٢١٦٠م بجبل العمور و ١٧٠٠م عند جبل كروز). أما مناخها فشبه صحراوي يتميز بالحرارة المرتفعة صيفاً، والبرودة المفرطة شتاء، مع قلة سقوط الأمطار. ويزيّن أطراف الواحة وادي زوزفانة الذي يمتد مجراه من الشرق نحو الجنوب ليمتزج بوادي الساورة في القطر الجزائري الشقيق.

هذا عن واحة فجيج، أما فجيج الإقليم فيحده من الشمال والشمال الغربي إقليما جرادة وبولمان، ومن الشرق والجنوب الشرقي الجزائر، ومن الغرب والجنوب الغربي إقليم الراشدية.

التسمية: أصلها ورسمها

من تقاليد الباحثين في أسماء الأعلام الجغرافية، حين لا يجدون مصدراً ثقة، أو رواية جاهزة سائرة، أن يقوموا بتمرينات ذهنية بحثاً عن مدلول هذا الاسم أو ذاك، وهذا عين ما قام به الباحثون في أصل تسمية فجيج، فانتهوا في شبه إجماع إلى أن مدلولها مرتبط بطبيعتها وتضاريسها، فغالبية جبالها تتخللها (فُجَيْجات) أي فُجاج صغيرة، أو أفاجيج، ومفردها (إفجيج)، جاء في لسان العرب: «واد إفجيج: عميق، يمانية، وبعضهم يجعل كلَّ واد إفجيجاً، وربما سمي به الثُّنْيُ في الجبل. والإفجيج الوادي الواسع، وهو معنى الفج»(١) وسواء أدلت إفجيج على الوادي الواسع أم على الفج، فإن الحتمية الطبيعية شاءت أن يجتمعا فيها معاً. فثمة فجاج، وثمة أودية. وقد أتاح وجودي بالمشرق العربي أن أقف على فرضية أخرى تمثل بالنسبة إليّ شيئاً من أسرة اليقين الذي يعضده ويسنده كون كلمة «إفجيج» يمانية الأصل، كما ذكر ابن منظور، ذلك أنني وجدت في معجم المدن والقبائل اليمنية نقلاً عن معجم الحجري (ص٣١٤) ما يأتي: «آل الفجيج، من قبائل عبيدة أبراد في ناحية مأرب» والذي لا مراء فيه أن في العراق عشيرة تسمى عشيرة الفجيجات، وإذا كانت ذاكرتي لم تخني فإن في السعودية أيضاً محلة تسمى «الفجيج». وكل هذا ينتهي دليلاً قوياً على أن لتسمية فُجيج أصولاً مشرقية تزكّي الرواية التي تؤكد الأصول الشرقية، بل اليمانية لساكني شمال إفريقية.

ومهما تكن الحال، فإن أول مصدر عربي أشار إلى هذا الاسم هو كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مراكشي مجهول عاش في القرن السادس الهجري، يقول: «أرض فجيج، وهي بلاد خصبة، وفيها نخل كثير، وتسكنها أمم شتى»(٢) غير أن ابن خلدون يرسمها في مطولته التاريخية بجيمين بربريتين مما يشكك في عربية اسمها، يقول: «فيكيك، وهي قصور متقاربة بعضها من بعض، ائتلف منها ممر كبير مستبحر بالعمران البدوي... إلخ(٣). أما أبو القاسم الزيّاني فيقدمها بقافين قائلاً: «ويقابل تلمسان خلف جبل درن إقليم فقيق فيه قصور وقرى كثيرة، وعمائرها معتبرة... إلخ»(٤).

وهكذا صرنا نرى ثلاث صور لرسم الكلمة: فجيج، وفيكيك، وفقيق. والاستعمال الشائع الآن هو :فجيج.

جزء من منظر عام لأحد قصور فجيج

نشأة المدينة وقدمها

لم تتأشب (تُجمع) أبحاث المهتمين بالمنطقة ـ على كثرتها ـ حول زمن معين يحدد نشأة الواحة. لكن ما عثر عليه من نقوش صخرية ورسومات وكتابات وأدوات منحوتة تؤكد أن تاريخها يرتفع إلى أكثر من خمسة آلاف عام قبل الميلاد، وهذا ما نفسره ـ مثلاً ـ نقوش «كدية الحيثمة» الواقعة عند قدم السفح الجنوبي لجبل المعيز حيث عثر على رسوم خطية لحيوانات برية مميزة لدى الإنسان البدائي كالغزال والأيّل والنعامة، كما وجدت مجموعة من أدوات منحوتة من حجر الكلس كانت تستعمل للقطع، تعود تاريخياً إلى ما بين (٥٠٠٠ و ٧٠٠٠ سنة ق.م). وطلباً للاختصار نشير إلى أن أهم أثر على الإطلاق هو صورة كبش يحمل بين قرنيه قرصاً ذا زوائد يذكرنا في شيء من الغرابة بالصورة الموجودة في معبد أمون ـ رع بطيبة مصر، وقد دارت حوله وأشباهه نقاشات كثيرة بين المهتمين، أشهرها كان عام ١٩٠٠م في المؤتمر العالمي لعلم الإناسة Anthropologie فبينما أكد عدد من الباحثين أن هذا النقش يمثل أثراً يعود إلى تأثير الدين المصري في المنطقة انطلاقاً من صحراء ليبيا، ذهب آخرون إلى أنه لا علاقة بالإله أمون ـ رع الذي لم يكن قد ظهر آنذاك، وعلى هذا فكل من مصر والمغرب كرع من منبع ثقافي واحد(٥).

وإذا انتقلنا إلى آثار ما بعد الميلاد استوقفتنا كتابات منقوشة على صخرة وادي الحاج ميمون جنوب فجيج، وقد فك الباحث الأمريكي باري فيل Barry Fell رموزها فوجدها تتحدث عن مجموعة إخوانية مسيحية هاجرت من فجيج في القرن الخامس الميلادي نحو أمريكا فراراً من اضطهاد الوندال الذين اكتسحوا أراضي الشمال الإفريقي. وقد تعزز هذا الاكتشاف وتأكدت معطياته بكتابات مماثلة اكتشفها ثلاثة من الباحثين الأمريكيين في غابة كوكبونست Cockponcet، وفي شرق أمريكا الشمالية كونيكتيكوت Connecticut وهم: جون كالا دجير، ونورمان طوطن، وباري فيل المذكور من قبل(٦).

في ضوء هذه المعلومات وغيرها مما هو مبثوث في الكتب المختصة - يصبح بمقدور المرء أن يكوّن تصوراً أوليًا عن هذه الواحة العتيقة الضاربة بامتياز في الأعماق السحيقة من التاريخ القديم.

فجيج والتاريخ السياسي

ومع ذلك، فإن تاريخها السياسي لم يتضح نسبياً إلا بعد الإسلام، بحيث يمكن لدارس التاريخ السياسي للمغرب الكبير أن يؤرخ فجيج منذ عهد بني مدرار بسجلماسة، وبني رستم بتاهرت، وما عرف بين الدولتين مما كان مجاله ما بين سجلماسة وتلمسان وضمنه فجيج، إلى عهد العبيديين والمرابطين ثم الموحدين وبني مرين(٧). ويمكن التماس تفاصيل ذلك في مظانها، وحسبنا أن نضرب هنا إلى أنها - أي فجيج - كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الكلي خلال بعض فترات الصراع بين ممالك الشمال، أو ضعف السلطات المركزية، فحينما تحدث ابن خلدون عن قبائل مطغرة القوية قال: «ومن قبائل مطغرة أيضاً بصحراء المغرب أمم كثيرون نزلوا بقصورها.. ومنهم في فيكيك قبلة تلمسان على ست مراحل منها، وهي قصور متقاربة بعضها من بعض ائتلف منها مصر كبير، مستبحر بالعمران البدوي، معدود في آحاد الأمصار بالصحراء، ضاح (أي خال) من ظل الملك والدول، لبعده في القفز ورياسته في بيت بني سيد الملك منهم»(٨)، وكان المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان أكثر منه صراحة إذ يقول في معرض كلامه عن انحلال المغرب وانقسام البلاد أواخر القرن الخامس عشر الميلادي: «فقد اتحدت واحات فجيج فكونت دولة مستقلة»(٩).

وبالنظر إلى موقعها الإستراتيجي المتميز اهتمت بها جل الدول المتعاقبة على المغرب، فوطئها الأدارسة، وعرفت زحفًا لمتونيا في إطار الحركة المرابطية، وغزاها السعيد بن المأمون الموحدي (حكم ما بين ٦٤٠هـ - ٦٤٦هـ) لما نكث أهلها بيعته، ثم عفا عنهم بتدخل بعض شيوخ أسرها الشريفة، بل إنها كانت مركز انطلاق القبائل المرينية المتحفزة لانتزاع السلطة من يد الموحدين(١٠) وما إن ظهر السعديون حتى عقدوا العزم على الارتباط بها بوساطة الأشراف والأولياء والعلماء، أو مباشرة بقدوم بعض ملوكهم كالمولى عبدالملك وأخيه المولى عبدالمؤمن والمولى زيدان، ثم تبعهم العلويون في هذا التقليد فحلَّ بها مولاي محمد بن الشريف الذي بويع سنة ١٠٥٠هـ، والمولى عبدالملك عاملاً من قبل والده المولى إسماعيل سنة ١١١٨هـ(١١).

وهكذا كانت فجيج تستقل بنفسها آنًا وترتبط بالسلطة المركزية أحيانًا حتى حسم في أمرها نهائيًا بمعاهدة (لالا مغنية) عام ١٨٤٥م التي اعترف بندها الخامس بانتمائها المغربي، هذا الانتماء الذي ضحّى من أجله أهل فجيج بالغالي والنفيس، فواجهوا الأتراك سنة ٩٩١هـ، والفرنسيين بدءاً من عام ١٨٦٩م في معارك أمرّ من نقيع الحَنظل، ووقفوا ببسالة - لا تدرك - في وجه مخططاتهم العدوانية الرامية إلى ابتلاع فجيج وإذلال أهلها



بقايا أحد الأسوار القديمة بقصر الوداغير

الأشاوس؛ لأنهم كانوا عقبة أمام التوسع الفرنسي نحو الجنوب؛ ولأنهم استجابوا لنداء الدين والأخوة والجوار، فساندوا - بلا شرط - حركات المقاومة الجزائرية حتى قال في حقهم الأمير عبدالقادر الجزائري أقوالاً تنشر على مفرق مباءتهم درراً لألاءة كان يقول في إحدى رسائله الاستصراخية الكثيرة: «وسياستكم، وتدبير صنائعكم المحكمة مع غلظتكم على الكفار، وشدتكم في ثبات الصفوف الحربية معلومة عندنا بالضرورة، حسبما دونت خصالكم الحميدة وأفعالكم الرشيدة في تاريخ وهران ووقائعها(١٢).

والحقيقة أن لتاريخ فجيج السياسي جوانب أخرى تحتاج مقاربتها إلى هامش أوسع مما هو متاح في مثل هذه الدراسات التي تنحو إلى الاختصار والاختزال.

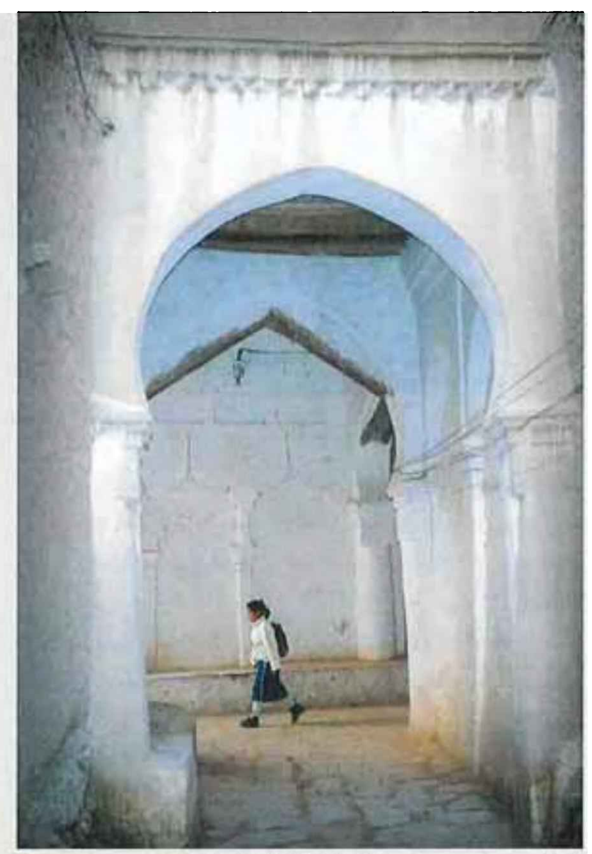
مركز تجارة.. واقتصاد

نستفيد مما عاينه الرحالون والمستكشفون الغربيون أن فجيج كانت مركزاً مرموقاً يموج بحركة دائبة تضرب في جميع الاتجاهات، فقد كانت - ولا تزال - مركزاً فلاحياً مهماً بفضل بحيرات النخيل التي بلغت حسب إحصائية النقيب الفرنسي كرول Graulle عام ١٨٩٢م نحو ٥٧٠,٠٠٠ نخلة، انحدر مجموعها في إحصاء ١٩٨٢م إلى ١١٣,٠٠٠ نخلة، زد على ذلك مزارع القمح والشعير والفواكه والزيتون، مما جعل الإشادة بخيراتها ورخائها تقليداً فاشياً في كتب الرحالين الذين كانوا يتواصون دائماً بشراء الزاد والعلف منها، ومن أبهى ما استوقف أذواقهم وأبصارهم تمورها الذهبية، حتى لقد صرح ابن ناصر الدرعي (ت:١٠٨٥هـ) أنه لم ير مثل التمر الفجيجي لوناً ومطعماً إلا عند أولاد علي في ليبيا(١٣).

وبسبب موقعها على طرق التجارة المشهورة اجتذبت فجيج قوافل التجار إليها منذ القديم، فكان على القوافل المتجهة من وإلى السودان أو مصر والمشرق أن تحط رحالها هنا، فانتشرت بذلك أسواق عظيمة تركت صدى واسعاً في الكتب، ولم تضعف إلا مع دخول الاستعمار. ونذكر على سبيل التمثيل أن آن ليفنيك Anne - Levinck شهدت عام ١٨٨٤م وصول قافلتين تجاريتين في يوم واحد بلغ مجموعهما أزيد من ألفي جمل(١٤).

وقبلها بقرون كتب ابن الوزان الفاسي (ليون الإفريقي): «والرجال أذكياء جداً، يتعاطى بعضهم التجارة في بلاد السودان» حتى قال: «ولذلك كان جميع الفكيكيين أثرياء»(١٥). وبين شهادة هذا وشهادة تلك نظائر وأشباه نختار منها شهادة الرحالة العالم أبي مدين الدرعي، يقول: «والسمن بها رخيص، والصوف، والثياب، والغنم، والخير بها كثير؛ لأنها سوق أعراب الضهرة منها يقضون غالباً حوائجهم»(١٦).

وقد نتج من هذه الوضعية المزدهرة تنامي النشاط الصناعي وتعدد إنتاجاته، وتأتي صناعة النسيج الصوفي في الطليعة، وحتى نكون على بينة من أن سمعتها شرقت وغربت نقرأ وصية الرحالة الأديب أبي سالم العياشي (ت:١٠٩٠هـ) لتلميذه الفقيه المجيلدي (ت:١٠٩٤هـ): «إذا وصلت إلى فجيج فلا بأس أن تشتري منها بما معك من سكة سجلماسة الدراهمية ثياباً لنفسك أو لعيالك فإنها قد تكون فيها رخيصة، واختر منها ما تيسر عليك حمله لتبيعه بمصر أو مكة أو المدينة، وأعني ثياباً واسعة غليظة عشرة في أربعة، أعني عشرة أذرع طولا وأربعة عرضاً، فإنها يرغب فيها أهل هذه الأماكن، بل وغيرهم كأهل ثغر طرابلس، ولو لم يكن فيها إلا تبديل المكة لكان ذلك كافياً، وكيف وفيها ربح كثير»؟!(١٧) وهكذا كانت صناعة النسيج سفيراً مشرفاً لهذه الواحة المعطاء حملها الركبان، وساروا بذكرها



أحد الأزقة القديمة



نموذج من النقوش الصخرية

إلى مختلف الأمصار والأوطان!! وإذا شئنا أن نقف على سبب هذه الشهرة الذائعة رجعنا إلى وصف ليون الإفريقي إذ يقول: «وتنسج النساء ثيابًا من الصوف على شكل أغطية السرير، لكنها دقيقة رفيعة حتى يُظن إنها حرير، وتباع بثمن مرتفع في مدن البربر كفاس وتلمسان..»(١٨). وفي كتب الرحلات المغربية انطباعات أزهى وأبهى عنها، وعن صناعة البارود والرصاص والألغام والأسلحة التي أدهشت من كتب عن فجيج، فهذه أن ليفينك تقول بعد ما وقفت توازن بين بعض الصناعات الرائجة: «والذي أدهشني أكثر من صناعة الذهب، والفضة، وطرز الحرير على الجلود والقطائف هو الأسلحة المصنوعة في غاية الإتقان»(١٩)، هذا الإتقان عبر عنه صاحب الرحلة الكبرى في كلمة جامعة مانعة فقال: «ولهم صنع عجيب في إخراج البارود!»(٢٠) فلا غرو إذن، أن يستنجد الباي محمد غداة احتلال وهران عام ١٧٩١م بالفجيجيّين ليصنعوا له الألغام.. وأن يكتب الأمير عبدالقادر الجزائري إلى أهل فجيج (شرفاء الوداغير) مستصرخًا براعتهم: «نحن توسلنا بالله أن تبعثوا لنا رجالاً يعرفون صنعة اللغم تحت الأرض»(٢١)

وإلى ما سبق، فقد درجت على أرض فجيج صناعات ذات سوق نافقة مثل الفخار.. والمجوهرات.. والجلود.. والحدادة.. والنجارة تجد أصداءها في عشرات الأبحاث والكتب التي ألفت عنها.

مركز ثقافي مرموق

لا يمكن - في ضوء المعلومات الحالية على الأقل - أن نسجل شيئًا عن التاريخ الثقافي لفجيج قبل الفترة الموحدية، على الرغم من وجود دلائل قوية تدل على أن حركة ثقافية ما تفاعلت هنا مع استقرار الأشراف الأدارسة الفارين من مذبحة موسى بن أبي العافية المكناسي نحو سنة ٣١٧ هجرية، بل إن الأدبيات الموحدية لم تحتف بفجيج إلا في شخص عالمها الفذ أبي حامد محمد الفجيجي صاحب «مفيد العوائد في خير الفوائد»، ألفه باسم السلطان يوسف بن يعقوب بعد سنة ٥٠٠هـ، ولا يزال مخطوطًا ببطرسبورغ في روسيا(٢٢)، وسننتظر حتى أواخر العصر المريني لكي نتحدث في كثير من الثقة عن حركة ثقافية حقيقية لم تخمد جذوتها إلا في بدايات الاستعمار، لتستأنف في ثوب جديد مع ما عرف بالمدارس الحرة وأشهرها بفجيج مدرسة النهضة المحمدية التي تخرج فيها الدكتور محمد عابد الجابري ابن البلد الذي حفر في ذاكرتها قبل أن يحفر في ذاكرته!

بلد الإمام عبدالجبار

لا يكتمل حديث أي متحدث عن فجيج وتاريخها الثقافي والديني من غير أن يثير شخصية الإمام عبدالجبار (٨٢٠-٩١٨هـ)، رحمه الله؛ لأنه صاحب الفضل الأول في تفجير ينابيع الثقافة الغائرة، وتحريك دواليبها الساكنة منذ العصر المريني، كما سبق وشبكًا، وقد انطلق في ذلك من مشروع علمي متكامل نجمل عناصره في الآتي:

- **إنشاء زاوية علمية**: أي معهد علميّ بمرافقه الضرورية لإيواء الطلبة الطارئين على الواحة من أنحاء المغرب الكبير ومصر وإطعامهم، ويستفاد مما رثاه به ولده محمد أن بعض حلقاته العلمية كانت تعقد بمسجده الذي لا يزال إلى الآن يحمل اسمه:

كفى حزنًا ألا أراه مـيـمـمـًا ... لمسجده العلياء في خير جلسة

وقد أدى هذا إلى تنافس محمود بين الأسر العلمية في مختلف القصور، فتعددت الزوايا، ونشطت تبعًا لها الحياة الثقافية، لولا جنوح بعضها إلى المزج بين العلم والتصوف الطرقي المحذور.

- **تأثيث خزانة عظيمة**: أطلق عليها اسم «دار العدة»، والعدة - حسب موسوعة ابن منظور اللغوية - لفظ يدل على ما أعددته لحوادث



نماذج من المخطوطات النادرة التي تزخر بها فجيج



تحفيظ القرآن الكريم في الألواح

الدهر من المال والسلاح، وكأني بالإمام عبدالجبار يقصد ما أعده لمواجهة خطر الجهل وانحراف بعض الفرق المتطرفة بإطلاق يد طلبته في كتبها، وتربيتهم على استثمار مضامينها في التعلم والإصلاح. والحقيقة أن هذه الخزانة صرح متميز فرض احترامه وإكبار منشئها على كل من زارها، بل إن زيارتها كانت ضرورة وفريضة علمية عبر عنها الهشتوكي بقوله: «قد جرت عادة جميع من مر بفجيج من كل من يتعاطى العلم بزيارتها. وقد زرناها كما تقدم، وزرنا قبره (أي قبر الإمام عبدالجبار) ومسجده وموضع إقرائه وتدريسه»(٢٣).

وقد استمرت بغررها وأعلاقها تنافس أشهر خزانات الحواضر العلمية الكبرى كفاس ومراكش حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري كما نفهم من هذا الانطباع المحزون الذي سجله الأديب محمد بن عبدالسلام بن ناصر سنة ١١٩٦هـ: «وزرنا في خلال هذه المدة ضريح الإمام العلامة الشريف الإدريسي سيدي عبدالجبار اقتداء بسلفنا، وبالغ بنوه في ضيافتنا - تقبل الله منهم. وكانت لهذا الإمام وبنيه من بعده خزانة كتب عظيمة احتوت على دواوين غريبة، ثم تلاعبت بها أيدي الحدثان، ومر الدهور والأزمان، فتفرقت شذر مذر، حتى لم يبق منها إلا الأثر»(٢٤).

وبعض هذا الأثر موجود إلى الآن بخزانة ضريحه، وأكثره، وأهمه استولى عليه أعقابه وسواهم مع علمهم: «أن خزانة كتب سيدي عبدالجبار حبس على من ينتفع بها من الذرية وغيرهم بالنظر فيها، والانتساخ منها إن كان أهلاً لذلك، ثم ترد بعد ذلك لمحلها، معقب مؤبد، ووقف صحيح مخلد، لا يباع ولا يوهب، ولا يورث، حسبما شهد به الجم الغفير، والملأ الكثير من أهل بلدة فجيج خلفا عن سلف»(٢٥).

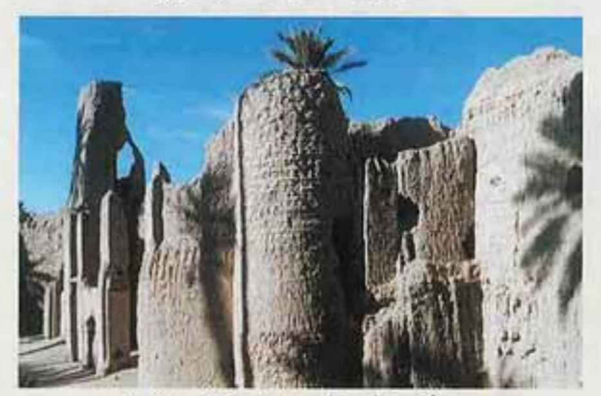
وإني على مثل اليقين أن مئات من المخطوطات الأمهات هي الآن رهينة الخزائن الخاصة تنتظر من يبسط إليها يد الإنقاذ، فهل من سامع؟!.. وهل من مجيب؟!.

. الشخصية القدوة: إن الإمام الذي حقق هذين الإنجازين الكبيرين جمع إليهما شخصية فذة نادرة، وهذا التميز هو الذي ضمن النجاح والاستمرارية لمعهده وخزانته. فلقد استطاع أن يربي أبناءه الثلاثة: أحمد، وإبراهيم، ومحمد(٢٦) على حمل المشعل من بعده حتى صار فضلهم على الثقافة بفجيج كفضل المرابطين على استمرار الوجود الإسلامي بالأندلس قروناً، فكلهم كان عالماً أديباً ومربياً، وإن ننس لا ننس أن إبراهيم هو صاحب روضة السلوان تلك القصيدة الصيدية التي انخرطت في الآداب العالمية من خلال ترجمتها إلى عدة لغات ومطلعها:

يلومونني في الصيد والصيد جامع
لأشياء للإنسان فيها منافع(٢٧)

كما استطاع أن يربي أبناءه وتلامذته على حب الإقراء والتدريس والفصل بين العلم والتصوف الفلسفي، إلا أن يكون تصوفاً سنياً عملياً لا مكان فيه لشطحات ابن عربي وابن سبعين وإضرابهما، وهذا ما نأى بزاويتهم عن المشكلات التي عصفت ببعض الزوايا بفجيج وغيرها. واستطاع أيضاً أن يغرس تقليد الكتابة وإنتاج الثقافة في نفوس أبنائه وتلامذته، ولا سيما أن فجيج كانت بعيدة عن الحواضر الكبرى، فكان لا بد من تصنيف مالا يستغني عنه الطلبة وتمثيل ثقافة العصر، وقد


أحد الأضرحة الكثيرة المنتشرة بفجيج


صورة أخرى لأحد الأسوار القديمة بقصر الوداغير


جانب من الشارع الرئيس بالواحة

فعل الإمام وأبناؤه ذلك بامتياز من خلال ما خلفوه في مجال التفسير والفقه والأدب. يذكر الدكتور محمد عابد الجابري أن المستشرق الفرنسي المشهور جاك بيرك حدثه في لقاء معه خلال ندوة بواشنطن في أبريل/ نيسان عام ١٩٨٢م أنه «أي بيرك» يتوفر في خزانته بفرنسا عدة مخطوطات لسيدي عبدالجبار، وقال: إنها مهمة جدا، وإنه ينوي تحقيقها عندما يسمح له الوقت بذلك، وقد مات جاك بيرك قبل أن يفعل»(٢٨)

أما نحن فلا نعرف من مؤلفاته إلا تفسير القرآن العظيم، ومختصر حياة الحيوان للدميري، وبعض النوازل الفقهية، والقصائد الشعرية، وفهرست شيوخه.


نموذج من الحليّ الفجيجية التقليدية


الكسكسي الفجيجي طعام شعبي للولائم الكبيرة

بلد العيون.. والقصور السبعة

«ولولا الماء ما كانت فجيج» هكذا قال (مارك بونفوس)، وعلى غرار ما قال هيرودوت عن نيل مصر قالوا: «فجيج هبة عيونها»، وهي ست وثلاثون عينا حافظت منذ قرون كثيرة بصبيب إجمالي قدره ٢٠٠ لتر في الثانية تستعمل لري البساتين بنظام توزيع أدهش الباحثين الغربيين بدقته وعدالته، وبتقنية قديمة جداً، هي تقنية «الخطارات» وهي عدة آبار تتصل فيما بينها بنفق يحمل المياه عبر مسافة طويلة من منابعه إلى مقاصده. ولكل قصر في فجيج عيونه الخاصة به، ولا ينبغي أن نفسر لفظة (القصر)، فهي في المغرب تطلق ويراد بها كل تجمع بشري في مساكن محاطة بأسوار ذات أبواب محروسة، وأبراج للمراقبة، وعادة تكون المساكن في القصر متلاحقة، والطرق ضيقة مسقفة، والمنازل عالية. ولا يخلو أي قصر من مسجد ومرافق اجتماعية أخرى، ومقر الجماعة (الهيئة السياسية). ومواد بنائه محلية قوامها: الطين وجذوع النخيل...

وقد أشار ابن خلدون إلى وجود هذه القصور في مواطن متفرقة من كتابه «العبر». إلا أن الذي حدد عددها هو ليون الإفريقي/ ابن الوزان الفاسي، إذ يقول: «فكيك، عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء يحيط بها عدد كثير من النخل»(٢٩)، ثم يأتي إدمون دوتي Ed-mond Doutte ليوضح ما ذهب إليه ابن الوزان بقوله: «على الرغم من أن عدد القصور الفجيجية يصل إلى سبعة، فإنها لا تشكل في واقع الحال إلا ثلاث كتل هي: الوداغير، والعبيدات، وأولاد سليمان ثم المعيز، و(الحمامين الأسفل والأعلى) و(قصر زناقة)».

هذه إذن هي القصور السبعة التي تتشكل منها واحة فجيج الآن. نعيد ترتيبها حسب عدد سكانها: قصر زناقة ويشكل تقريباً نصف فجيج مساحة وسكاناً وتأثيراً، ثم قصر الوداغير فقصر المعيز، فالحمام الأعلى (الفوقي)، فأولاد سليمان، فالحمام الأسفل (التحتاني)، والعبيدات.


الحياكة اليدوية صناعة تقليدية متميزة

المآثر.. والأحباس

في فجيج من المآثر التاريخية أطلال دارسات، وقصور مهجورة شاخصات تستحق أن تسجل ضمن التراث العالمي، وتستنهض همم المخلصين من أبنائها قبل أن تؤول إلى خرائب موحشة. بيد أن أهم وأشهر أثر ماثل للعيان الآن هو: الصومعة الحجرية، أو ما بني في المنطقة مع بدايات القرن السادس الهجري على شكل هندسي ثُماني(٣٠) يليها في القدم عدد من المساجد.. والمستحمات (المغتسلات) الباطنية التي حفرها الأجداد بقدرات عجيبة، ولنتذكر فقط أن الاستحمام في أحدها يتطلب منك النزول عبر سلم من مئة درجة!! ولا ننسى الأبراج التي مازال بعضها يقاوم عاديات الزمن في هذا القصر أو ذاك، بعد ما انتشرت في سالف الأزمان بشكل أثار اهتمام الزائرين، جاء في

الرحلة الكبرى: «فلا ترى في الأجنة [أي البساتين] والداشر إلا الأبراج، كأنها منارات يتسور إليها بالأدراج»(٣١).

واشتهرت فجيج بمآثر من نوع آخر تتجلى في عادات أهلها وتقاليدهم خلال المناسبات والمواسم المختلفة: كالأعراس، والولادة، والعنصرة، والمولد النبوي الشريف، والأعياد الدينية...إلخ. يستتبع بعضها مظاهر غريبة أنجزت حولها دراسات جامعية، ولا يزال بعضها في طور المتابعة والإنجاز. واشتهرت فجيج أيضاً بأحباسها المتعددة، منها أحباس «أوقاف» [الحزّابة] أي حفظة القرآن الكريم الذين دأبوا منذ عدة قرون على قراءة حزبين من القرآن الكريم يومياً بعد صلاة الصبح والمغرب.

وبعد ختم القرآن الكريم في آخر كل شهر يقيمون مأدبة عشاء من الطعام (الكسكسي) الذي يفرغه المُحبِّسون في قصعة كبيرة يحضرونها إلى المسجد في آخر الشهر عند قراءة الحزب الأخير من القرآن العظيم.

زد على ذلك أحباس شهر رمضان، والمولد النبوي، وعابري السبيل، وطلبة القرآن والعلم، وأحباس البخاري إذ لا تزال العادة إلى الآن تقضي بقراءة صحيح البخاري طوال شهر رمضان في المساجد، ثم يختم بعد عصر عيد الفطر بحديث: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن...إلخ يردد الحاضرون على إثره: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، مئة مرة، ثم يُطعمون من أحباس مخصصة لذلك.. وكلها أحباس شاهدة على العمق الحضاري، والامتلاء الثقافي والديني لهذه الواحة العتيقة الخيِّرة.

إن واحة فجيج تتميز بمؤهلات سياحية حقيقية وجذابة تَعد بالكثير لو استمرت على الوجه المطلوب، ودون أن تخضع للمتغيرات الجيوسياسية: أي إن النشاط السياحي بها ما زال رهيناً بفتح الحدود مع الجزائر الشقيقة أو إغلاقها: فهي واجهة المغرب على الجيران، وإحدى بواباته المنفتحة على إفريقية، يمكن للزوار أن يجدوا في أحضانها ما يروح عن أنفسهم فيستمتعوا بطبيعتها الساحرة، وبحيرات نخيلها السخية الآسرة، وشمسها الوهاجة، ويستافوا عبق التاريخ العتيق وهم يتنقلون بين دروبها الطينية الضيقة المعتمة، أو يطردون أبصارهم خلف مآثرهم المعجبة.

ولا تنس أن تنزل ضيفاً على أحد أشهر مركزين للتداوي بالرمال إن كنت تعاني من الروماتيزم الالتهابي أو أوجاع المفاصل والعضلات أو مرض الربو، فإن الناس يقصدونها من خارج الوطن.

هذه هي واحة فجيج التي تغط الآن في نوم قسري عميق، وقد بسط الإجحاف يديه السوداوين على عينيها اللألاءتين، ولولا أن لها جذوراً تمتد إلى أصول ثقافية وحضارية بعيدة المدى لاستلب نورها الذي يستمد منه المتصوفون الغارقون في حبها أحاسيسهم الفياضة، فلنرددوا مع هؤلاء:

أنا من فجيج منيتي أن أرى بها
سَجيسَ الليالي أو تشقَّ ضرائحي
أنا في هواك ابن الملوح حائر
وفي سنم الجوزاء قدرك لامحي
صفوها بما شئتم فإني عشيقها
وأستعذب الأوصاب درءاً لنابح
لأنك في طي الشغاف مصونة
وسرك معقود بحبل بوارحي
وأنت على عيني.. ورأسي.. ومذربي
وأنت شفاء بلسم لمجارحي
فنعمَ صباح الهائمين بحبها
وساء صباح المجتوين النُّحائح

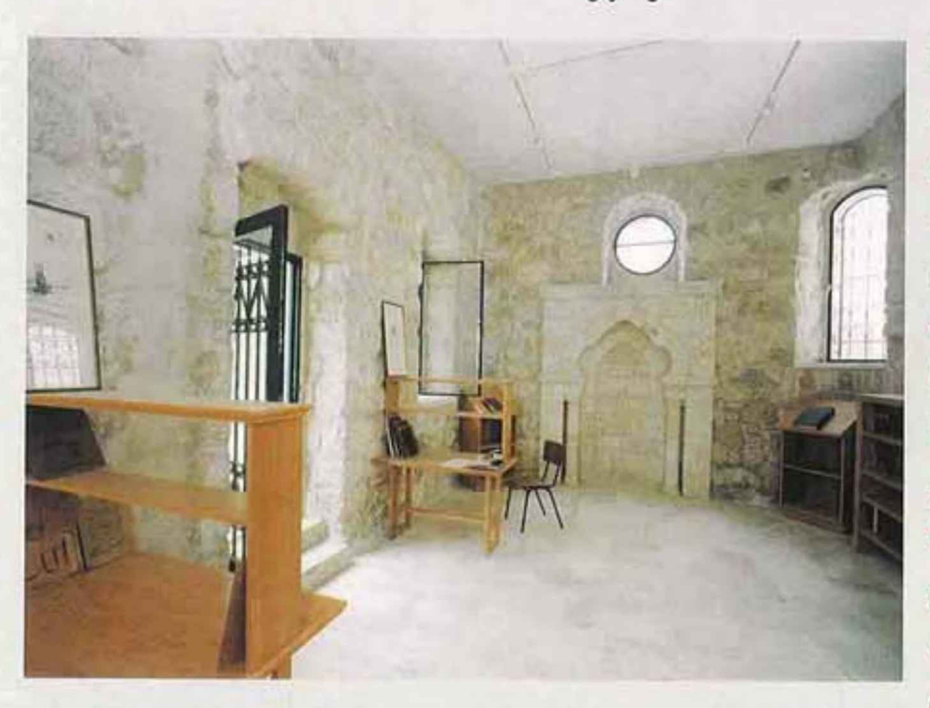
المراجع

١. ابن منظور ـ لسان العرب، مادة (فجج).
٢. مجهول ـ الاستبصار في عجائب الأمصار ص١٧٩، نشر وتعليق: د.سعد زغلول عبدالحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.
٣. ابن خلدون، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب ص١٥٢ ـ ١٥٣ (وهو القسم الآخر من التاريخ الكبير المسمى كتاب العبر ـ ط/ الجزائر ١٨٤٧م).
٤. أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى ص١٥ (تحقيق عبدالكريم الفيلالي، مطبعة فضالة ـ المحمدية ١٩٦١م).
٥. شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقية الشمالية ص ٦٠ (تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، دار التقدم، موسكو، دون تاريخ).
٦. جماعة من الباحثين، مذكرات فن التراث المغربي، جـ١ ص ٢٨١.
٧. العربي هلالي، فجيج تاريخ وثائق ومعالم الصومعة الحجرية والمسجد العتيق، ص٢١ (المطابع المغربية والدولية ـ طنجة ١٩٨١م).
٨. محمد بوزيان بنعلي، واحة فكيك تاريخ وأعلام، ص٣٧ (مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء ١٩٨٧م).
٩. شارل أندريه جوليان ـ مرجع سابق جـ٢، ص٢٢٢.
١٠. أحمد مزيان، فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي، مطبعة فجر السعادة، الدار البيضاء ١٩٨٨م.
١١. محمد بوزيان بنعلي، مرجع سابق، ص٤٣ وما بعدها.
١٢. نفسه، ص٥٥.
١٣. أبو العباس أحمد بن ناصر، الرحلة الناصرية جـ١، ص١٠٩، المطبعة الفاسية ١٣٢٠هـ.
14 - Ann Levinck - L'oasis de Figuig - revre de geographie. T 16 p 23.
١٥. الحسن بن محمد الوزان «ليون الإفريقي، وصف إفريقية»، جـ٢ ص١٣٢، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط١، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ١٩٨٢م.
١٦. أبو مدين الدرعي، رحلة الدرعي، ص٦٢، «مخطوط الخزانة العامة» ـ الرباط: ق٢٩٧.
١٧. أحمد بن محمد الهشتوكي، هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام، ص١١٠ «مخطوط الخزانة العامة» الرباط: ص١٩٠.
١٨. الحسن بن محمد الوزان، مرجع سابق، ن.ص.
١٩. آن ليفينك، مرجع سابق، ن.ص.
٢٠. محمد بن عبدالسلام بن ناصر، الرحلة الكبرى ص٦٧، «مخطوط الخزانة العامة» الرباط: د ٢٣٢٧.
٢١. العربي هلالي، مرجع سابق، ص١٨.
٢٢. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، جـ٥ ص١٣٦، ط ١٩٩٥م.
٢٣. أحمد بن محمد الهشتوكي، مرجع سابق، ن.ص.
٢٤. محمد بن عبدالسلام بن ناصر، مصدر سابق، ن.ص.
٢٥. محمد بو زيان بنعلي، مرجع سابق، ص١٦٣ ـ ١٦٤.
٢٦. محمد بوزيان بنعلي، فجيج رجالات الفكر والأدب بين العصرين المريني والعلوي، ص٨٤ وما بعدها، مطبعة الجسور ـ وجدة ط/٢٠٠٠م.
٢٧. القصيدة تقع في ٢١٤ بيتاً من الطويل، وتوجد نسخة مصورة منها في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ـ السعودية، تحت رقم:٤٤٨٠.
٢٨. د. محمد عابد الجابري، حفريات في الذاكرة، ص٢٦.
٢٩. ابن الوزان الفاسي، مرجع سابق، جـ٢ ص١٣٢.
٣٠. عن الصومعة الحجرية راجع: العربي هلالي ـ مرجع سابق ص ٧٩ وما بعدها.
٣١. محمد بن عبدالسلام بن ناصر، مصدر سابق، ص٦٨.

المكتبة الخالدية في فلسطين

كنز مخبوء

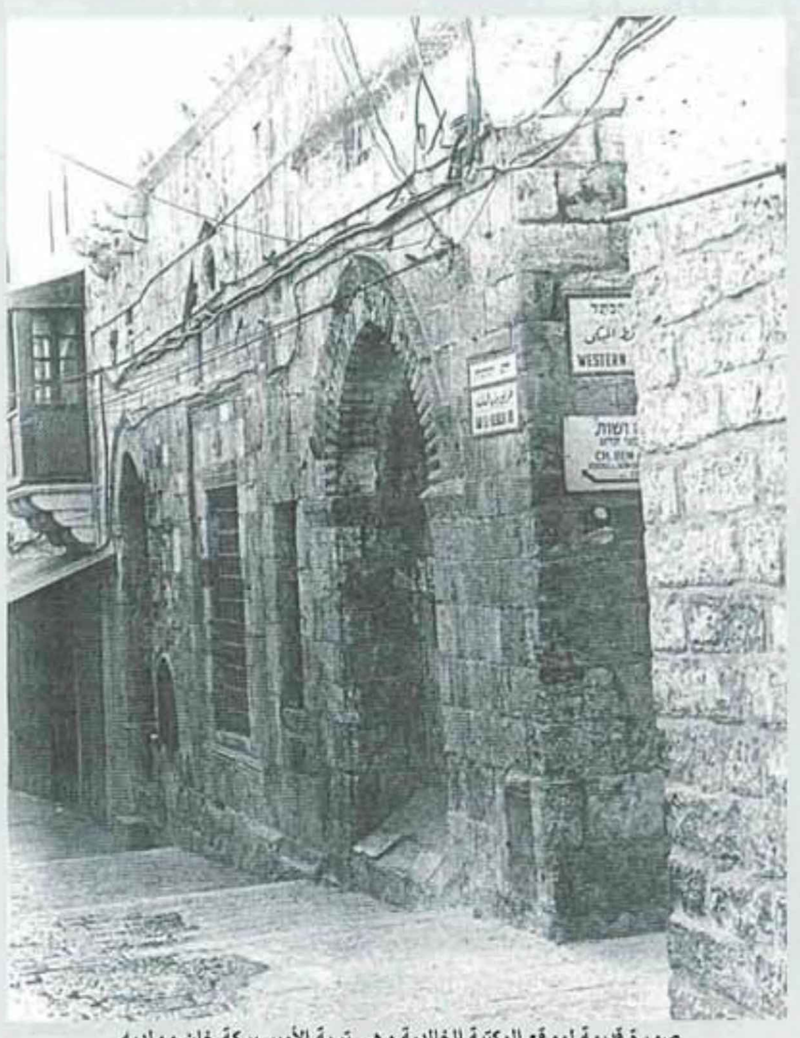
إياد أحمد الغوج
عمان - الأردن



كتب غير واحد عن المكتبة الخالدية، شرقًا وغربًا، كالأستاذ محمد كرد علي، والأستاذ عبدالله مخلص، والأستاذ أسعد طلس، والدكتور العسلي، و A.G. Walls الإنجليزي، وجاكلين عجمي، ومحمد هاشم غوشة، وغيرهم. فليست هذه المكتبة بالمكتبة المغمورة التي تحتاج إلى من يعرِّفها، ولكن يأتي هذا المقال اليوم ليلقي الضوء على بعض المعلومات المهمة، ويبيّن زيف بعض الأوهام التي شاعت حول هذه المكتبة، كموضوع ضياع كثير من مخطوطاتها النادرة، أو سرقتها، وعلاقة هذه المكتبة بمكتبة الأستاذ خليل الخالدي، بالإضافة إلى ذكر ما واجهته هذه المكتبة من خطر استيلاء الصهاينة عليها، ولا نغفل تعريف القارئ الكريم بطرف من تاريخها، والأطوار التي مرت بها، وما هي عليه الآن.

كل هذا من خلال ما كُتب حول هذه المكتبة، ومن خلال لقاء ماتع مع الأستاذ كامل حيدر الخالدي، قيِّم الخالدية، والمتولي الحالي لأوقاف الخالديين.

منذ زمن غير قليل واسم المكتبة الخالدية يطرق سمعي، مرتبطًا بذكر نوادر الكتب والمخطوطات في العلوم المختلفة. وكان أول ما جذبني للعناية بها ما كان يذكر عن مجموعة نادرة كلها بخط الإمام تقي الدين السبكي (ت: ٧٥٦هـ) وصفها غير واحد من العلماء، ومنهم المحدث الشهير الرحال السيد عبد الحي الكتاني، فقد وصفها بأنها «مجموعة قيِّمة لا ثمن لها، من النفاسة



صورة قديمة لموقع المكتبة الخالدية وهي تربة الأمير بركة خان وولديه

بمكان»(١). ثم ذكر الدكتور المنجد من محتوياتها أشياء منها: فتاوى ابن قاضي عجلون (ت:٩٢٨هـ) بخطه، ونسخة من كشف المناهج والتناقيح للصدر المناوي (ت: ٨٠٣هـ) مكتوبة في زمن مؤلفها، وغير ذلك.

ثم لاحظت بعد ذلك كثيراً من الباحثين يعتنون بالنقل من نسخة «رونق الألفاظ» لسبط ابن حجر يوسف بن شاهين (ت:٨٩٩هـ)، وعليها خط الحافظ المتقن ابن قُطلُوبغا (ت:٨٧٩هـ) التي صورها معهد المخطوطات بالقاهرة عن الخالدية، إلى غير ذلك مما كان يذكي فيّ الشوق دوماً للاطلاع على هذه المكتبة وما حوته من نفائس الأعلاق، فرُحتُ أسأل الباحثين والمتخصصين في مجال المخطوطات عنها، بالأخص أهل القدس الشريف، ولكن شيئاً من ذلك لم يشف غليلي، حتى ساقتني الأقدار إلى من يخبرني بأن قيّم هذه المكتبة مقيم في هذه المدينة نفسها، التي أعيش فيها - عمّان - فهُرعت أبحث عنه حتى قابلته، فلقيني بمنتهى الترحاب والذوق، وبدأنا حديثاً في غاية المتعة عن الخالدية وتاريخها، ورحت أسأله بشغف عن كل ما كان يدور بخلدي حولها، وهو يجيب ويشرح كأن الخالدية بحاليها بين يدي! ولم يضنّ عليّ بأي معلومة سألته عنها، وزودني - بكل سخاوة نفس - بكل أشياء لم تُنشر حول هذه المكتبة.

نظرة في تاريخ الخالدية

يبدأ غير واحد ممن كتب عن الخالدية بتأريخ تأسيسها في عام ١٩٠٠م، حين بدأ نشاط الشيخ الجليل راغب الخالدي في خدمة المكتبة، ولكن الحقيقة أن المكتبة تعود إلى تاريخ يسبق هذا التاريخ بأكثر من ١٢٠ عاماً! إذ يعود تاريخ المكتبة إلى عام (١٢٠١هـ/ ١٧٨٠م) حين أوقف الحاج محمد صنع الله ابن الشيخ محمد صنع الله الخالدي الديري العبسي وزوجته السيدة طرفندة خاتون ابنة الشيخ نجم الدين الخيري المفتي بالقدس مجموعة من الكتب والمخطوطات تزيد على ٥٠٠ كتاب في وقفية مسجلة بالمحكمة الشرعية بالقدس مؤرخة بتاريخ أواسط شهر ربيع الآخر سنة ١٢٠١هـ.

وفي سنة ١٣٠٤هـ - ١٨٨٦م باشر روحي ياسين الخالدي بتأسيس مكتبة عائلية من خلال تجميع المخطوطات والكتب القديمة التي كانت ضمن مكتبة الجد الواقف.

وهنا بالفعل بدأ نشاط الشيخ الحاج راغب الخالدي (١٨٦٦ - ١٩٥٢م) - أحد أعيان القدس ورئيس محكمة الاستئناف الشرعية فيها آنذاك - الذي اختار موقع المكتبة الحالي، وذلك بعون من والدته خديجة بنت

موسى أفندي الخالدي - قاضي عسكر بر الأناضول - حيث قامت بتوفير الأموال اللازمة لترميم البناء وتجديده، كما أوقفت على المكتبة حصتها في حمام العين - وسيأتي ذكره - ليصرف من ريعها على إدارة شؤون المكتبة. وساهم في ذلك أيضاً الحاج ياسين الخالدي، وتبرع غير واحد من العائلة بتقديم مجموعات من الكتب والمخطوطات القيمة لتضم إلى المكتبة، مثل كتب السيد يوسف ضياء باشا الخالدي وروحي بك، وأحمد بدوي بك، ونظيف بك، وافتتحت المكتبة رسمياً سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م(٢).

أما موقع المكتبة في طريق باب السلسلة فهو تربة مملوكية قديمة أنشئت في القرن السابع، يرقد فيها الأمير المجاهد حسام الدين بركة خان ملك الأمراء (ت:٦٤٤هـ)، وولداه حسام الدين كره بك (ت:٦٦١هـ)، وبدر الدين محمد بك (ت:٦٧٨هـ) رحمهم الله تعالى، وفي صحن هذا المبنى الأثري العريق تقع المكتبة الخالدية. وقد جدد مبنى هذه التربة في سنة ٧٩٢هـ على يد محمد بن أحمد العلائي حفيد بدر الدين محمد بك المذكور، وأضاف إليها سبيل ماء لا يزال إلى الآن قائماً عند مدخل المكتبة الخالدية(٣).

وما كادت المكتبة تظهر إلى الوجود حتى أقبل إلى القدس العلامة الشيخ طاهر الجزائري منفياً من دمشق بأمر من السلطنة العثمانية، وكان الجزائري مغرماً بالمخطوطات، وخبيراً بالكتب، فساعد صديقه الحاج راغباً في ترتيب محتوياتها وتبويبها.

وسار الحاج راغب بهمة عالية في خدمة هذه المكتبة، فسعى إلى إنشاء أوقاف خاصة بها تضمن نجاحها في المستقبل(٤)، وكان من ضمن هذه الأوقاف حمام العين، أشهر حمامات القدس في القرن الأخير كما يقول الدكتور العسلي - رحمه الله - الذي تكلم بتوسع على هذا الحمام في كتابه «من آثارنا في بيت المقدس» ص١٩١ - ٢٠٠.

تولى بعد ذلك إدارة المكتبة الشيخ محمد أمين الدنف الأنصاري - الذي يصفه الباحث محمد غوشة بأنه آخر الورّاقين في بيت المقدس -، وبقي على ذلك زهاء نصف قرن حتى وفاته آخر الخمسينيات، وبقي مفتاح المكتبة في عهدة ولده، حتى تولى أمرها في عام ١٩٦٧م السيد حيدر الخالدي بوصفه قائماً بأعمال متولي أوقاف آل الخالدي في القدس، وكان يشرف على المكتبة خلال تلك المدة السابقة قبل السيد حيدر السيد أحمد سامح الخالدي، رحمه الله تعالى، ثم الدكتور حسين فخري الخالدي وولده عادل. وقد قام عادل وقريبه راغب حسن شكري الخالدي بإعداد «برنامج المكتبة الخالدية العمومية» الذي يحتوي على سجل بما تحتويه المكتبة، ونشر عام ١٩٨٠م. وبعد وفاة السيد حيدر الخالدي



المكتبة بعد التجديد، ويظهر الدرج الحديدي الذي يقود إلى مكان حفظ المخطوطات

رحمه الله تعالى عام ١٩٩٣م قام ولده الأستاذ كامل الخالدي - حفظه الله - بخدمة المكتبة وإدارتها حتى اليوم.

هذه باختصار قصة المكتبة منذ نشأتها إلى هذا اليوم كما يرويها الأستاذ كامل، وكما هي عند غير واحد ممن كتب عن الخالدية.

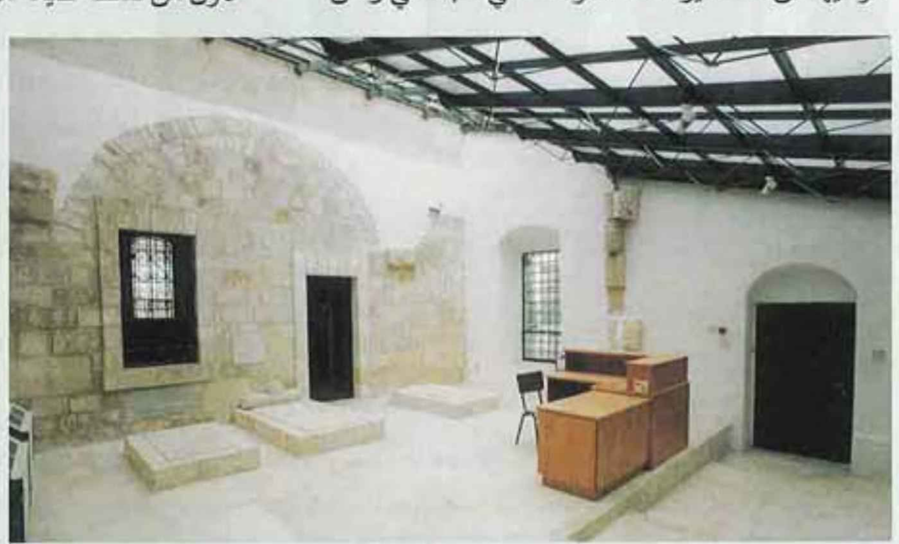
وقد وهم الأستاذ نجاتي صدقي(٥) وغيره في قولهم بأن الفقيه الرحالة الشيخ خليلاً الخالدي - توفي سنة ١٣٦٠هـ - هو مؤسس المكتبة الخالدية هذه، بل قصة التأسيس هي كما سبق ذكره، أما الشيخ خليل الخالدي فله مكتبة خاصة نفيسة كذلك - نقلت كلها إلى مكتبة المسجد الأقصى الشريف، وقد طالعت عدداً من كتب الشيخ الخالدي تلك بمكتبة الأقصى

وعليها خطه وتملكه، وأورد هنا نماذج من تلك التملكات والخطوط.

فليس الشيخ خليل هو مؤسس الخالدية، ولا كتبه مما حوت الخالدية. والشيخ خليل الخالدي - بمناسبة ذكره - كان من أوسع الناس اطلاعاً على الكتب المخطوطة، آية في استحضارها والكلام عليها، قبلة لمن يلتمس خبراً عن كتاب سمع باسمه ولا يدري أمطبوع هو أم مخطوط أم مفقود؟!.. لذا تأسف العلماء آنذاك كثيراً لوفاته، ولم يكن لهم عزاء إلا في الإمام محمد زاهد الكوثري، رحمه الله تعالى، لما عرف من باع طويل في هذا المجال(٦)

نفائس الخالدية

يكمن تفرد الخالدية من بين مكتبات فلسطين في أنها حوت عدداً كبيراً من المخطوطات التي كتبت بخطوط مؤلفيها من مشاهير العلماء، وتلك التي كتبت في زمان



التربة وسقفها بعد التجديد. وتظهر فيها كذلك قبور الأمراء الثلاثة

مؤلفيها، أو بعده بعناية خاصة، أو من النسخ المذهبة الأنيقة المستخدم فيها عدة ألوان مختلفة من الحبر، إلى غير ذلك من أوجه نفاسة الكتاب المخطوط.

وقد سبقت الإشارة في بداية هذه المقالة إلى بعض تلك النفائس، ونذكر بالإضافة إليها - على سبيل التمثيل -: نسخة قديمة من مقامات القاسم بن علي الحريري (ت:٥١٦هـ)، وكتاب شاناق في السموم والترياق - هكذا صار اسمه بعد تعريبه زمن العباسيين - لشاناق الهندي الطبيب، وهي نسخة أيوبية في منتهى الجمال، ومسودة شرح سيرة ابن سيد الناس (ت: ٧٣٤هـ) للعز محمد بن أبي بكر بن جماعة (ت:٨١٩هـ) بخطه، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير بخط ابن أخيه سنة ٦٩٢هـ، وتعاليق على الخصائص النبوية لابن الهائم (ت:٧٩٨هـ) بخطه وحاشية للخير الرملي على «جامع الفصولين» لابن قاضي سماونة (ت:٨٢٣هـ) بخط ولد المحشي نجم الدين، وإشارات الأسرار لركن الدين الكرماني كتبت في حياته سنة ٥٣٢هـ، وروضة الرائض في علم الفرائض ومجامعي فوائد كلاهما للتاج ابن عربشاه العثماني (ت:٩٠١هـ) بخطه، وشرح جواهر الذخائر للبدر الغزي (ت:٩٨٤هـ) مفتي دمشق في زمانه، بخطه، وكتاباً في الصرف لابن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ) مكتوباً في زمانه ومن نسخته، والجزء الأول من نسخة قديمة من كتاب النوادر لابن الأعرابي (ت:٢٣١هـ)، ونسخة قديمة من سيرة الحافظ عبدالغني المقدسي (ت:٦٠٠هـ) المسماة بالدرة المضية في السيرة النبوية، وقصص الأنبياء للمؤرخ ابن أبي عُذيبة (ت:٨٥٦هـ) بخطه، والطبقات السنية في تراجم الحنفية للتقي التميمي عليها خطه، ومجموعة فوائد في التاريخ والأدب بخط جامعها المؤرخ المشهور العلاء ابن خطيب الناصرية الحلبي، ونموذج العلوم لشمس الفناري، كتب في حياته، وإيضاح الإشكال فيمن أبهم اسمه من النساء والرجال للحافظ ابن طاهر القيسراني (ت: ٥٠٧هـ)، وارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد للحافظ السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) وعليه خطه. بل حوت المكتبة كتاباً في الفقه المالكي يعود إلى سنة ١٤١٨هـ، وهذا غاية في الندرة.

وقد صنف د. كونراد(٧) أفضل مخطوطات المكتبة بحسب زمان كتابتها كالآتي:

القرن الهجري الذي كتبت فيه المخطوطة	عدد المخطوطات
القرن الخامس	١
القرن السادس	٤
القرن السابع	١٦
القرن الثامن	١٨
القرن التاسع	٢٣
القرن العاشر	٣٨
القرن الحادي عشر	٤٩
القرن الثاني عشر	١٠٢
القرن الثالث عشر	٣٨
القرن الرابع عشر	٤

وقد حوت إلى جانب ذلك عدداً من تأليف علماء القدس وأئمتها كالشيخ محمد التافلاتي وغيره، وكذلك بعض المؤلفات والمكتوبات والرسائل الخاصة لعدد من آل الخالدي من أهل العلم، مثل يوسف ضياء وروحي بك، وغيرهما. وبها كذلك بعض المصاحف، منها مصحف مذهب في غاية الجمال يعود تاريخه إلى العهود الأولى من الفترة العثمانية، يضاف إلى ذلك عدة كتب بالفارسية والتركية، ومجموعة من الوثائق العثمانية.

وقد وصف أكثر من باحث أشياء اختارها من مخطوطات الخالدية، كمحمد كرد علي، وعبدالله مخلص، وأسعد طلس، وغيرهم، ولا تكاد تجد مثل هذه النوادر في أي من خزائن فلسطين كلها، حتى في خزانة المسجد الأقصى المبارك، فهي فعلاً كما وصفتها جاكلين عجمي بأنها «كنزٌ مخبوء»(٨).

أما مطبوعات الخالدية فأكثرها قبل عام ١٩٠٠م، وكثير منها هو الطبعة الأولى للكتاب، أما موضوعاتها فمختلفة، فتجد فيها الأدب والطب والتاريخ وغيرها، ومنها ما هو بالإنجليزية، والفرنسية، وبها نسخ من الإنجيل باللغتين العربية والإنجليزية.

وللمكتبة فهرس طبع إبان تأسيسها، إلا أنه غير شامل لمحتوياتها، ولا يعنى بالوصف الدقيق لما حواه، وقد شارف الدكتور نظمي الجعبة، وفقه الله، على الانتهاء من الفهرس التفصيلي لمحتويات الخالدية، وستقوم مؤسسة الفرقان بلندن بطباعة هذا الفهرس في الآونة القريبة إن شاء الله تعالى.

هل فقد أو سرق شيء من نوادر الخالدية؟

طرحتُ هذا السؤال على الأستاذ كامل الخالدي وكلّي أسًى، لأن هذا الأمر أكّده لي بعض من يوثق بهم في هذا المجال، فإذ بي أفاجأ بأن الجواب: لا! لم يفقد شيء من محتوياتها. ولم أستطع أن أخفي فرحتي الغامرة عندما سمعت هذه الكلمات! ثم راح الأستاذ كامل يقص عليّ قصة من أطرف ما يُسمع عن سبب هذا الاعتقاد الذي عند البعض حول الخالدية، ذلك أن غير واحد قد وصفوا عدة أشياء من نفائس الخالدية كما قدمنا، وعندما جاء المرحوم الدكتور كامل العسلي


باب التربة وشباكها قبل الترميم، ويلاحظ أنها غير مسقوفة

ليكتب عن الخالدية وجد أن كثيراً من تلك النفائس التي وصفها مخلص وغيره غير موجودة في سجل المكتبة الذي أعد في عام ١٩٦٧م! ثم لفت نظره أعلى عدد سجل لمحتويات الخالدية، وهو اثنا عشر ألف كتاب بين مخطوط ومطبوع اعتماداً على كراس نشره مدير الآثار بحكومة فلسطين عام ١٩٤٥م، بينما عندما عاين سجل المكتبة وجدها لا تزيد على ستة آلاف بين مطبوع ومخطوط! وهو نقصان مذهل

بالنسبة إلى العدد السابق، كل هذا دفع الدكتور العسلي إلى الاعتقاد بفقدان كمية هائلة من كتب الخالدية، وقد شاعت هذه الفكرة بين عدد من الناس(٩). وقد مشى قبله على أن ما في المكتبة هو ١٢٠٠٠ كتاب A.G. Walls في دراسته الأثرية عن مبنى «تربة بركان خان أو المكتبة الخالدية» المنشور في مجلة Levant(١٠)، وهو عالم آثار، وليس متخصصًا في دراسة المخطوطات، فجاء هذا الرقم ثانويًا في دراسته دون بحث أو تمحيص.

ومن الطبيعي أن يصل الدكتور العسلي إلى هذه النتيجة لولا أمران، الأول كان ينبغي أن يلاحظ، والثاني هو سر الطرافة في هذه القصة. أما الأول: فهو أن المكتبة بما حوته من أرففها المئة والتسعة والعشرين رفًا - التي تملأ مكان المكتبة كاملاً حتى السقف القديم - لا تتسع لمثل هذا العدد الذي ذكره من الكتب وهو ١٢٠٠٠ كتاب، بل تمكن الملاحظة بسهولة أن الأماكن المخصصة للكتب أكثرها مشغولة بمحتوياتها، وقد ذكر د. كونراد هذا التقدير بقوله: إن الحيز المقرر لهذه الكتب لا يمكن أن يحتوي على أكثر من ٥٠٠٠ كتاب وبشكل مزدحم، أما فوق ٦٠٠٠ فمستحيل.

فكيف يمكن أن تتسع المكتبة لهذا العدد الهائل مع كونها لا تكاد تتسع لشطره؟!

أما الأمر الثاني: فهو أن أحدًا من الناس لم يدر أين ذهبت تلك النوادر التي رآها مخلص وطلس ووصفاها، وبقي هذا الأمر سرًا مكتومًا حتى جاء الدكتور لورانس كونراد - الذي سبق ذكره - من Well-come institute بلندن بناءً على طلب الأسرة الخالدية لدراسة وضع المكتبة، وقد توصل خلال بحثه في تقدير محتوياتها إلى الأمر الأول كما سبق وذكرناه عنه. أما الأمر الثاني الطريف فهو أنهم تنبهوا إلى خزنة حديدية ثقيلة في إحدى زوايا غرفة القراءة كانت مغلقة منذ عهد بعيد لا يُلتفت إليها، ولم يفكر أحد من أفراد العائلة بفتحها بسبب فقد مفتاحيها الكبيرين اللذين لا تفتح الخزنة إلا بهما، فقاموا عند ذلك بكسر تلك الخزنة، فإذا بهم يفاجؤون بأنها ممتلئة بالمخطوطات، وإذا بهذه المخطوطات هي أندر ما حوته الخالدية، وهي تلك التي وصفها أولئك الباحثون، ولم يعثر عليها الدكتور العسلي خلال بحثه في سجل المكتبة.

ويتابع الأستاذ كامل فيقول: والذي يظهر أن قيّم الخالدية الشيخ أمينًا الأنصاري قد خشي على محتويات المكتبة من السرقة أو الدمار أو غير ذلك من الآفات عند نشوب الحرب آنذاك في أواخر الأربعينيات، فجمع في هذه الخزنة المنيعة ما رآه أنفس محتويات المكتبة وأغلق عليها، ولم تفتح الخزنة من ذلك الوقت، ولم يعلم بما تحويه أحد من المشرفين على المكتبة بعده.



المدخل القديم للمكتبة الخالدية

ويجزم الدكتور كونراد بأن هذا الإغلاق كان قبل عام ١٩٦٧م، ويقول بأنه لا يستبعد أن يعود ذلك أيضًا إلى عام ١٩٤٨م. وبذلك حُلّ لغز اختفاء تلك المخطوطات.

وكم كان سروري بالغًا وأنا أستمع إلى الأستاذ كامل وهو يروي هذه القصة الطريفة، ثم جاء شاهدًا لهذه القصة أنني سألته عن المجموع الذي بخط شيخ الإسلام تقي الدين السبكي، فلما راجع ما لديه من تقييدات أخبرني أنه موجود ومرمَّمٌ وبحالة جيدة، وأنهم صوروه على الميكروفيلم، فتضاعف سروري بذلك جدًا، وقد حصلتُ عليه منه بعد ذلك بفضل الله تعالى.

ويضاف إلى ما سبق أيضًا أن عددًا من المخطوطات التي أكثرها ليس بنادر، وفيها كثير من المفرقات (الدشت) كانت ملفوفة ببعض الجرائد



الشباك وتظهر فوقه النقوش وإلى أقصى اليسار مدخل المكتبة بعد التجديد

بجاه سيد الورى الشفيع   محمد ذي المجد الرفيع
صلى عليه ربنا عز وجل   والآل ما لاح نجم أو أفل

تم كتاب مورد الظمآن مع إصلاح بعض أبياته وذيله المسمى الإعلان بتكميل مورد الظمآن كل ذلك على يد كاتبه الفقير إلى عفو الله ورحمته خليل بن بدر بن مصطفى بن خليل بن محمد بن خليل بن صنع الله بن خليل الخالدي الديري المقدسي غفر الله لهم في تاسع شهر رمضان المبارك من سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وألف أحسن الله عاقبتها وذلك بالمشيخة الإسلامية بالقسطنطينية العظمى صانها الله وسائر بلاد الإسلام وقد صححت هذه النسخة لفظا وإعرابا ورسما حسب الجهد والطاقة على شرح وإعراب العلامة الفقيه الورع الزاهد ابن عاشر الأندلسي الفاسي مع مراجعة عدة من المصاحف الشريفة المعتنى برسمها غاية الاعتناء [illegible] والحمد لله نسخة صحيحة يعتمد ويعول عليها فالمرجو من الناظر فيها أن لا يسارع في إصلاح خطأ رآه فيها إلا بعد طول تأمل وتثبت وإذا تحقق لديه ذلك فلا يتعرض إلى الصلب بل يبقيه على حاله ويشير إلى ذلك الخطأ في الهامش وبالله تعالى التوفيق

كتاب الإعلان بتكميل مورد الظمآن، منظومة للإمام ابن عاشر المالكي، كلها بخط الشيخ خليل الخالدي وضبطه ومقابلته رحمه الله تعالى

وملقاة في أعلى السدة الخشبية القديمة لغرفة القراءة.

كما يدل على ما ذكر أيضاً أن الأستاذ عبدالله مخلص لما زار الخالدية في عام ١٩١٧م وطالع عدداً من نفائسها أخبره قيِّمها الشيخ أمين الأنصاري أن محتوى المكتبة هو ٤٠٠٠ مجلد ثلثها تقريباً مخطوط. وكذلك في قائمة غير تامة أعدها السيد حيدر الخالدي ـ متولي الوقف آنذاك ـ ١٩٦٧م كان تعداد ما في المكتبة ٤٨١٦ مجلداً ليس منها ما وصفه مخلص وطلس.

فلا شك بعد هذا كله أن الأعداد التي ذكرت عن محتويات الخالدية مثل ١٢،٠٠٠ و١٠،٠٠٠ كتاب لا أصل لها في الحقيقة، وإذا تتبعنا إحصاءات محتويات المكتبة التي ذكرها الدكتور العسلي ص ٣٨٤ فهي: ١٣١٨كتاباً في عام ١٩٠٠، وفي عام ١٩٢٨م بلغت ٤٠٠٠ كتاب ثلثها مخطوط، ثم في عام ١٩٣٦م بلغت ٧٠٠٠ كتاب ثلثها مخطوط، أما في عام ١٩٤٥م فنقلاً عن كراس نشره مدير الآثار بحكومة فلسطين قدر ما فيها بـ ١٢،٠٠٠ كتاب! سواء بالعربية أو غيرها، ومن هنا بدأت المشكلة، ثم عاد الدكتور العسلي إلى سجل الخالدية فإذا ما فيه لا يتجاوز ستة آلاف كتاب، وهو بالتحديد ٥٩٠٤ كتاب ومخطوط.

ومن الواضح أن التسلسل منطقي في هذه الأعداد ـ على افتراض وجود مبالغة في سبعة الآلاف، لكنه تقدير قريب نوعاً ما ـ إلا أن العدد (١٢،٠٠٠) لا شك هو محض وهم وخطأ لما سبق من الأدلة.

إذن، فالخالدية لا تزال محفوظة تماماً، ولم تتعرض لا إلى السرقة، ولا إلى النهب، ولا إلى الضياع كما يظن بعضهم، وقد أكد لي ذلك أيضاً مفهرس الخالدية حالياً الدكتور نظمي الجعبة، سلمه الله، في اتصال هاتفي لي معه.

جهود الخالديين في الحفاظ على المكتبة الخالدية

أبدى الدكتور كامل العسلي رحمه الله مخاوفه على المكتبة الخالدية من براثن الصهاينة عندما ذكر له قيِّمها السيد حيدر الخالدي أن سلطات الاحتلال حاولت مصادرة الدار التي فيها المكتبة، وأنه اضطر لهذا السبب إلى مراجعة السلطات الإسرائيلية لكون هذه الدار من أملاك وقف آل الخالدي، فأُلغي أمر المصادرة. هذا ما يقوله الدكتور العسلي في عام ١٩٨١م(١١).

وقد أكمل لي الأستاذ كامل ـ نجل السيد حيدر الخالدي ـ سير الأحداث بعد ذلك، فقال: إن الصهاينة عادوا واستولوا على الطابق الأعلى للمبنى ـ فوق المكتبة ـ واتخذوا منه مدرسة دينية ـ وهي المسماة عندهم: (ياشيفا) ـ، وبقيت المكتبة بيد الخالديين، وكان هؤلاء اليهود ـ المتدينون! ـ يلقون بقمامتهم في ساحة المكتبة عمداً، ثم تمادوا في وقاحتهم بعد ذلك فادعوا

ملكيـة المبـنى كله لهم مما اضطر الخالديين إلى اللجـوء إلى المحكمة، واستمرت القـضـية في المحكمة بين الأخـذ والرد من عـام ١٩٨٤م إلى أواخر عام ١٩٨٧م، وانتهت ـ ولله الحمـد ـ بالحكم للخالديين بالملكية، فبقيت المكتبـة منذ ذلك الحين إلى اليوم في أمان.

وقـد قـامت الأسـرة الخـالدية ـ بمبادرة الأستاذ وليد أحمـد سامح الخالدي، وبإشراف قيِّمها الأستاذ كـامل وشقيقتـه هيفـاء ـ بجهود متـميـزة في الحـفـاظ على تراث عـائلتـهم، فـقـامـوا بتـجـديد مـبنى المكتـبـة وترمـيـمــه، بما في ذلك نوافـذها، ونـقـوشـهـا القـديمة، ولوحتـها الخارجيـة، وصنعـوا سقفًا للساحـة التي يرقد فيهـا الأمراء الثلاثة، مع تجديد المبنى على أضـرحتهم، ثم قاموا باستبدال طابق حديث مستقل يُصعد إليه بدرج خـاص حـفظت فـيـه المخطوطات بالسـقف القرمـيـدي القديم للمكتـبة، كـمـا زودوا هذا المكان بمكيفات تحـفظ درجـة الحـرارة، وقـامـوا بوضـع أثـاث جـديد وأنيق، كأرفف للكتب، وطاولات ومـقاعد للمطالعـة، مع تجديد الإنارة بـشكل حــديث، ونـظام لمكافـحــة الحــريق والاتصـالات والأمن، جـمـيعـهـا من أحـدث الأصناف وأنسبها مع تزويد المكتـبة بآلة تـصوير Photocopier وقارئـة أفلام Microfilm Reader - Printer وجهـاز كمبيوتر وفاكس.

فـضـلاً عمـا قـامـوا بـه ـ ويقـومـون ـ من ترمـيم الكتب وتجليــدهـا من مـطبـــوعـــة ومـخـطـوطة، والعناية الفـائقـة بالحفـاظ عليهـا، وإفادة القـاصدين إليهم بكل أريحية وسهولة.



شباك التربة قبل الترميم

ومما سـاعد على ذلك إنشاؤهم «جمعـية أصدقـاء المكتـبة الخالدية في القدس» عام ١٩٨١م المسجلة في الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة، والتي اسـتطاعـت تـوفـيـر تمويل قسط جـيـد من مـشـروع تـرمـيم الخالـدية بتبـرعات من الأصـدقاء والعائلة.

فكـان الخــالديون بذلـك نعم الأمناء على ذلك التـراث الثـمين، وقدوة لغيرهم من الأسر التي ترك فيـهم التالد منـهم شيئًا من ثروات العلم، فـابتلوا إما بالتـفـريط فيـه وإما بالشح بإطلاع أحـد عليه حتى أكلته الأرَضَة، أو أفسده طول الزمان.

ومع ذلك فلا تزال الخالدية بحـاجة إلى ما يغطي إتمام ترميم مخطوطاتها وتصـويرها بالميكروفيلم، وقد ذكر لي أن بدار الطفل بالقدس جهازًا للترميم ولكن لا يوجد خبير يقوم على استـخدامه، مما يهيب بكل غـيور على التراث الإسلامي أن يساهم في خـدمة هذا التراث بما يمكنه من خبرات أو تمويل.

وأخـيـرًا.. هذه هي الخـالديـة، أم خـزائن المخطوطات الخـاصـة في فلسطين، مـازالت تزهو بما فـيـهـا، وتفـتح أبوابهـا لزوارها بعناية تلك الأسرة الكريمـة، لا ينقصـهـا إلا أن تطهر الأرض التي هي عليها من الاحتلال، ولعل ذلك يكون قريبًا، والحمد لله رب العالمين.

المراجع والهوامش

١. فهرس الفهارس والأثبات ٢: ١٠٣٧.
٢. من أوراق حول تاريخ المكتبة تفضل بها علينا ـ مشكورًا ـ الأستاذ كامل الخالدي.
٣. أجدادنا في ثرى بيت المقدس للدكتور كامل العسلي ص ٧٣ ـ ٧٥.
٤. خزائن الكتب العربية في الخافقين لفيليب دي طرازي ص ١٢٤.
٥. في مقال له في رثاء العلامة أحمد سامح الخالدي رحمه الله تعالى، نشره في «رسالة الزيات (العدد ٩٥٧ سنة ١٣٧١هـ /١٩٥١م).
٦. عظماء عرفتهم للدكتور محمد رجب البيومي.
٧. في تقريره الذي أعده عن الخالدية عند زيارته لها في ١٩٨٦/٩/٢٥م.
٨. في مقالها اللطيف الذي كتبته عن الخالدية ونشر في العدد الرابع من مجلة Aramco World عام ١٩٩٣م.
٩. «معاهد العلم في بيت المقدس» للدكتور كامل العسلي ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥.
١٠. الصادرة عن The British School of Archaeology in Jerusalem, London في عددها الصادر عام ١٩٧٤م.
١١. في كتاب «معاهد العلم في بيت المقدس» ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

فواتح السور من خصوصيات القرآن

ناصر الدين بحلاق
حمص - سورية

لقد شغل المفسرون بفواتح السور من قديم، فما يخلو كتاب تفسير من التعرض لها، وغالبًا ما يأتي كلامهم فيها عند تفسير فاتحة البقرة (ألم)، إذ هي أول سورة في ترتيب المصحف، مفتتحة بالحروف. ومن الثابت أن الاهتمام بهذه الحروف المقطعة، ومحاولة الوصول إلى سرها يرجعان إلى زمن نزول القرآن، وإلى جدل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم حول الإسلام والقرآن.

ولعل اختلاف الناس فيها، وإثارة الجدل حولها، وكثرة الآراء والتخمينات والتأويلات التي لا حصر لها لبيان المراد منها، إنما ترجع إلى أنه ليس لهذه الحروف في اللغة العربية معان تدل عليها، سوى مسمياتها التي ينطق بها في الكلمات المركبة منها، وإلى أنه لم يرد من طريق صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يفصح عن سرها، ومن ثم نستطيع القول: إن هذه السرية أو غموض دلالة هذه الحروف يشكل جانبًا من جوانب خصوصية القرآن، مما جعل الذين خاضوا في الكشف عن معناها لا يدلون برأي قاطع فيها، بل يشرحون وجهة نظرهم في مدلولاتها تاركين أمر تأويلها الحقيقي إلى الله، كما أوقع غموض هذه الحروف بعضهم في تفسيرات باطنية مغلقة ومغلفة بالشطحات الصوفية والمصطلحات الغريبة التي لا تعطي صورة صادقة عن التفسير الإسلامي المعتمد لفواتح السور.

ومما يثير الدهشة - حقًا - هذا الكم الهائل من الآراء التي كتبت في معنى هذه الحروف وتفسيرها، غير أن هذه الآراء على كثرة اختلافاتها، ترجع إلى رأيين اثنين الأول: أنه لا مجال للعقل في تفسيرها وكشف سرها، والثاني: يمكن الكشف عن معناها وتلمس مقاصدها.



ابن خلدون

الرأي الأول: هي سر الله في القرآن

يرى أصحاب هذا الرأي أن هذه الحروف هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سر ينفرد الله تعالى وحده بعلمه، فلا يجب أن يتكلم فيها، ولكن يؤمن بها، وتقرأ كما جاءت، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «في كل كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور»، وروي عن علي رضي الله عنه، «أن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي»، وأجاب عامر الشعبي عندما سئل عن هذه الحروف «بأنها سر الله فلا تطلبوه»، ولا يدري أبو حاتم ماذا أراد الله عز وجل بها، ويرى أبوبكر الأنباري أن حروفًا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختبارًا من الله عز وجل وامتحانًا، فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبعد. وينهانا الربيع بن خيثم عن السؤال عنها؛ لأنها من علم الله، ولسنا بنائليه، فيقول: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون.

ويذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: «الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر»، وإلى هذا مال أكثر المفسرين، وكذلك ممن كتبوا في علوم القرآن، ولاسيما المتأخرون منهم، فالسيوطي في كتابه «الإتقان» قد بدأ الفصل الخاص بالحروف من نوع المتشابه بقوله: ومن المتشابه أوائل السور، والمختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى(١). ومن رأي الإمام الشيخ محمد عبده أن نفوض الأمر فيها إلى الله سبحانه، وأن ليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل، التي قلما يسلم مخترعها من الزلل(٢)، والجدير - بالمسلم عند الشيخ محمود شلتوت - أن يؤمن بأنها كسائر القرآن، مما أنزل الله على رسوله، وأن يؤمن بأن له في كتابه أسراراً يختص بعلمها، كما أن له في كونه أسراراً لا يعلمها سواه(٣). ولهذا يقرر أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - أن ليس من الضروري للقارئ العادي أن يشغل نفسه بالبحث فيها وفي تحقيقها؛ لأن التماس الهداية من القرآن لا يعتمد اعتماداً جوهرياً على فهمها وتعقُّل معناها(٤) . *ولا تقف ما ليس لك به علمٌ إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً* .
الإسراء:٣٦.

غير أن هذا الرأي لم يستحسنه المتكلمون، بل ذهبوا إلى إنكاره، وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق، واحتجوا بالآيات والأخبار والمعقول، أما الآيات فأربع عشرة، أثبتها فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، وقد اخترت منها قوله تعالى: *أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها*. محمد: ٢٤. أمرهم بالتدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم لما أمرهم بالتدبر فيه، وأما الأخبار، فقوله صلى الله عليه وسلم: «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي»، فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم؟ وأما المعقول فإن المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهوماً لكانت المخاطبة به عبثاً وسفهاً، وأنه لا يليق بالحكيم. ومن جهة أخرى، أن التحدي وقع بالقرآن، وما لا يكون معلوماً لا يجوز وقوع التحدي به(٥).

في مقابل هذا الاتجاه الرافض الخوض في تأول هذه الحروف؛ لأن الله استأثر بعلمها فلا مجال لمعرفتها، نجد اتجاهاً آخر يرى من الواجب أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها فكان هذا الجدل الثاني.

الرأي الثاني: اختلاف المتأولين هي أسماء لله ولغير الله

تحدث بعضهم عن هذه الحروف، وأن كل حرف منها دال على اسم من أسماء الله تعالى؛ ففي رواية عن علي رضي الله عنه، أنه كان ينادي، يا «كهيعص»، يا «حم عسق»، فإذا ثبتت هذه الرواية المشكوك بصحتها يكون رضي الله عنه قد عدَّ هذه الألفاظ دالة على أسماء ذات الله القدسية، بينما عدها ابن عباس - في إحدى الروايات عنه - ثناء من الله تعالى على نفسه، فالكاف يدل على كونه كافياً، والهاء يدل على كونه هادياً، والياء يدل على كونه حكيماً، والعين يدل على كونه عليماً أو عالماً، والصاد يدل على كونه صادقاً.

ومعنى هذا أن ابن عباس، في هذه الرواية، قد خصص كل واحد من هذه الحروف باسم معين، وهذا بخلاف رواية أخرى عنه، إذ يرى أن هذه الحروف دالة على أسماء الصفات، ففي رواية لأبي الضحى عن ابن عباس قال في (ألم): أنا الله أعلم، وفي (ألر) أنا الله أرى، وفي (ألمص) أنا الله أفصل، وإلى هذا ذهب ابن مسعود، أما الضحاك فيرى هذه الحروف دالة على أسماء الله وغير الله، وبه قال سهل بن عبدالله التُستري، فالألف من (ألم) هي من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، وحكى هذا القول أيضاً السمرقندي، ولكنه لم ينسبه إلى سهل، وجعل معناه، الله أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن الذي لا ريب فيه؛ وذلك في الآية: *الم ذلك الكتاب لا ريب فيه*. البقرة: ١-٢.(٦). ويرى محمد بن كعب القرظي أن كل واحد من هذه الحروف، يدل على صفات الأفعال، فالألف آلاؤه، يعني نعمه، واللام لطفه والميم مجده. أما سعيد بن جبير - رضي الله عنه - فيعد هذه الحروف أبعاض أسماء الله تعالى مقطعة، ولو عرف الناس تأليفها تعلموا اسم الله الأعظم، فقول الله تعالى (ألر) و(حم) و(ن) مجموعها اسم الرحمن، ولكن يبدو هذا التأويل الأخير هشاً أمام الاعتراض القائل إن هذا التأليف يتأتى في بعض الحروف، ولا نقدر على تركيبها في البواقي.



الشيخ محمد عبده

هي من أسماء القرآن أو أسماء للسور

وذهبت جماعة من أهل العلم من السلف إلى أن هذه الفواتح أسماء من أسماء القرآن كالذكر والفرقان، وهذا قول قتادة وابن جريج ومجاهد والسُدِّي، وقريب من هذا قول من قال: إن الفواتح: اسم لكل سورة ذكرت في أولها، قال الحسن: سمعت السلف يقولون: إنها أسماء السور ومفاتيحها، وذكر الحاكم الجشمي في تفسيره لمطلع سورة (ق): والصحيح أنها اسم للسورة، وهذا قول أكثر المتكلمين، كما نص على ذلك الرازي في تفسيره الكبير، ومال إلى هذا زيد بن أسلم، والحسن البصري، والقاضي عبدالجبار، وأبو علي الجبائي - في إحدى روايته عنه - كما اعتمده الخليل، وكذلك سيبويه في كتابه «الكتاب» ونقله الزمخشري عن الأكثرين في «الكشاف»، وهو الذي عليه التعويل في تفسير أبي السعود .فـ (ألم) اسم لهذه السورة، و(حم) اسم لتلك، وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز، وهكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور من غيرها، أي إن هذه الحروف أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء، وتفرق بينها، فإذا قال قائل: قرأت (ص) أو (ن) دل بذلك على ما قرأ.

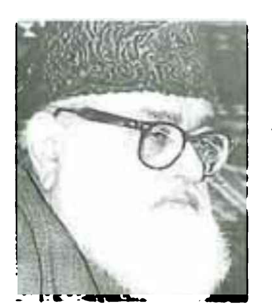
ولكن مما يحتج على هذا التأويل، ويضعف من قوة مشروعيته، ويجعله متهافتاً، أن لو كانت هذه الألفاظ أسماء للسور لوجب أن يعلم

ذلك بالتواتر، فلما لم يكن الأمر كذلك فهي ليست من أسماء القرآن أو من أسماء السور، ولربما أراد الذي أوّل ذلك مجرد التسمية بما افتتحت به السور واستهلت، وليست أسماء لها حقيقة. أما من ضعف هذا التأويل بدعوى كثرة السور التي تبدأ بحروف متشابهة مثل (ألم) التي تبدأ بها سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة، ومثل (الر) التي تبدأ بها سور يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر، هذا علاوة على الطواسين والحواميم، فلم يوفق بهذا؛ لأنه قد يقع الوفاق كما يقول الزركشي في برهانه بين اسمين لشخصين، ثم يميز بعد ذلك بصفة وقعت، كما يقال زيد وزيد، ثم يميزان بأن يقال زيد الفقيه وزيد النحوي، وكذلك إذا قرأ القارئ (ألم ذلك الكتاب) من سورة البقرة فقد ميزها من (ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم) من سورة آل عمران(٧). ولأن أسماء الأعلام منقولة للتفرقة بين المسميات، فمتى لم يرد بها معنى الأصل فهي على جهة النقل، وقد جاء في أسمائهم حارثة بن أوس بن لام، ولا خلاف بين النحويين أن كل كلمة لم تكن على معنى الأصل، فهي منقولة كقولك زيد، إذا لم ترد به الزيادة كان منقولاً إلى العلم، ولا يقال: لو أريد به التسمية لم يسم بها سوراً كثيرة، لأن هذا يتميز بما ينضم إليه فيقال: (ألم ذلك) و(ألم الله)(٨) ومن رأي الشيخ محمد عبده (الم) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به، ولا يضر وضع الاسم الواحد كـ(ألم) لعدة سور؛ لأنه من المشترك الذي يعين معناه اتصاله بمسماه وحكمة التسمية، والاختلاف في (ألم) و(ألمص) نفوض الأمر فيها إلى المسمي سبحانه وتعالى(٩).

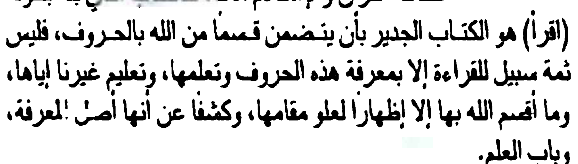
قسم من أقسام الله

أثبت ابن الجوزي في تفسيره زاد المعاد، في مطلع تفسيره لسورة البقرة، رواية لأبي صالح عن ابن عباس، وخالد الحذاء عن عكرمة، أن الله أقسم بهذه الحروف، بأن هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد هو الكتاب المنزل لا شك فيه، وذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف إذ كانت مادة البيان. وعند الأخفش أن الله تعالى أقسم بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها؛ ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وأصول كلام الأمم، بها يتعارفون ويذكرون الله ويوحدون، وهذا عين ما يراه الكلبي من أنها أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، يقول القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: إن قول الكلبي سديد صحيح؛ لأن الله تعالى أراد أن يؤكد الحجة على المكذبين، فأقسم أن القرآن من عنده(١٠) كما نوه ابن قتيبة أن القسم بهذه الحروف قد وقع في أكثر السور على القرآن فقال: (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) كأنه قال: وحروف المعجم لهو الكتاب لا ريب فيه، وقس على ذلك، فكله أقسام(١١).

ولو تأملنا منهج القرآن في القسم، فهو يقسم بأشياء تبدو لنا صغيرة الشأن، قليلة القيمة، كالتين والزيتون والخيل، وببلد كمكة، أو بالظواهر الطبيعية، كالليل والفجر والشمس والقمر، وبالرياح، وبالنجوم ومواقعها، وهو قسم يقول الله تعالى عنه: *وإنه لقسم لو تعلمون عظيم.* **الواقعة: ٧٦**، وغاية القرآن الكريم في القسم بهذه الأشياء الصغيرة الشأن، وبهذه الظواهر الطبيعية التي هي أثر من آثار قدرة الله عز وجل، أن يلفت نظر الإنسان إليها تتأمل فيها، والنظر في النظام الذي تكون جزءاً منه، ليزداد علماً وحكمة وفهماً لأحكام القرآن، ولأصول الدين لأن الدين أساسه التسليم بقدرة الله. وعند الأستاذ فتحي رضوان أن القسم بالحروف لا ينبو عن أسلوب القرآن البياني، ولا منهجه الفكري، بل ينسق معهما ويتفق. فهذا الكتاب المنزل يتكون من ألفاظ وهي بدورها تتكون من حروف، والدعوة إلى تأمل الأشياء الصغيرة التي هي أصل الأشياء الكبيرة هي رسالة الإسلام العقلية والروحية معاً، وما أكثر الآيات التي تتحدث عن الذرة، وتلفت النظر إليها! فليس عند الله شيء حقير مهما صغر، ولا يخرج عن نظامه أمر مهما بدا تافهاً! فهذه الأحرف التي تنشأ منها الجمل، وهي علامات لأصوات تصدر عن الإنسان قادرة على أن تنقل الفكر من رأس إلى رأس، ثم من مكان إلى مكان، ثم من زمان إلى زمان، ثم من أمة إلى أمة، فإذا هي أداة خطيرة وفعالة، وليست كما تبدو علامات لا قيمة لها ولا وزن، وهي جديرة بأن تدعونا إلى التفكر فيمن خلق لنا هذه الحروف وأجراها على ألسنتنا، وجعلنا قادرين على التخاطب بها، فإذا كان الله هو الذي تفضل علينا بهذا كله، فهذا الخالق العظيم، يقسم لنا بهذه الحروف الصغيرة، علماً أن هذا القرآن المنزل من عنده، قد كوّن من هذه الأحرف(١٢). فالقسم بالحروف في القرآن هو مظهر من أجل وأكبر مظاهر عظمة القرآن والإسلام معاً، فالكتاب الذي بدأ بقوله (اقرأ) هو الكتاب الجدير بأن يتضمن قسماً من الله بالحروف، فليس ثمة سبيل للقراءة إلا بمعرفة هذه الحروف وتعلمها، وتعليم غيرنا إياها، وما أقسم الله بها إلا إظهاراً لعلو مقامها، وكشفاً عن أنها أصل المعرفة، وباب العلم.



الشيخ أبو الأعلى المودودي



أصوات للتنبيه

وأخذت طائفة من علماء السلف جميع فواتح السور بوجه واحد، فقال أحمد بن يحيى بن ثعلب: إن هذه الحروف تدل على انقطاع كلام، واستئناف كلام آخر، ومن شأن العرب إذا استأنفت كلاماً أن يأتوا بشيء غير الكلام الذي يريدون استئنافه، فيجعلونه تنبيهاً للمخاطبين على قطع الكلام الأول، واستئناف الكلام الجديد وبعبارة أخرى يمكن جعل هذه كالمهيجة لمن سمعها، فيكون المراد منها مجرد إثارة الدهشة والاستغراب، قال بهذا قطرب، وأبو علي الجبائي في روايته الأخرى عنه، من أن الكفار لما تواطؤوا على عدم سماع القرآن، وعلى أن يلغوا فيه، فقال بعضهم: *(لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه)* **فصلت: ٢٦**، فأنزل الله هذا النظم البديع الذي لم يكن لهم به عهد ليعجبوا منه،

ويكون تعجبهم سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة، وألا يكون حجة عليهم.

فهي إذاً أصوات للتنبيه، كما في النداء، عمد إليها القرآن، ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات، وقد ترك ما ألفوا من ألفاظ التنبيه إلى ما لم يألفوا، لأنه لا يشبه كلام البشر، ولكي يكون أبلغ في قرع الأسماع، ولكنهم اختلفوا فيمن يكون المقصود بهذا التنبيه:

- أبوحيان في محيطه(١٣) يرى أنها تنبيه للمشركين، إلزاماً لهم بالحجة وليستغربها المشركون فيفتحوا لها أسماعهم، فتجب عليهم الحجة بسماع القرآن.

- وينحو بها فخر الدين الرازي إلى تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم لا للمشركين، والنبي عليه السلام، وإن كان يقظان الجنان، لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن، فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي المنبهات، وقد استحسن هذا التأويل الإمام الجويني فقال: القول بأنها تنبيهات جيد، لأن القرآن كلام عزيز، وفوائده عزيزة، فينبغي أن يرد على سمع متنبه، فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات، كون النبي عليه السلام، في عالم البشر مشغولاً، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله (ألم) و(الر) و(حم) ليستمع النبي صوت جبريل، فيقبل عليه، ويصغي إليه، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كمثل ألا وأما، لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ليكون أبلغ في قرع سمعه(١٤)، غير أن الإمام السيد رشيد رضا صاحب تفسير المنار، يستبعد جعل التنبيه للنبي عليه السلام؛ لأنه كان ينتبه، وتغلب الروحانية على طبعه الشريف بمجرد نزول الروح الأمين عليه، ودنوه منه، والتنبيه إنما كان أولاً بالذات للمشركين في مكة، ثم لأهل الكتاب في المدينة.

لقد ربط أصحاب هذا الاتجاه الأحرف وتأويلها بالمنبهات، ومن المعلوم أن التنبيه جاء في القرآن، بغير الحروف المقطعة، كالنداء في سورة النساء، والحج، والتحريم، والبدء بواو القسم في مثل: والضحى، والعصر، والليل، والفجر، ثم إن من المستغرب أن نجعلها تنبيهات لثقل ما يقال بعدها، فالقرآن كله ثقيل لا تختص به السور المفتتحة بالحروف دون سائر السور الأخرى.

لمعرفة مدة الملة أو الأمم أو الدنيا

ومن الإسرائيليات التي خالطت الفهم الإسلامي للقرآن الكريم، هذا التأويل اليهودي للحروف المقطعة، أو ما يسمونه «حساب الجمل» أو حساب أبي جاد، واتجهوا بدلالة الأعداد فيها إلى مدة الملة، أو مدة الأمم السابقة، أو مدة الدنيا، ولعل كل المرويات في تأويلها على حساب أبي جاد تبدأ من قصة حيي بن أخطب اليهودي، وقد نقلها ابن هشام مفصلة في السيرة النبوية، وخلاصة القصة:

قال ابن إسحاق راوياً عن ابن عباس أن أبا ياسر بن أخطب مر بالمصطفى عليه الصلاة والسلام عام الهجرة وهو يتلو فاتحة سورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة. فأتى أبو ياسر أخاه حيي في النفر من قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله فيما تلا من فاتحة البقرة، فلما استوثق منه قال: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما ملكه؟ وما أجل أمته؟ غيرك، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفندخل في دين نبي إنما مدة ملكه، وأصل أمته إحدى وسبعون سنة، ثم استطرد اليهودي يسأل يا محمد هل معك مع هذا غيره، قال نعم (ألمص) قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون فهذه إحدى وستون ومئة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره، قال: نعم (ألر)، قال اليهودي هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مئتان، فهذه إحدى وثلاثون ومئتا سنة، وعندها توقف ثم قام وهو يقول للنبي صلى الله عليه وسلم، لقد لبس علينا أمرك، حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً، وانصرف بالنفر من قومه، فتساءل أخوه أبو ياسر ما يدرينا لعله جمع هذا كله لمحمد، وأحصى مجموع ما سمعوا من حروف فبلغت سبعمئة وأربعاً وثلاثين سنة، وقال النفر من اليهود، لقد تشابه علينا أمره(١٥).


فتحي رضوان

إن هذ التأويل كان أساساً، فيما يبدو، اعتمد عليه كثير من السلف في محاولة كشف أمد الدنيا ومدة العالم، ومن هؤلاء الذين اعتمدوا عليه السهيلي فيما يقول ابن خلدون، وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور، بعد حذف المكرر، فوجدها أربعة عشر حرفاً، فأخذ عددها بحساب الجمل، فكان سبعمئة وثلاث إضافة إلى المنقضي من الألف الآخر قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، فهذه هي مدة الملة.

لقد رفض ابن خلدون هذا التأويل رفضاً قاطعاً، وذلك استناداً إلى أمرين: الأول أن دلالة الحروف على الأرقام ليست دلالة طبيعية أو عقلية، بل هي دلالة عرفية وضعية اعتباطية، والثاني أن اليهود الذين وضعوا هذه الدلالة هم أقرب إلى البداوة والأمية بالمعنى الثقافي والحضاري، ومن ثم لا يصح التعويل على آرائهم واجتهاداتهم في مثل هذه المسائل(١٦).

كما شدد العلماء في إنكار هذا التأويل والزجر عنه، فابن حجر العسقلاني يعده باطلاً، ولا يجوز الاعتماد عليه، وكذلك رفضه الحافظ ابن كثير من أئمة القرن الثامن الهجري، فقال: وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له وطار في غير مطاره(١٧) كما نص السيوطي في إتقانه أن ابن عباس رضي الله عنه، قد زجر عن عد أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة(١٨). كما استسخفه الشيخ الإمام محمد عبده

فقال فيه: إن أضعف ما قيل في هذه الحروف وأسخفه، أن المراد بها الإشارة بأعدادها في حساب الجُمّل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك، ولا أظن بعد هذا أننا بحاجة إلى مزيد من الآراء لإسقاط هذا التأويل والتفسير.

إشارة إلى غلبة مجيئها في كلمات السورة

وقيل: إن الحروف في مفتتح السور، تشير إلى غلبة مجيئها في كلمات هذه السورة، ذكره الزركشي بمزيد من التفصيل في البرهان، بياناً لوجه اختصاص كل سورة بما بدئت به، حتى لم تكن لترد (ألم) في موضع (ألر) ولا (حم) في موضع (طس) قال: وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها، فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع (ق) في موضع (ن) لم يكن، لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله، وسورة (ق) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف، وقد تكرر في سورة يونس، في الكلم الواقع فيها (ألر) مئتا كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت بها، واشتملت سورة (ص) على خصومات متعددة، فأولاها خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم اختصام الخصمين عند داود، تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم(١٩).

ولكن من الملاحظ أن هذا الأمر لا يستقيم في سائر السور المفتتحة بالحروف، وقد فطن إلى هذا الزركشي نفسه، فعمد إلى التأويل والتخريج في باقي السور، واعتقد أن هذا أبعد ما يكون عن حكمة اختصاص بعض السور بحروف الفواتح، فليس من المعقول أن نتصور أن الله جلت حكمته، قد وجد حرف القاف قد تكرر في هذه السورة - وقد عده الزركشي فوجده ٥٧ مع أن آياتها ٤٥ - فوضع سبحانه في فاتحتها حرف (ق). أو أنه أحصى جلت قدرته الحرف (ن) في سورة القلم، وقد عده الزركشي أيضاً فوجده قد تكرر فيها ١٢٤ مرة ، مع أن آياتها ٥٢، فوضع سبحانه في مستهلها حرف النون، تعالى الله عن هذا العبث.

المستشرقون والفواتح

غير أن أغرب ما في هذا الباب، وأبعده عن الحق والصواب، ما ذهب إليه المستشرق الألماني نولدكه Noldeke من الحكم بأن أوائل السور، دخيلة على نص القرآن، ففي الطبعة الأولى لكتابه عن تاريخ القرآن بالاشتراك مع شفالي Schwally تظهر أول مرة في تاريخ الدراسات القرآنية، نظرية لا ترى في أوائل السور إلا حروفاً أولى أو أخيرة، مأخوذة من أسماء بعض الصحابة، الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة، فالسين من سعد بن أبي وقاص، والميم من المغيرة، والنون من عثمان بن عفان، والهاء من أبي هريرة وهكذا.

ولكن يبدو أن نولدكه شعر بخطأ نظريته، فرجع عنها، وإن شفالي أهملها، وأغفل ذكرها فيما بعد في الطبعة الثانية، لكن المستشرقين بهل Buhl وهرشفليد Hirschfeld قد تحمسا لها من جديد، وتبنياها غافلين عن بعدها عن المنطق السليم، وحسبنا أن المستشرق بلاشير، يظهر تفاوت هذه النظرية، بما لا يدع مجالاً لتقبلها واحترامها، فهو يستبعد مع لوت Lott ومع بوير Bauer من بعد أن يدخل المؤمنون الذين ذكرت أسماؤهم آنفاً، وهم من هم ورعاً وتقى، عناصر غير قرآنية في الكتاب المنزل الذي لا يزيد عليه ما ليس منه، إلا ضعيف الإيمان قليل اليقين. ويرى بلاشير فوق ذلك أنه ليس من المعقول بحال من الأحوال أن يحتفظ أصحاب المصاحف المختلفة، في نسخهم ذاتها، بالحروف الأولى من أسماء معاصريهم، إن علموا أنه لا يقصد بها إلا ذلك، ويضاف إلى هذه الملاحظة القيمة، أننا لا نكاد نجد مسوغاً لحرص أبي أو علي أو ابن مسعود، على أن يحتفظوا في مصاحفهم بالحروف الأولى من أسماء أشخاص كانوا ينافسونهم في استنساخ القرآن وجمعه.

غموض دلالة الحروف المقطعة في القرآن يشكل جانباً من جوانب خصوصية القرآن، مما جعل الذين خاضوا في الكشف عن معناها لا يدلون برأي قاطع فيها، وأوقع بعضهم في تفسيرات باطنية مغلقة ومغلقة بالشطحات الصوفية والمصطلحات الغريبة

وينتهي الأستاذ بلاشير، إلى ضرورة الرجوع إلى النظرية الإسلامية نفسها، باستخراج مختلف الآراء وتمحيصها، ومقابلة بعضها ببعض، على أنه يعمد إلى إغفال بعض الأقوال التي لا تزيد في نظره على لغو وعبث، وأعلن بوضوح أن المسلمين الأتقياء الذين كانوا يرون من العبث كل محاولة لاختراق أسرار هذه الفواتح القرآنية، أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أنهم وحدهم العقلاء الحكماء(٢٠).

بيانات موسيقية يتبعها المرتلون

وكان لا بد للمجتهدين والمفسرين المعاصرين، من أن يدلوا بدلوهم في هذا المجال، فقد اتجه البحاثة الدكتور زكي مبارك إلى القول بأن من المميزات التي انفرد بها القرآن، الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل (ألم - حم - طسم) إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسرون، والتي لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد، وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية ولا الإسلامية، ويتابع الدكتور مبارك حديثه في كتابه النثر الفني: «كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديقي وأستاذي مسيو بلانشو فعرض علي تأويلاً جديداً جديراً

بالدرس والتحقيق، وفي رأيه أن الحروف المقطعة هي كالحروف (A I O) التي توجد في بعض المواطن من Chanson de geste فهي ليست إلا إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون، وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار بها إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة، وكان ذلك كافياً لتوجيه المغني أو المرتل إلى الصوت المقصود.

وفي الكنائس المسيحية بأوربا، حيث لا تزال تحتفظ بتقاليد الغناء الجريجوري، وفي أثيوبيا مثلاً، يوجد اصطلاح موسيقي مشابه لذلك، فإن رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التي تذكر بـ (ألم) في القرآن، أو (A I O) في نشيد رولان، ويؤيد رأي بلانشو، أن (ألم) تنطق هكذا عند الترتيل، ألف - لام - ميم، فهي ليست رمزاً كتابياً، ولكنها رموز صوتية، ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفاً عند الجاهلية. ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين في كل شيء، حتى في الأصوات الموسيقية، فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل، أو تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين. ويرى الدكتور مبارك أن من أسباب ضعف هذا الرأي، أن المفسرين لم يعطوه ما يستحقه من العناية مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض، ولو أنه كان معروفاً في الصدر الأول، لما تعرض لمثل هذا الإغفال، ومن يدري فلعل دراسة أصول الموسيقى في الكنائس الحبشية والشامية في العهد الذي سبق الإسلام تعود على هذا الرأي بشيء من التوضيح والتحديد، وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأي بين الشك واليقين(٢١)، وها هنا نظهر ميزة جديدة لهذه الأحرف المقطعة، ألا وهي التعبير الموسيقي بحروف ذات إيحاء، لا بكلمات ذوات دلالات محددة.

بيان وإعجاز

ولعل أقرب ما قالوه في حروف الفواتح، هي أنها أقرب إلى طبيعة البيان، وقضية الإعجاز، وهو أن هذه الحروف، ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من حروف هجائهم، هذا ما قاله المبرد، واختاره جمع عظيم من المحققين من أن الله تعالى إنما ذكرها احتجاجاً على الكفار، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة(٢٢) فعجزوا عنه، فأنزلت هذه الحروف تنبيهاً على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، عارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزتم عنه، دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر.

إن هذا الرأي الذي لمحه الإمام الطبري، وأسهب في بيانه، ثم تبعه البيضاوي كما انتصر له ابن تيمية وتلميذه الحافظ المزي، كما قال به عدد من أئمة المحققين، لغويين ومفسرين، وقرره الزمخشري ونصره أتم نصر، وكذلك أيده ابن كثير بما حكاه عن شيوخه، هو فيما نرى أقرب مايكون إلى طبيعة الكتاب العربي المبين في إعجاز بيانه، وقريب من هذا الرأي ما قاله عبدالعزيز بن يحيى، أن الله تعالى إنما ذكر هذه الفواتح لأن في التقدير كأنه تعالى قال اسمعوها مقطعة، حتى إذا وردت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك، كما أن الصبيان يتعلمون هذه الحروف أولاً مفردة ثم يتعلمون المركبات.

دالة على معان كثيرة

وقد اختار ابن فارس، صاحب مقاييس اللغة، وجامع التأويل في تفسير القرآن، من أن نجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً واحداً فقال: إن الله جل وعلا، افتتح السور بهذه الحروف إرادة منه للدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً، وأن يكون كلُّ واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله عز وجل قد وضعها هذا الموضع فسمي بها، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين، وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله تعالى، في إنعامه وإفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن من لم يكن يسمع، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الحروف، وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعاملة بينهم، دليل على كفرهم، وعنادهم، وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقع أول كل سورة، فهو اسم لتلك السورة(٢٣).

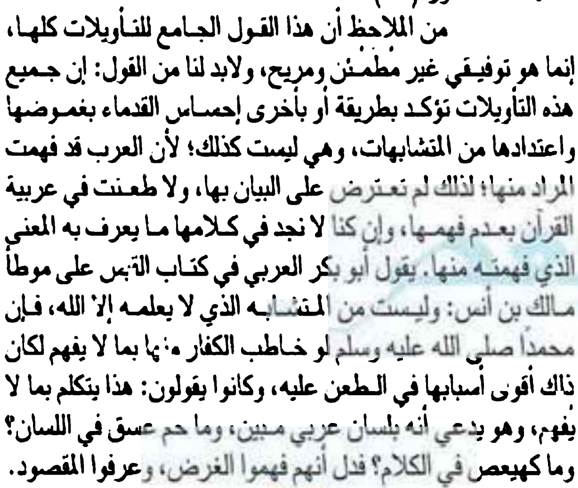


محمد عبد المنعم خفاجي

من الملاحظ أن هذا القول الجامع للتأويلات كلها، إنما هو توفيقي غير مطمئن ومريح، ولابد لنا من القول: إن جميع هذه التأويلات تؤكد بطريقة أو بأخرى إحساس القدماء بغموضها واعتدادها من المتشابهات، وهي ليست كذلك؛ لأن العرب قد فهمت المراد منها؛ لذلك لم تعترض على البيان بها، ولا طعنت في عربية القرآن بعدم فهمها، وإن كنا لا نجد في كلامها ما يعرف به المعنى الذي فهمته منها. يقول أبو بكر العربي في كتاب القبس على موطأ مالك بن أنس: وليست من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لو خاطب الكفار بما لا يفهم لكان ذاك أقوى أسبابها في الطعن عليه، وكانوا يقولون: هذا يتكلم بما لا يفهم، وهو يدعي أنه بلسان عربي مبين، وما حم عسق في اللسان؟ وما كهيعص في الكلام؟ فدل أنهم فهموا الغرض، وعرفوا المقصود.

الفواتح
تمثل كل الظواهر الصوتية

برجوعنا إلى القرآن، نجد السور المستهلة بالفواتح القرآنية على المشهور في ترتيب النزول تسعاً وعشرين كما هي موضحة في الجدول الذي في الجدول التالي:



السور المستهلة بالفواتح على المشهور في ترتيب النزول

عدد السور	ترتيب النزول	السورة	فواتح السورة بالحروف	عدد الحروف	مكان نزولها
١	٢	القلم	ن	١	مكة
٢	٣٤	ق	ق	١	مكة
٣	٣٨	ص	ص	١	مكة
٤	٣٩	الأعراف	المص	٤	مكة
٥	٤٢	يس	يس	٢	مكة
٦	٤٤	مريم	كهيعص	٥	مكة
٧	٤٥	طه	طه	٢	مكة
٨	٤٧	الشعراء	طسم	٣	مكة
٩	٤٨	النمل	طس	٢	مكة
١٠	٤٩	القصص	طسم	٣	مكة
١١	٥١	يونس	الر	٣	مكة
١٢	٥٢	هود	الر	٣	مكة
١٣	٥٣	يوسف	الر	٣	مكة
١٤	٥٤	الحجر	الر	٣	مكة
١٥	٥٥	لقمان	الم	٣	مكة
١٦	٦٠	غافر	حم	٢	مكة
١٧	٦١	فصلت	حم	٢	مكة
١٨	٦٢	الشورى	حم عسق	٥	مكة
١٩	٦٣	الزخرف	حم	٢	مكة
٢٠	٦٤	الدخان	حم	٢	مكة
٢١	٦٥	الجاثية	حم	٢	مكة
٢٢	٦٦	الأحقاف	حم	٢	مكة
٢٣	٧٢	إبراهيم	الر	٣	مكة
٢٤	٧٥	السجدة	الم	٣	مكة
٢٥	٨٤	الروم	الم	٣	مكة
٢٦	٨٥	العنكبوت	الم	٣	مكة
٢٧	٨٧	البقرة	الم	٣	المدينة
٢٨	٨٩	آل عمران	الم	٣	المدينة
٢٩	٩٦	الرعد	المر	٣	المدينة

ومن ملاحظتنا لهذا الجدول، نجد صيغاً مختلفة من هذه الفواتح، فمنها البسيط المؤلف من حرف واحد، وذلك في سور ثلاث، ومن هذه الفواتح تسع مؤلفة من حرفين، وسبع منها متماثلة تسمى الحواميم، أما الفواتح المؤلفة من ثلاثة أحرف فهي في ثلاث عشرة سورة، ست منها متماثلة (ألم) وخمس منها بلفظ (ألر) واثنتان من تأليفهما هكذا (طسم)، وبقي أن ثمة أربع سور مفتتحة بأربعة أحرف في صيغتين إحداهما (ألمص) والأخرى (ألمر)، وكذلك سورة مريم المفتتحة بخمسة حروف مقطعة (كهيعص) والشورى مفتتحة بـ (حم عسق).

ولقد تنبه السلف إلى أن مجموع هذه الحروف بغير المكرر منها، أربعة عشر حرفاً هي نصف الحروف الهجائية، وتمثل من جهة أخرى كل الظواهر الصوتية الموجودة في اللغة العربية، وهي الحروف الآتية: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، وإذا نظرت في هذه الحروف الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، فيها خمسة حروف مهموسة(٢٤)، وعدد المهموس من حروف العربية عشرة وهي: الهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين، والحاء، وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة، وفيها كذلك ثلاثة من حروف الحلق وهي ستة: الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق، كما أن فيها نصف الحروف الشديدة، وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه وهي: الألف، والقاف، والكاف، والظاء، والذال والطاء، والتاء، والجيم، كما أن فيها نصف الحروف الرخوة وهي عشرة من أصل عشرين، اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون، وكذلك فيها نصف الحروف المطبقة والتي هي أربعة أحرف، الطاء، والظاء والضاد والصاد، وماسواها منفتحة، وفيها النصف أيضاً الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء والقاف، والياء، والنون، كما أن فيها من الحرفين الشفهيين، الميم، ومن أحرف القلقلة القاف والطاء.

من الإسرائيليات التي خالطت الفهم الإسلامي للقرآن الكريم، هذا التأويل اليهودي للحروف المقطعة، أو ما يسمونه «حساب الجُمّل» أو حساب أبي جاد، إذ اتجهوا بدلالة الأعداد فيها إلى مدة الملة، أو مدة الأمم السابقة، أو مدة الدنيا، وقد شدّد العلماء في إنكار هذا التأويل والزجر عنه

إن مجيء هذه الحروف على حد التنصيف - كما تواضع عليه العلماء - يعد بحق ظاهرة غريبة نعجب لدراستهم لها، والتفاتهم إليها، وهذا لا يقع إلا من الله عز وجل حسب رأي الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن، لأن ذلك يجري مجرى علم الغيب، وإذا كان القوم الذين قسموا الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ورأوا مباني اللسان على هذه الجهة، لم يكن في التقسيم شيء، وإنما التأثير أن وضع أصل اللسان، فذلك أيضاً من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان، فإن كان أصل من اللغة توقيفاً، فالأمر في ذلك أبين. وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً، لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا الأمر إلا بأمر من عند الله تعالى، وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد ما يتعلق به الإعجاز من وجه(٢٥).

ويبدو أن هذا التنصيف الذي ذكره الباقلاني، لم يرق للأستاذ محمد عبدالمنعم خفاجي شارح كتاب إعجاز القرآن ومحققه، فعلق على ذلك بأن التنصيف هنا أمر لغوي بحت يجب أن نجرد الإعجاز من رعايته، إلا أن نعرف أن السور التي بدئت بحروف المعجم تسع وعشرون، وأن عدد الحروف المكررة أربعة عشر حرفاً، وإذا كنا اليوم بعقلية القرن العشرين لا نرى في هذا الأمر أكثر من مصادفة، فما كان ليخطر على بال السلف الصالح، إلا أن الفواتح نظمت في القرآن على هذا النمط منذ الأزل، لتحتوي على كل ما من شأنه إعجاز البشر عن الإتيان بمثل هذا الكتاب، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

أحكام تختص بهذه الفواتح

ثم لا بد من التنبيه على أحكام تختص بهذه الفواتح: إن البصريين لم يعدوا شيئا منها آية، وأما الكوفيون فمنها ما عدوه آية، ومنها ما لم يعدوه آية، وهو علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، أما (الم) فآية حيث وقعت من السور المفتتحة بها، وكذلك (المص) آية، و(الر)، ليست بآية من سورها الخمس، وحم آية في سورها كلها، و(حم)، و(عسق) آيتان، و(كهيعص) آية واحدة، ، و(ص) و (ق) و(ن) لم تعد واحدة منها آية، وإنما عد ما هو في حكم كلمة واحدة آية، غير أن الواحدي في كتابه البسيط في أول سورة يوسف، لا يعد شيئا منها آية، إلا في طه ، وسره أن جميعها لا يشاكل ما بعده في رؤوس الآي، فلهذا لم يعد آية، بخلاف طه فإنها تشاكل ما بعدها، ثم إن هذه الأحرف كتبت في المصاحف الشريفة على صورة الحروف أنفسها لا على صورة أساميها، وعلل ذلك بأن الكلمة، لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرت العادة متى تهجيت، ومتى قيل للكاتب: اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها، فحمل على ذلك للمشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح، ثم إن هذه الفواتح الشريفة على ضربين: أحدهما ما لا يتأتى فيه إعراب نحو (كهيعص) و(الم) والثاني مايتأتى فيه، وهو إما أن يكون اسما مفردا كـ (ص)، و(ق) ، و(ن) أو عدة أسماء، مجموعة على زنة مفرد، كـ (حم)، و(طس)، و(يس)، ومن أراد المزيد من الأحكام فليطلبها في برهان الزركشي.

هذه وقفة غير قصيرة عند فواتح السور التي ما من سورة بدئت بها إلا كان فيها احتجاج للقرآن، وتقرير نزوله من عند الله، ودحض لدعاوى من جادلوا فيه، مع التنظير لموقف المجادلين فيه بموقف أمم قبلهم كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا برسله تعالى، فحق عليهم العقاب، إنها حروف صماء، تتألف من أصوات عجماء لا تبين ولا تنطق، ومنها تصاغ الكلمات فيحقق بها الإنسان آية نطقه وبيانه، ويحقق آية القراءة والعلم متميزا من الحيوان الأعجم ومرتقيا بإنسانيته إلى درجتها العليا في الكائنات، ومحتملا بها أمانة التكليف ومسؤولية الخلافة في الأرض والله أعلم بمراده.

المراجع والهوامش

١. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، جـ٢، ص٢، الناشر دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جـ٤، ص٥٧، تحقيق الدكتور محمد عمارة، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٣. الفتاوى، محمود شلتوت، ص٤٤٤، الناشر دار الشروق - بيروت، ط١٠.
٤. تفهيم القرآن، أبو الأعلى المودودي، جـ١، ص٤٧، تعريب أحمد إدريس، الناشر، دار القلم الكويت.
٥. التفسير الكبير، فخرالدين الرازي، جـ١، ص١٥١، الناشر دار الفكر - بيروت.
٦. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبي الفضل عياض، جـ١، ص٣٤، الناشر دار الفكر بيروت.
٧. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، جـ١، ص١٧٤، الناشر دار الجيل - بيروت.
٨. الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن، د. عدنان زرزور، ص٢٤١، ط١، الناشر مؤسسة الرسالة - بيروت.
٩. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جـ٤، ص٥٧، تحقيق د. محمد عمارة، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
١٠. الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، جـ١، ص١٥٦، الناشر دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١١. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، ص٣٠١، الناشر المكتبة العلمية - بيروت.
١٢. الإسلام ومشكلات الفكر، فتحي رضوان، ص١٥٠، سلسلة اقرأ، دار المعارف بمصر.
١٣. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، جـ١، ص٣٤.
١٤. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، جـ٢، ص٢، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٥. السيرة النبوية، ابن هشام، ص١٣٩، القسم الأول - الجزء الأول، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الناشر دار ابن كثير - دمشق - بيروت.
١٦. المقدمة، ابن خلدون، جـ٢، ص٧٦٤، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي، الناشر لجنة البيان العربي مصر، الطبعة الثانية، تاريخ ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
١٧. تفسير ابن كثير، جـ١، ص٦٩.
١٨. راجع الهامش رقم ١٤.
١٩. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، جـ١، ص١٦٩.
٢٠. مباحث في علوم القرآن، د. صبحي صالح، ص٢٤٢، ط١٠، الناشر دار العلم للملايين - بيروت.
٢١. النثر الفني، د. زكي مبارك، جـ١، ص٤١.
٢٢. تحداهم أولاً أن يأتوا بمثله في سورة الإسراء الآية ٨٨: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ثم تحداهم: ان يأتوا بعشر سور مثله في سورة هود الآية ١٣، ١٤: أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون.
ثم تحداهم مرة ثالثة بأن يأتوا بسورة منه، أي سورة مهما قصرت في سورة يونس الآية ٣٨: أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. ثم كرر التحدي بسورة البقرة وهي مدنية، الآيتان ٢٣ - ٢٤: وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.
٢٣. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، جـ١، ص١٧٥، الناشر دار الجيل بيروت.
٢٤. المهموس: كل حرف ضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى معه النفس، والمجهور معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه،ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت.
٢٥. إعجاز القرآن للقاضي الباقلاني، ص٧٥، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي وشرحه.

فن الإدارة في الإسلام

محمد محمد عيسوي الفيومي
المحلة الكبرى - مصر

من الحقائق التي أكدتها الأبحاث العلمية أن أي عمل إداري ناجح لا بد له من إدارة ناجحة موفقة تدفعه إلى الأمام، وهذا ما يؤكد قيمة العنصر البشري، فعلى الرغم من التقدم الهائل في وسائل التقانة (التكنولوجيا) الحديثة فإن العنصر البشري يحتل مكانة رئيسة في توجيه العمل الإداري.

ولقد كان للإسلام فضل السبق في مجال الإدارة، فقد عرفت الديمقراطية في الإسلام قبل أن تعرفها كل بلاد العالم المتحضر.

وضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الأمثلة في إدارة الغزوات، إذ كان عليه الصلاة والسلام نموذجاً يحتذى به، وصدق الله تعالى إذ يقول: *لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا*. **الأحزاب:٢١.**

العدل والمساواة

إن النظم الاجتماعية عند العرب كريمة سمحة تقوم على المساواة والعدل بوصفه أساس الملك، والرحمة بالضعيف، ورعاية الجار، وإيواء المستجير، والحنو على الأرامل واليتامى، واحترام حقوق الآخرين، ومساواة المرأة بالرجل وإعطائها حقوقها المدنية والاجتماعية، ولا توجد فيها فوارق طبيعية كالتي توجد في النظم الارستقراطية الحديثة، فلم يعرف المجتمع العربي فوارق حاسمة بين الطبقات، فكثير من الموالي والعامة وصلوا بجدهم إلى أعلى المراتب، واستوزرهم الخلفاء، وكثير من الخلفاء كانت أمهاتهم من الجواري كالمأمون الذي كان من أعدل خلفاء المسلمين، وكثير من الموالي نجح في مصاهرة السادة، وهذا ما لم يعرفه المجتمع الأوربي. وهكذا عرف المجتمع العربي حقوق الإنسان، وحرية المرأة، والمبادئ الديمقراطية كافة قبل أن تعرفها أوربا، وانتشرت العدالة، فكان الخلفاء يجلسون في ساحات القضاء يستمعون إلى شكاوى الجمهور.

مبادئ الديمقراطية في الإسلام

وهذه الثقافة كانت قابلة للتطور والتقدم، وليست فكرة الديمقراطية والتخطيط الاقتصادي غريبة عن الفكر العربي، فقد سبق أن نظم العرب أداة الحكم، وأسسوا بيت المال، ومصروا الأمصار، وأنشؤوا الدواوين، ووزعوا الأعطيات والأرزاق توزيعا عادلا، وشقوا الترع، وبنوا القناطر والجسور، وشيدوا المساجد والقصور، وأحيوا موات الأرض بين النهرين، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: *واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم.* **آل عمران ١٠٣-١٠٥.**

ومن قوله تعالى: *يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير*. **الحجرات:١٣.**

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم «إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا: ما تصنع؟ فقال هو مكاني أصنع فيه ما أشاء، فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا» رواه البخاري عن النعمان بن بشير.

ومن أقواله أيضا في حجة الوداع: «أيها الناس إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد، فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي

أبداً.. كتاب الله وسنتي.. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، فليبلغ الشاهد منكم الغائب» رواه البخاري.

ومن أقواله أيضاً: «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب» رواه مسلم والإمام أحمد.

وقوله أيضاً: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وحديثه «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» رواه البخاري ومسلم.

ومن ذلك أيضاً قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أيها الناس والله ما فيكم أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه»، «عبقرية عمر للعقاد».

هذه الأحكام تحث على التعاطف والتآزر واحترام كيان الإنسان وشخصيته وماله، ولا شك أن الإسلام دين عقيدة، وسياسة للدنيا، وطاعة الله ورسوله، فقد رسم الوسائل الكفيلة بازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية للفرد والمجتمع، وفكرة العرب عن الوحدة والاتحاد وبناء المجتمع المتماسك هي فكرة قديمة قدم الديمقراطية.

لا ريب أن الإسلام دستور للعمل والإنتاج، إلى جانب كونه عقيدة روحية سامية تسعى إلى إسعاد الفرد والجماعة، ولقد ضرب الرسول - عليه السلام - أروع الأمثلة في التمسك بالمبادئ الديمقراطية، ومن ذلك نزوله على رأي الأغلبية في كثير من الأحوال العامة حتى لو خالف رأيه الخاص، وذلك عندما أشار شباب المسلمين عليه بالخروج لملاقاة الكفار في موقعة أحد، وكذلك أخذه بمبادئ الشورى، فكان يستشير كبار الصحابة في الأمور العامة: *وشاورهم في الأمر*. آل عمران: ١٥٩. *وأمرهم شورى بينهم*. الشورى: ٣٨.

ولعل أروع الأمثلة الديمقراطية التي ضربها الرسول عليه السلام هو تركه أمر خلافة المسلمين شورى بينهم، وعدم تعيين من يخلفه على المسلمين قبل وفاته. وكذلك نرى أن الإسلام نظام اجتماعي، فهو يحرص أشد الحرص على تحقيق التماسك الاجتماعي لأفراد المجتمع، ففي ظله كفالة الفقراء والمحتاجين ليعيشوا عيشة كريمة بما فرضه من زكاة يقدمها الأغنياء للفقراء، ولعل هذه الفكرة هي بعينها فكرة الضمان الاجتماعي الحديث، لأنها تعاون وتكافل بين الأغنياء والفقراء.

من الصفات التي ينبغي أن يتسم بها القائد أو المدير في عصرنا الراهن: الذكاء، والاتزان الانفعالي، والمساواة والعدل بين المرؤوسين

التعاون والتآخي في الإسلام

ومن الآيات والحكم المأثورة في الإسلام التي تقرر المبادئ الديمقراطية إلى جانب الأخذ بمبدأ الشورى، فكرة الأخذ من الأغنياء وإعطاء الفقراء. *والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم*. المعارج ٢٤، ٢٥.

وإذا كانت الديمقراطية الحديثة تقرر حرية الفرد والاعتراف بكيانه وذاته واستقلاله وفرديته فإن الإسلام قرر هذا المبدأ، إذ كان الفرد العربي تذوب شخصيته في شخصية القبيلة، فلم تكن له حقوق سياسية أو مدنية إلا ما تسمح به العادة والعرف في تلك القبيلة التي يقوم على توجيهها شيخ القبيلة المسن المجرب.

أما الإسلام فقد اعترف بكيان الفرد واستقلاله كفرد في حدود تجعل الفردية كريمة في مجتمع تقدمي كريم، وكذلك أتاح الإسلام للمرأة حرية واستقلالاً لم تمنح بهما الأنظمة الأوربية إلا مؤخراً، فقد منحها الإسلام حرية التصرف في أموالها بما تشاء، وكيف تشاء، ومنحها حق الوصاية على أولادها القاصرين، وظلت المرأة متمتعة بشخصيتها ونسبها واسم أسرتها حتى بعد الزواج، أما النظم الأوربية فإن المرأة تفقد فيها أسرتها بمجرد الزواج، ويصبح اسمها منسوباً إلى اسم زوجها على أنها قرينته.

ونادى الإسلام بالحرية والإخاء والمساواة والعدل الاجتماعي وتكافؤ الفرص، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، والناس سواسية كأسنان المشط، وكان المسلمون عادلين في سياستهم الديمقراطية حتى مع البلاد التي فتحوها، فكانوا يتركون أمر البلاد إلى أهلها، كما كانوا يراعون الظروف الجغرافية في تقرير الضرائب على المحصولات.

لقد غير الدين الإسلامي النظام الاجتماعي السائد في شبه الجزيرة العربية التي كانت تنقسم إلى طبقة أرستقراطية غنية لا هم لأفرادها إلا شرب الخمر ولعب الميسر، وطبقة الفقراء الأذلاء، فغير الدين الإسلامي هذه النظم البالية، وأكد وجود قوة عليا تهيمن على هذا العالم، غير هذه الأوثان والأصنام، وبشر بالاستمتاع البريء، بما في الدنيا من خيرات، ووعد الصالحين بالثواب والطالحين بالعقاب، وحث على الإخاء والمساواة وجمع الأمة العربية تحت راية واحدة.

تقدم النظم الإسلامية

ثم هضمت الاتجاهات الفكرية (الأيديولوجية) الإسلامية الثقافات الأخرى المجاورة التي تأثرت بها كالثقافة الفارسية واليونانية والبيزنطية والرومانية حتى الصينية والهندية البعيدتين عنها، وتفاعلت

مع هذه الثقافات وخرجت من ذلك كله ثقافة إسلامية واسعة شاملة.

وأحرز العرب تقدماً ملحوظاً في الرياضيات، والطبيعة، والفلك، والطب، والكيمياء، وفن العمار، والتصوير، والأدب، والفلسفة، والشعر، بينما كانت أوربا غارقة في الجهالة، وعلى الجملة كان الدين الإسلامي حافزاً إلى التهذيب الوجداني والإثارة الفكرية، بل إن الدين نفسه وعلومه كانت حوافز إلى البحث والدراسة، ولهذا نجد الشواهد التاريخية تدلنا على أن الشخص العربي كان يميل إلى التفكير المستقل، والروح العلمية، والتجديد المستمر، والتطور والتقدم. تلك لمحة عن الديمقراطية الإسلامية التي ستظل شامخة في مواجهة دعاوى التقدم والحضارة الزائفة.

وإذا كان للإسلام كل هذا السبق في إرساء قواعد الإدارة الديمقراطية فينبغي علينا أن نسترشد بالمبادئ الإسلامية لتنير الطريق أمام قادة العصر الحديث حتى يبلغوا الكمال المنشود، فما صفات القائد أو المدير التي ينبغي أن يتسم بها في عصرنا الراهن؟

- الذكاء:

ينبغي أن يملك قدراً من الذكاء ليمكنه من التعاون بحكمة، وحل ما يعن له من مشكلات بطريقة صحيحة.

- الاتزان الانفعالي:

ينبغي على المدير أن يتمتع بالصحة النفسية، والاتزان الانفعالي حتى يأخذ الأمور بالتروي والحكمة، ذلك لأن الانفعال المتطرف يفقده الحكمة في إصدار الأحكام الصحيحة ويعرضه للوقوع في الأخطاء. ولهذا دعا القرآن الكريم إلى التروي وعدم التسرع في إصدار الأحكام لقوله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين*. **الحجرات:٦**.

كما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «ليس الشديد بالصرعة وإنما القوي من يملك نفسه عند الغضب». رواه البخاري.

وهذا ما يوضح أهمية الاتزان الانفعالي، وخاصة لدى الأفراد الذين يتولون السلطة.

- المساواة والعدل بين المرؤوسين:

على المدير الكفء أن يبسط سلطان العدل والمساواة بين جميع أفراد مؤسسته دون تحيز لأحد، فكلهم متساوون كأسنان المشط.

وعملاً بقول الحق سبحانه وتعالى: *إن الله يأمر بالعدل والإحسان*. **النحل:٩٠**. كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سبعةٌ يظلُّهم الله بظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمام عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلَّق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

على المدير أن يراعي المصلحة العامة دون تحيّز لأحد، حتى وإن تعارضت مع مصالحه الشخصية، وأن يتقبل النقد الموضوعي البناء

- طيب الكلام وطلاقة الوجه:

على المدير أن يتسم بطلاقة الوجه وطيب الكلام مع مرؤوسيه حتى تكون العلاقة بينه وبينهم علاقة مودة وألفة ومحبة وصدق الله إذ يقول: *ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك*. آل عمران:١٥٩.

كما جاء عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقوا النار ولو بشِقّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

كما جاء في قول الحق تعالى: واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. الشعراء:٢١٥. حتى تكون العلاقة بين الرئيس والمرؤوس علاقة مودة ومحبة، يحترمونه بدلاً من أن يخافوه.

- الديمقراطية ونبذ التسلط:

ينبغي على المدير ألا يكون متسلطاً، وأن يستفيد من خبرة الخبراء الذين يعملون معه، وليكن لنا في رسول الله أسوة حسنة حيث كان عليه الصلاة والسلام نمطاً فريداً في فن القيادة، فكان يستفيد من خبرة الخبير؛ وذلك عن طريق المشورة، ويستفيد من شجاعة القوي إذ يجند كل ما بين يديه من قوة الآراء والقلوب والأجساد، فكان القائد الذي جمع برأيه السديد، ونظره الثاقب كل عوامل التوفيق، فلم يكن بالقائد المغرور المتغطرس، كما يعرف في نظريات القيادة الحديثة بالقيادة التسلطية، ولم يكن بالقائد الفوضوي الذي يترك الحبل على الغارب لكل أفراد الجماعة، ليتصرف كل منهم حسب ميوله وهواه، بل قد ضرب أروع الأمثلة في تطبيق مبدأ الديمقراطية قبل أن يعرفها العالم، وكانت له فصاحة اللسان واللغة وكانت له القدرة على تأليف القلوب، وكسب الثقة، وكانت له قوة الإيمان بدعوته.

ولقد اكتسب إعجاب العدو قبل الصديق، لقد جمع أصحابه قبل غزوة بدر واستشارهم ولم ينفرد بالرأي، وفوق هذا كله كان عليه الصلاة والسلام رقيق القلب جميل المعاشرة، فاستحق الوصف من ربه تعالى: *وإنك لعلى خلق عظيم*. **القلم:٤**.

- أن يكون قدوة لمرؤوسيه:

ينبغي على المدير أن يكون نموذجاً في سلوكه وتصرفاته حتى يحذو أصحابه حذوه، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه،

فلقد روى أنه كان في سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل: يا رسول الله: عليّ ذبحها، وقال آخر: وعليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام علمت أنكم تكفونني ولكن أكره أن أتميز عليكم، إن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه، وصدق الله إذ يقول: *فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك*. آل عمران:١٥٩.

. التواضع في غير ضعف:

يجب على المدير أن يكون متواضعاً بغير ضعف حتى تطاع أوامره بحزم؛ ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالاً للقائد الذي تجمعت فيه كل أسباب القوة واللين، فكان قويا بغير عنف، ورقيقاً بغير ضعف، وتلك من سمات عظمة القائد الذي يثق بنفسه، وتتجلى ثقته بنفسه يوم أن دخل مكة منتصراً شامخ الهامة مصداقاً لقوله تعالى: *إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صرطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً*. **الفتح: ١-٣.**

واجتمعت قريش إليه فنظر إليهم وقال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال وهو يبكي: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» أقول لكم ما قاله أخي يوسف لإخونه: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. يوسف:٩٢. بهذا استطاع عليه الصلاة والسلام أن يبسط سلطان العدل.

. يتأثر بالجماعة ويؤثر فيهم:

ينبغي على المدير أن يتأثر بمرؤوسيه، ويتفاعل معهم حتى يشعروا أنه واحد منهم، حتى يدينوا له بالطاعة والولاء، ولقد امتد الأثر العظيم للقيادة المحمدية المباركة في اعداد القادة المسلمين أمثال: عمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق، وعلي وعثمان وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم الذين ساروا على منواله.

مصداقاً لقوله تعالى: *لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً*. الأحزاب: ٢١.

فسبحان من اختار محمداً لينشئ هذا الجيل من الأصحاب البررة المهرة، الذين ساحوا في البلاد، واجتاحوا جذور الفساد، وكانوا خير أمة أخرجت للناس.

. لديه القدرة على صياغة الأوامر بطريقة مقبولة:

ينبغي أن يملك القائد القدرة على صياغة الأوامر بطريقة مقبولة حتى لا ينفر مرؤوسيه من الأوامر، فتثقل على نفوسهم، كما يجب أن يشاركهم في أخذ القرار حتى يتحمسوا لتنفيذه وإنجاحه.

. تفضيل المصلحة العامة:

ينبغي على المدير أن يراعي المصلحة العامة دون تحيز لأحد، حتى وإن تعارضت مع مصالحه الشخصية، وأن يتقبل النقد الموضوعي البناء.

. الأمانة:

لا بد أن يتصف المدير بالأمانة والنزاهة، يقول سبحانه وتعالى: *إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل*. **النساء:٥٨.** وعملاً بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته...» إلى آخره. متفق عليه. كما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن أبي يعلى معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» متفق عليه.

. المرونة:

ينبغي على المدير أن يتسم بالمرونة في معاملة مرؤوسيه، وألا يكون سلوكه جامداً بحيث يطبق روح القانون فيما يواجهه من موضوعات تتطلب ذلك حتى تسير المؤسسة من دون تعقيدات مادام ذلك لا يضر بمصلحة العمل، وأن يكون فاهماً لطبيعة عمله، وتخصصات كل عضو في المؤسسة التي يديرها.

. أن يملك القدرة على التخطيط للمستقبل:

ينبغي على المدير أن يكون بعيد النظر، ويعمل على تجنب المشكلات، ولا يتصيد الأخطاء لأفراده مادامت ليست بسوء قصد، فكل من يعمل عرضة للأخطاء، وخير الخطائين التوابون.

. الاستفادة من أخطاء من سبقوه:

ينبغي على المدير أن يكتسب الخبرة التربوية من أخطاء الآخرين بحيث يتفادى هو الوقوع في مثل هذه الأخطاء، وأن يكون مثقفاً واسع الإدراك، واضعاً في الحسبان قول الحق: *إن الله لا يضيع أجر المحسنين*. التوبة: ١٢٠، وقوله تعالى: *إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً*. **الكهف: ٣٠.**

. طاعة ولاة الأمر في غير معصية:

ينبغي على المدير أن يطيع رؤساءه مادام ذلك في غير معصية الله عملاً بقوله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم*. **النساء: ٥٩.** كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». متفق عليه. حتى تسير الأمور كما أراد لها الله عز وجل.

الإسلام دستور للعمل والإنتاج، إلى جانب كونه عقيدة روحية سامية تسعى إلى إسعاد الفرد والجماعة

الإسلام في غرب إفريقية

إسماعيل نوري الربيعي
الزاوية - ليبيا

على الرغم من اتجاه عدد من الممالك والمدن في غرب إفريقية إلى اعتناق الدين الإسلامي، إلا أن مناطق بعينها بقيت بعيدة عن المؤثر الإسلامي؛ إذ بقيت قبائل الفولاني والبمبرة وجزء واسع من الصنعي على ديانتها الوثنية التقليدية.



ويؤكد عدد من الباحثين ارتباط الأمر بالنشاط التجاري، فالممالك والكيانات السياسية القائمة في المنطقة - على الرغم من استيعابها لواجب الدعوة إلى الإسلام في الوسط الوثني - اصطدمت بطبيعة المصالح التجارية؛ إذ كانت حركة البضائع تسيطر عليها القبائل الوثنية. ولعل الفصل القائم بين مؤسسة السلطة التي اتجهت نحو اعتناق الإسلام، وبقاء الرعايا على ديانتهم التقليدية، يلقي الضوء واضحًا على هذا الاتجاه. فالمراكز الحضارية والسياسية، كانت قد تطلعت إلى الإفادة من المضامين التي قدمتها الديانة الإسلامية في المجال الثقافي وحفز المعاني والمدركات.

ودوام النشاط الحضاري كان يستدعي وجود فئة عاملة تؤدي الأعمال التي تحتاج إليها هذه الكيانات السياسية، وعلى درجة التخصيص(١) توفير البضائع لإدامة نشاطاتها الاقتصادية.

تداخل

لابد من التوقف مليًا عند حالة التداخل بين المعاني التي تم الوقوف عندها في التعاطي مع المفاهيم الإسلامية عند الشخصية الإفريقية. وإذا كانت الأحداث قد أشارت، وبجلاء لا يرقى إليه الشك، إلى وصول الإسلام إلى غرب إفريقية، وانتشاره بين كثير من القبائل والمجتمعات الزنجية، فإن هذا الأمر لم يكن ليلغي معالم التأثيرات التقليدية، كانتشار مفاهيم السحر والجان والمؤثرات الطوطمية(٢)، وسيادة الروح الخرافية. بل إن المؤثرات التقليدية والوثنية بقيت معالمها بادية للعيان لدى الكثيرين من معتنقي الديانة الإسلامية، حتى إن أغلبهم كان يفخر بممارسته للسحر(٣)، بل ادعت الكثيرات من النساء المسلمات الإفريقيات أن لهن اتصالات مع الجان. ولم يتوقف الأمر عند طبيعة الفهم

التقليدي لدى العناصر الممسكة بزمام السلطة، من أجل ديمومة فعالياتها السياسية والاقتصادية، بل تعداه ليبلغ أدق مراحل الجهاد والدعوة، إذ راح بعض المجاهدين المسلمين يوزعون التعاويذ والتمائم على المقاتلين الإسلاميين، تحت دعوى حمايتهم من الخطر(٤).

الوقوف على مرتكزات توزيع العلاقات الإنتاجية، يمكن أن يلقي الضوء الساطع على طبيعة العلاقة المعقدة التي اشتبكت عراها بين الإسلام والوثنية في غرب إفريقية. ولعل الإشارة إلى مناطق إنتاج الذهب في مالي توضح الكثير من هذا الأمر. فقد أدركت السلطة الحاكمة في إمبراطورية مالي الإسلامية، أن المناطق التي تنتشر فيها الوثنية تزيد فيها الفعاليات الإنتاجية بشكل واسع ولافت للنظر، بينما مناجم الذهب التي يشتغل فيها المسلمون تكثر فيها قضايا حقوق العمال وتحسين الأوضاع(٥) وقضايا المساواة. وعلى هذا كان تدخل السلطات قد تبدى واضحاً في تحديد فعاليات انتشار الإسلام بين القبائل الوثنية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عمدت الأسرة الحاكمة للتغاضي عن استيفاء الجزية من الوثنيين خشية على مستوى الإنتاج في مناجم الذهب.

تفسير اجتماعي

وفي سبيل تثبيت المرتكزات الاقتصادية مع القبائل الوثنية، فإن مملكة مالي الإسلامية، لم تتوان عن دعم علاقاتها مع زعماء تلك القبائل، بل المبالغة في إكرامهم وإغداق الهدايا عليهم؛ إذ لم يمثل الاختلاف العقدي أي عائق. فعلى الرغم من كون الزعامات قد تركزت بيد المسلمين، فإن النشاط الاقتصادي واتجاهات التبادل التجاري(٦)، كانت تتركز في يد القبائل الوثنية. يعمد مادهو بانيكار إلى إفساح حيز واسع للتفسير الاجتماعي في موضوع انتشار الإسلام في غرب إفريقية، فيشير إلى أن المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الملوك والسلاطين في البلدان العربية الإسلامية في شمال إفريقية، قد حفزت عدداً من الزعامات الإفريقية إلى التوجه، وبكل شغف، نحو اعتناق الإسلام، من أجل اكتساب المكانة التي تضاهي مقام الملوك المسلمين في الشمال. ويستدل على ذلك بأن الزعماء الأفارقة، على الرغم من توجههم نحو الإسلام ودفاعهم عنه، بقوا شديدي التمسك بعاداتهم التقليدية والوثنية، بل إن علاقاتهم القبلية القديمة بقيت على أوضاعها السابقة(٧). وعليه فإن الإسلام كان يمثل لهم معطى حضارياً شديد الإغراء، تتمثل فيه عناصر الثقافة والاقتصاد والنظم السياسية الأكثر رجحاناً. وعلى الصعيد الاجتماعي يبرز أثر الإسلام واضحاً في توحيد الزعامات القبلية، لكون الجماعات الوثنية ترفض بشدة ترك ديانتها وطوطمها الخاص بها، ولا سيما عندما تتعرض إلى هزيمة من قبيلة(٨) وثنية أخرى. وهكذا شكل الإسلام عامل وحدة في مجال الزعامة السياسية.

من المخطوطات الإسلامية في مالي

تركز انتشار الدين الإسلامي بين الزعماء القبليين الذين قيض لهم الاتصال المباشر بالتجار المسلمين، وعلى هذا الأساس كان التركز الإسلامي قد استوطن في المناطق المدينية والحضرية. بل لابد من الإشارة إلى أن المناطق التي عرف عنها الطابع الإسلامي، كانت تحوي في بنيتها نسبة عالية من الوثنيين(٩)، وهذا ما يمكن الإشارة إليه لدى قبائل الهوسا والبمبرة والماندنغو. ولعل الأهم في كل هذا، يكمن في حالة التداخل في المفاهيم العقدية. فعلى الرغم من توجه أهالي كانو والهوسا واليوربا إلى إقامة الشعائر الإسلامية، وأداء الفرائض والصلوات وتلاوة القرآن وحفظه(١٠)، بقيت المعتقدات

الوثنية بادية للعيان بكل قوة داخل الشعور الإفريقي، حتى تحولت هذه الشعائر إلى نوع من الشعارات الوطنية، وتعزيز الانتماء إلى الجذور القبلية التقليدية. فتقديس الطوطم لدى كل قبيلة، كان يجري جنبا إلى جنب مع الفروض الإسلامية. وإذا ما أخذنا في الحسبان انتشار الأمية، وسيادة روح الخرافة والأسطورة داخل المجال الإفريقي، تسنّى لنا الوقوف على هذا التداخل(١١) المربك، الذي يفضي إلى إثبات مسألة تتعلق بالفهم الشعبي للدين الإسلامي داخل الوسط الإفريقي.

قوة وحضور

كان من العسير أن تظهر حالة التكيف الاجتماعي للقبائل التقليدية مع المفاهيم والحدود التي يطرحها الإسلام؛ إذ بقيت العلاقات القديمة هي الأكثر قوة وحضوراً داخل الفعاليات الاجتماعية. فعلى سبيل المثال بقي الاختلاط بين الجنسين ماثل الحضور باديًا للعيان بشكل واضح، بل تعداه إلى مسألة بالغة الحساسية، تتعلق بطبيعة لباس المرأة الإفريقية.

كما أن الكثير من الناس كانوا يشهرون إفطارهم خلال شهر رمضان. وعلى الرغم من كل هذا أشار الكثيرون من الرحّالين المسلمين، إلى الإقبال الواسع والكبير من الطبقات الاجتماعية المختلفة، على صلاة الجمعة وتزاحمهم لحضور المسجد في وقت مبكر، مع الحرص الشديد على(١٢) تحفيظ القرآن وتوجيه الأبناء الصغار نحو تعلّم أداء الصلوات.

العلماء والحكام

في مجال شحَّ فيه المتعلمون، قُيّض لعلماء الدين الإمساك بكل قوة بالمجال العقدي، وكانت هذه هي الوظيفة الرئيسة التي يضطلعون بها، بالإضافة إلى سيطرتهم على الجانب الإداري، وتسيير شؤون الدولة، وتقديم النصح والمشورة إلى الحكام. وهكذا غدا هؤلاء يمثلون طبقة خاصة مؤثرة ومهيمنة، لها امتيازاتها الخاصة وحظوتها الكبيرة لدى السلطة. بل إن مؤسسة العرش كانت تخشى سطوة(١٣) علماء الدين لأنهم هم الأكثر قدرة وإمكانية على استثارة الحماسة الدينية بشكل مباشر ضد الحاكم الذي كان يبحث، وبكل ما أوتي من قوة، عن الحصول على الشرعية التي يمكن لعلماء الدين أن يقدموها عن طريق الفتوى. بل إن عدداً من الحكام، وخلال الصراعات الداخلية للوصول إلى العرش، كانوا قد استعانوا بطبقة العلماء، من أجل إضفاء الشرعية على حكمهم(١٤). وهكذا صاروا في موقع نفوذ أكثر رفعة ومقاماً من الحاكم نفسه؛ وما الهبات والعطايا التي كانت تصل إليهم من السلاطين، إلا مظهر من مظاهر إثبات الزهد والتقوى والتمسّك الشديد بأهداب الدين.

تحقق لرجال الدين الحصول على مكانة رفيعة لدى مؤسسة العرش، حتى ارتبط كثير من علماء الدين بصداقات شخصية مع السلاطين، واضطلع الكثير منهم بمهمات خاصة كلفهم بها السلطان. ولم يتوقف الأمر عند جيل واحد من العلماء، بل تخطاه ليبلغ حالة من الإرث العائلي الخاص لدى أسر علمية بعينها(١٥)، معتمدين في ذلك على تداول العلوم الدينية والتفقّه في شؤون العقيدة. وهكذا توزعت المناصب بين العلماء في مجالات القضاء والفقه، ليمكنهم هذا من التوجّه نحو تعمير المساجد والحلقات العلمية التي تتم فيها دراسة العلوم الشرعية والعربية والمنطق والحساب.

ازدهرت الحياة الثقافية والعلمية في مملكة مالي بشكل لافت للنظر، وصارت الكتب المخطوطة القادمة من شمال إفريقية تباع بأثمان

حرص على حفظ كتاب الله

مرتفعة، خاصة في مدينة تمبكتو، فقد كانت تتم مقايضتها بسلعة الملح ذات القيمة المكافئة للذهب. واهتم(١٦) السلاطين بإنشاء مكتبة علمية كبيرة، حُشد فيها الكثير من الكتبة والنُساخ، بل إن مؤسسة العرش كانت تقوم بتقديم المخطوطات كهدايا نفيسة إلى علماء الدين البارزين. وعلى الرغم من هذا التطلع نحو التعلّم والاهتمام بمعاهد العلم، فقد ظلّت المرجعية الثقافية تتطلع نحو المراكز العلمية في الشمال الإفريقي، عند الأزهر في القاهرة، وفاس في المغرب التي كان لها الأثر الأهم في انتشار المذهب المالكي. بالإضافة إلى المكانة الرفيعة التي حصلت عليها معاهد العلم الدينية في موريتانيا بسبب انتشار المذهب المالكي فيها. ولا بد من التنبه هنا إلى أن ارتفاع تكاليف الدراسة، لم يكن ليتيح للأغلبية التوجه نحو هذا المجال(١٧). فالمخطوطات كانت غالية الثمن بحكم ندرتها وصعوبة الحصول عليها، كما أن رحلة العلم الشاقة والطويلة إلى المراكز العلمية في مكة والمدينة والقاهرة وفاس وبعض المراكز العلمية في موريتانيا، والتكاليف الباهظة التي تتطلبها، جعلت الأمر مقصوراً على فئة بعينها. ولكن هذا كله لم يكن ليمنع أبناء الأسر الفقيرة من الانخراط في مجال الدراسة، إذ كانوا يتوجهون للتعلم على يد أحد(١٨) المشايخ مع التعهد بتسديد الأجور، عن طريق العمل لديه فترة معلومة.



التقاليد الوثنية لا يزال لها وجودها

كان الاتصال الإسلامي الأول ببلاد الهوسا، قد تم خلال حكم «ياجي» ١٣٤٩ - ١٣٨٥م، عن طريق التجار المسلمين. وقيض لهم الحصول على مكانة رفيعة لدى ملك الهوسا، إلا أن اتصالاتهم بقيت مقصورة على الطبقة العليا؛ إذ بقي الأغلب من السكان على ديانتهم التقليدية. لكن الانتشار الأوسع كان قد تبدّى خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر، عندما وفد إلى بلاد الهوسا مسلمون من الفولاني، وقد أسهم هؤلاء بشكل واسع في محاربة التقاليد الوثنية، والتركيز في نشر العقيدة الإسلامية، وإنشاء معاهد لتعلّم الفقه والحديث وحفظ القرآن، في مدن برنو وتمبكتو وكاتسنا. وكانت مدينة تمبكتو قد حظيت بمكانة ثقافية بالغة التأثير خلال القرن السادس عشر(١٩)، فقد برزت الاتجاهات الواسعة نحو دراسة العلوم الدينية والثقافية العامة من أدب وتاريخ، والعلوم الجغرافية.

المراجع

١. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥م، جـ٥، ص ٢٩٢.
٢. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م، ص٦٩٨.
٣. إبراهيم علي طرفان، إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٠م، ص٦١.
٤. بوفل، الممالك الإسلامية في غرب إفريقية وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة د. زاهر رياض، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٨م، ص٤٩.
٥. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، دار النهضة العربية، لا مكان ١٩٦٣م، جـ١، ص١٦.
٦. بازل دافيدسون، إفريقية تكتشف من جديد، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، لا تاريخ، ص٢١.
٧. مادهو بانيكار، الوثنية والإسلام، ترجمة أحمد فؤاد بليع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨م، جـ٢، ص٤٩٥.
٨. حسن عيسى عبدالظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية، وقيام دولة الفولاني، الزهراء للإعلام الغربي، القاهرة ١٩٩١م، ص٣٦.
٩. زاهر رياض، كشف إفريقية، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦١م، ص٥٢.
١٠. عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في إفريقية، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٧.
١١. عبدالله عبد الرزاق إبراهيم، الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٨٤م، ص٥٦.
١٢. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٦٩٨.
١٣. دونالد وايدنر، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ترجمة شوقي الجمل وعلي أحمد فخري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٦٧م، جـ١، ص٨٢.
١٤. عبدالرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر، القاهرة ١٩٦١م، ص٥٥.
١٥. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص٣٤.
١٦. ليون الإفريقي، وصف إفريقية، ترجمة عبدالرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٣٩٩هـ، ص٥٤١.
١٧. مادهو بانيكار، مرجع سابق، ص٥٠٣.
١٨. د. جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٦م، ص١٥٩.
١٩. عبدالرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص٧٢.

مجلات الأطفال بين الواقع والمأمول

نشأت المصري

القاهرة ـ مصر

إن سنّة هذا العصر التطور المتلاحق في المجالات كافة وفي فترات بينية بالغة القصر.. فما موقع مجلات الأطفال العربية من هذه الحقيقة بعد مسيرة قدرها ١٣٠ عامًا بدأت بظهور أول مجلة للأطفال في مصر عام ١٨٧٠م وهي مجلة روضة المدارس التي سبقت أول صحيفة أمريكية للأطفال بنحو ربع قرن؟





ومن البديهي أن نتساءل: ما السبل التي تنتهجها المجلات الآن لتحقيق أهم أهدافها وهو إرساء القيم وتنشئة طفل سويّ مثقف قادر على الحلم، مؤهل لترجمة الأحلام إلى واقع بالإبداع والابتكار والمغامرة في مراحله السنية التالية؟.. ثم ما حساباتنا لصنع ملاءمة الطفل لمعطيات العولمة دون أن يفقد هويته؟ وما المتاح والمأمول؟. وما مدى الفجوات بين تلك المحدِّدات؟

يقول المتصوفة: «من ذاق عرف». وقد تيسر لصاحب هذا البحث الإشراف على بعض ملحقات ومجلات الأطفال في مصر والعالم العربي وأمريكا، وما تبع ذلك من تعدد المناخات والتجارب، وفي هذا البحث نُعْنَى بالناحية التطبيقية للإفلات من اعتياد التنظير الذي ينتهي إلى الأدراج المسكونة بالسكون والنسيان، ونبدأ بما قدمته المجلات العربية في الشهور الأخيرة استنادًا إلى المعايير الآتية:

- القيم التي تطرحها هذه الإصدارات.
- الجانب العلمي وكيفية معالجته وألوان طرحه دراميًا.
- مدى مساهمة المجلات في إلغاء اتجاهات التلقين وأحادية التفكير التي تسودُ المجتمعات النامية، وإلغاء القيم السالبة.
- نجاح مضامين الأعمال في الجمع بين أكثر من هدف إيجابي.
- القيمُ السياسية التي ترسيها هذه المضامين ودورها في تأسيس الطفل العربي وتأكيد مفاهيم الشورى والانتماء.
- نصيب الأطفال في تحرير هذه المجلات وغياب التعقيب من مدح أو ذم بما يجعل تلك الكتابات أصداءً في صحراء.

ونحن نعلم أن الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة وعدت بطفرة غير مسبوقة ـ كما ادّعت ـ بمناسبة دخول الألفية الثالثة، ولهذا أحاول أن أتلمس هذه الأماني وتلك الوعود بمسايرة

عصر الاتصالات والمعلومات فيما صدر من مجلات، وقمت بجولة طويلة في المجلات الصادرة في النصف الأول من هذا العام وهي: أحمد، وبلبل، وثورمان، وسعد، وسمير، والعربي الصغير، وعلاء الدين، وقطر الندى، والكابتن سمير، وماجد، ومرحبًا، والمسلم الصغير والشباب، وميكي، وميكي جيب.

ولم أجد ضرورة لتدوين الملاحظات الخاصة بكل مجلة على حدة، فالأعراض عامة وشائعة، ومع تفاوت الإيجابيات فإنها لا تتخطى دوائر المألوف، كما أنني لم أجد نتائج فارقة بين ملامح التغيير التي أجرتها كلُ مجلة على موادها وإخراجها، وفي تجربة سريعة، نزعت غلافي عددين من مجلة واحدة بينهما أربع سنوات، وكلفت طفلاً في العاشرة أن يقرأهما ويحدد المطبوعة الأحدث، فعجز الطفل تمامًا عن التحديد، ثم عرضت المطبوعتين على طالب جامعي فعجز هو الآخر عن التحديد، وكررت التجربة خمس مرات بلا جدوى، مع اختلاف المجلات والأشخاص، وإذا جاز أن يكون ذلك محتملاً فيما يتعلق بعالم الكتب، فإن الأمر يختلف في مجال الصحافة، وبالطبع ليست مجلة الطفل مجلة أخبار أو حوادث، لكنها على أية حال نافذةٌ تطل منها ملامح من الفكر والتاريخ والواقع، ووقوف المجلة عند بعض الأخبار يمكن أن يكون مصدراً غنيًا لمادة درامية متجددة.

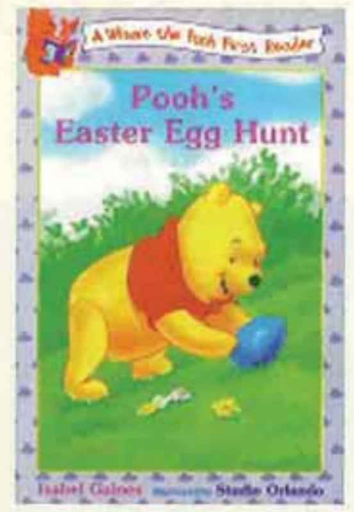
ومما لا شك فيه أن فترة الموازنة، وهي أربع سنوات، ليست فترة قصيرة في عالم بدأ يستخدم مقياس الفيمتوثانية.

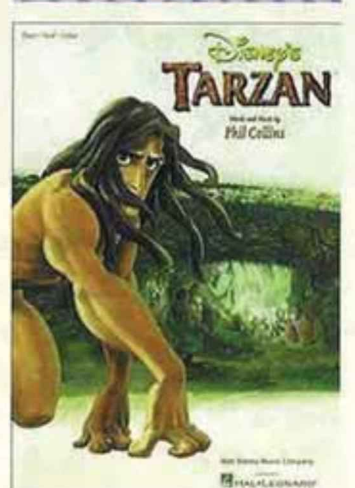
ولكي تتضح الصورة نستعرض معًا بعض المواد المتناثرة في المجلات والتي تشكل الطابع العام للمضامين السائدة، والدائرة المتاحة التي يضطر الطفل إلى التعامل معها.

جولة في المجلات العربية

في مجال الرسوم المصورة أثيرت تلك الموضوعات:

الجرأة في تعليم السباحة، والمصروف الشخصي وطريقة إنفاقه، ومغامرة خيالية تتعلق بالفراعنة، وآفة الرشوة على غرار الأفلام المصرية القديمة، وحيلة دجالة تدعى معرفة الغيب، ومغامرة بوليسية للبحث عن فتاة، وأمُ تعطي منومًا لطفلها لتحضر حفلاً، ولا أدري لمن هذا الخطاب، وأضحك مع كرة القدم، واستخدام الإنترنت لـلقبض على مجرم هارب، ومغامرة خيالية لغزو كوكب الألماس، وقصص تاريخية من التراث الإسلامي، وحكاية دودتين تبحثان عن مكان ملائم، وتلميذة لا تذاكر دروسها، ومساهمة طفلين في القبض على تاجر مخدرات بوسائل ساذجة، وطفل غبي يثير المرح، وجار يخون الأمانة مع جاره التاجر، وإحدى حكايات «إيسوب»، وقصص غير منتقاة من حكايات جحا، وقصص حول البحث عن الجاني.





وتلك الموضوعات ـ كما نرى ـ لا بأس بها، لكن هل هذه الألوان تكفي لبناء طفل القرن الحادي والعشرين، وأين الصياغات المبتكرة الدرامية الشائقة للعلوم، ثم ما هذه الرسوم التي تكاد أن تكون تقطيعًا للنص السردي دون تدخل درامي.

ونتطرق إلى مجال الطُرف والمسابقات، وتدور المحتويات حول ما يأتي:

تحديد نقاط الاتفاق والاختلاف بين صور الأشخاص والحيوانات، ومتاهات يسلكها الفلاح أو الطائر ليصل إلى نقطة أخرى، وإعادة تجميع الرسوم الممزقة فقط، واستكمال رسوم بعض الكائنات، وهذه الأنماط السابقة معروفة ومألوفة منذ عشرات السنين.

وفي معظم المجلات نجد صفحة أو زاوية للدين تعتمد عادة على قطوف من التراث الإسلامي، وكثيراً ما تحتوي على كلمات وتعبيرات مكثفة يعجز الطفل عن إدراكها.

ومن الصفحات المتخصصة كذلك صفحة أو أكثر عن أحدث المنجزات العلمية التي تُساق في سياق خبري لا جهد فيه، وصفحات رياضية وفنية. وصفحات أخرى منوعة، وعرض لحياة بعض الشخصيات العلمية والدينية ومنجزاتها.

وفي عالم القصص الأثير لدى الأطفال نقرأ القصص المؤلفة عن: نشاط عصفور، ومطاردة الذباب، ومشكلة مدرسة...إلى آخره.

ومع تقليدية هذه الموضوعات وأهميتها في الوقت نفسه، فإننا نطمح إلى موضوعات أحدث وأرحب. إلا أن العَجب العُجاب نراه في القصص المترجمة، فالمفروض أن نركز في ما هو عصري مع الاختيار الجيد الحذر، فما رأيكم في قصة مستوردة من ألمانيا على شاكلة حكايات جحا، أبطالها الماعز والعصا والعسل والراعي القديم، وقصة أخرى عن الروسية من فصيلة كليلة ودمنة، وثالثة من فلكلور الهنود الحمر، ورابعة من آسيا حول مفارقات تقع لرجل ضعيف الذاكرة، وخامسة عن صانع فخار في قديم الزمان.

ومن الأبواب الرئيسة الثابتة أبواب المراسلات وكتاباتُ المندوبين الصغار، وهي على الوتيرة البائدة نفسها، وقد أزعجتني بعض اللقطات بأقلام الأطفال التي تفوح منها جراثيم النفاق عند الحديث عن زيارة وكيل الوزارة للمدرسة وهي جزء من عمله ووظيفته، وما أوسع الهوة بين احترامِ الصغير للكبير وبين تبجيل الوظيفة المَرضي وطأطأة الرأس لها بما يزرع في نفوس صغارنا بذور العبودية لغير الله.

ومن الملاحظ انعدام باب شعر الفصحى أو فقره مع وجود قصائد بالعامية، وهو اتجاه غريب يثير البلبلة، كما يعوق استيعاب الفصحى.

ولا بد من الإشارة إلى عدة موضوعات أثلجت صدري، مثل بعض القصص عن البيئة، وقصيدة عن طفل من الشيشان، والقليل من مسابقات الحروف التي تدور حول معلومات حديثة يستفيد منها الطفل في حياته اليومية. وكذلك الفقرات التي تعالج الاكتشافات الحديثة، وتلك خُطوة على الطريق، إذ إن ترديد مفردات التقانة (التكنولوجيا) لا يؤدي إلى التقدم وشيوع التفكير العلمي، كما أن العلم دون توظيفه توظيفاً قيمياً وأخلاقياً يبتعد بنا عن الغاية، وهذه شهادة الكاتب الأمريكي فرانسيس فوكوياما في كتابه «الانهيار العظيم» يقول: «إن ثورة المعلومات هدّمت المجتمع في العالم المتقدم»، وذلك لانفصال تقدم العلم عن تقدم الأخلاق. وفي كل الحالات نقول مع الفيلسوف القديم: «أنت لا تستطيع السباحة في النهر ذاته مرتين، فإن مياهاً جديدة تجري دائماً من حولك». مشيراً بذلك إلى التغيير الضروري للحياة.

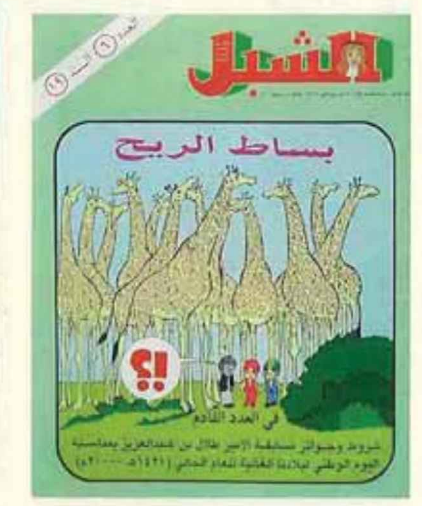
والآن.. بعد هذا السرد الخاطف المحيط بمحتويات المجلات على الإجمال أقول: هل هذه الموضوعات وما يماثلها قادرة على بناء طفل قوي قيمياً وعلمياً؟

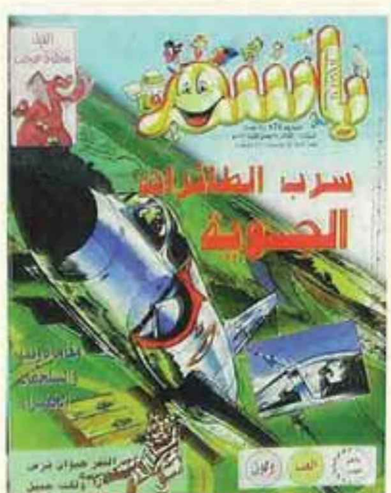
الثلاثية الغائبة

لقد أثارت هذه القراءات أسئلة ملحة اجتزئ منها ما أود متابعته تطبيقياً وهو: الهدف الإستراتيجي المتميز لكل مجلة، والبعد الديني والأخلاقي كخلفية حتمية للأعمال دون إعلان أو افتعال، وقضية زرع الانتماء في وجدان الطفل وعقله.

الهدف الإستراتيجي

لو أن كلَّ مجلة عزفت المعزوفات الجزئية المتناثرة نفسها وأصبحت مثل السوبر ماركت فكيف نصل إلى تشكيل الطفل ولمس أعماقه؟ وأبدأ بطرح هدف أراه بالغ الأهمية والخطورة،





وهو استنفار إحساس الطفل العربي بعامل الزمن.. ونعني طفل مرحلة القراءة وما بعدها، وهي المرحلة الثالثة التي يتقدم فيها شعور الطفل بالزمن والسرعة وفقاً لتجارب «جان بياجيه» المعروفة، وهي المرحلة التي يصل فيها التطور العقلي في بدايتها إلى ٨٠٪.

وبما أنّ تقدير الزمن واستثماره هما من أشراط التقدم، بل إن تطور التقانة (التكنولوجيا) هو اختصار دائم للزمن، فمن الأهمية بمكان تنمية إدراك الزمن وضرورة استثماره منذ مرحلة الطفولة، وربطه بمحاور ثلاثة: الزمن بوصفه ثروة نحرص عليها لمردودها المادي والعملي.. ثم الزمن من منظور ديني لأن الله يحاسب الإنسان على ما منحه من ثروة الوقت وكيف أنفقها؟ وثالثاً، استثمار الزمن من أجل متعة العمل ومتعة الترفيه بنسبة متوازنة. والمحاور الثلاثة تتماس في نقاط كثيرة.

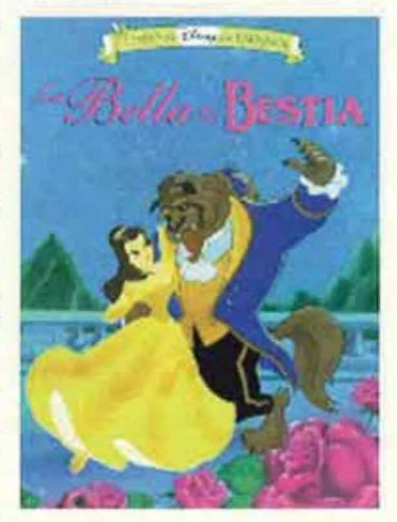
وعندما تتبنى إحدى المجلات هذه (الاستراتيجية) يتم تجنيد معظم أبوابها لهذه الفكرة، وشيئًا فشيئًا تحصل على إنسان يقدر الوقت، ومن ثمّ على مجتمع قوي تتضاعف فيه الابتكارات والإنجازات والبناء في إطار إنساني يكفل تحقيق النهضة المتكافئة.. وهذا مجرد مثل لهدف واحد، وذلك النهج يختلف عن فكرة المجلات المتخصصة الشائعة في أوربا وأمريكا، وهي فكرة أخرى جديرة بالبحث والاتباع.. إننا نأمل أن تكون كل مجلة بمنزلة مؤسسة كاملة مستقلة متميزة بأهدافها ورسالتها ووسائلها ومصادرها ونتائجها.

البُعد الديني والأخلاقي أو «القيمي»

هذا العامل هو بلا شك أهم العوامل على الإطلاق، وبتوافره تصلح بقية العوامل، وكما أشرت من قبل لا نطلب من المجلات صفحات أكثر للقطوف الدينية، والقصص المباشرة، والمواقف الوعظية، لكنني أتطلع إلى تنفيذ مفهوم أسلمة المعارف، وأسلمة مواد المجلة، فإن كلّ قصة أو لغز أو حتى ابتسامة تنطوي على قيمة إنسانية ترتقي بالقارئ هو عمل ديني إسلامي أخلاقي قيمي. إن الإسلام منهج حياة كاملة، وإن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، تجد لها مجالاً دائمًا في تضاعيف الموضوعات المختلفة إذا تمتع الكاتب بحد ملائم من الثقافة الإسلامية؛ أما تخصيص صفحة أو أكثر لموضوعات دينية مباشرة فهو شكل مدرسي قد يفيد لكنه لا يغير.

إن الدين يبني الإنسان بناءً لا عوج فيه على الفطرة التي خلقه الله عليها، وهو سبحانه وتعالى أعلمُ بخلقه، وقد فطن العالم إلى أهمية تنمية الإنسان قبل تنمية الثروة، فجاء في إعلان اليونسكو المسمى إعلان كوكيوك عام ١٩٧٤م: «يجب أن تهدف التنمية إلى تطوير الإنسان لا تطوير الأشياء».

ويجأر الغرب وأمريكا من التدهور الأخلاقي الذي يستشري بين الأطفال هناك وظهور نموذج الطفل القاتل، وخلال هذا المشهد وقع في أمريكا حادث من هذا القبيل، ومثل هذه الأخبار تدعونا بشدة إلى إيجاد مضاد ثقافي إعلامي قيمي ضد هذه الفيروسات التي صاحبت ثورة المعلومات والاتصالات في الغرب، ومن تلك المضادات أو الأمصال الواقية الاختيار الدقيق لما يترجم، واللجوء إلى التعريب بدلاً من الترجمة، لكن.. مع الإغراق الناشئ عن فيضانات معلومات الإنترنت والقنوات الفضائية المتزايدة، والمواد العشوائية المترجمة يكون وجود الآباء والأمهات وقتًا أطول مع أطفالهم علاجًا لا غنى عنه للتعقيب ومناقشة ما يطالعه الأطفال لتنمية حاسة النقد ورفض الأعمال الفاسدة، والأجدى من ذلك أسلوب الحماية من المنبع بتوخي الدقة والأمانة في اختيار ما يترجم، وتقديم المادة المؤلفة الشائقة الجذابة ـ المدروسة نفسيًا ـ وإغراق وقت الطفل بكم كبير من المواد فلا يتبقى أمامه وقت آخر للمواد العشوائية؛ ولتفعيل هذا نحتاج إلى تمويل عام وخاص كبيرين، وأسرة مثقفة قادرة على الاختيار والتوجيه، يساعدها على أداء مهمتها وجودُ تيار من النقد الأدبي التطبيقي الذي لا نعرف له أرضًا حتى الآن. ولابد من وقفة مع القدوة التي تشكل البوصلة التي تضبط مسار الطفل، وإنني أؤيد بشدة عودة ظهور الأبطال المثاليين في كتابتنا ليكونوا شخصيات جاذبة لأبدع ما في فطرة الأبناء، ولبناء طموحاتهم الروحية، ولا يقل أهمية عن ذلك إبراز شخصية الأب القدوة لتعويض شخصية الأب الغائب ـ في الواقع ـ عن أبنائه حتى في حضوره، وقد وصلت إلينا آفة الأسرة النووية التي تحدث عنها فلاسفة الغرب حيث ينعزل الأفراد بعضهم عن بعض أمام التلفاز والحاسوب والصراع على الكسب، بالإضافة إلى الفقر الثقافي.



إن الشاب العربي الذي يخوض تجربة بناء أسرة مثقلٌ بأعباء غليظة تبتعد به عن صورة الأب المثالي. فهل تقوم مجلاتنا بتقديم البديل النظري لشخصية الأب إلى جوار ابتكار شخصيات أطفال جديدة؟

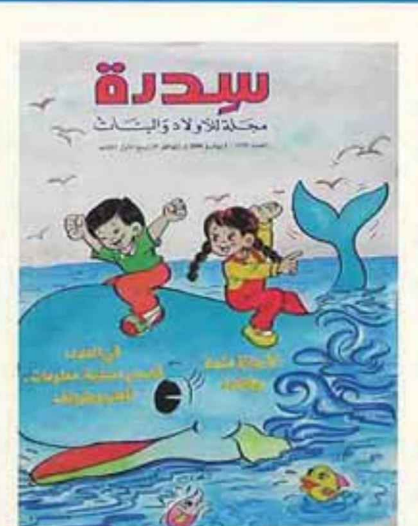
واستكمالاً لبناء شخصية الطفل وقيمه على النحو المأمول لا نقدم له ما نريد على سبيل التلقين، وإنما نقدم له الحقائق من خلال المقاومة، فنطرح الواقع على الأطفال من خلال التصادم والتجربة والخطأ والصراع والحركة لشحذ فعالية الطفل كما يقرر الفيلسوف كارل بوبر في كتابه «بحثًا عن عالم أفضل»، وذلك بدلاً من طرح الواقع كمسلمات وبديهيات تطرحنا على أرض التسليم والاستسلام، وبهذا يتعود الطفل البحث عن عالم أفضل وهو غريزة من أهم غرائز الحياة.

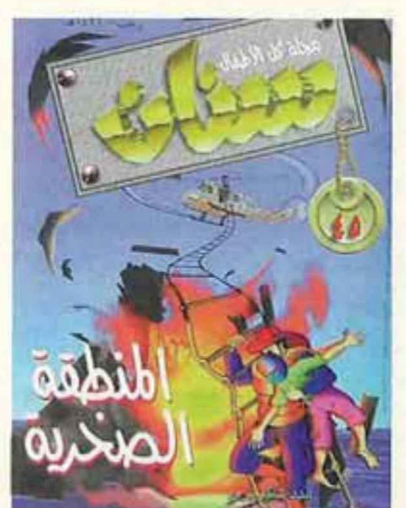
وتظل الاستعانة بمستشار في علم النفس في كل مجلة لتقويم أعدادها قبل النشر ضرورة حيوية.

زرع الانتماء

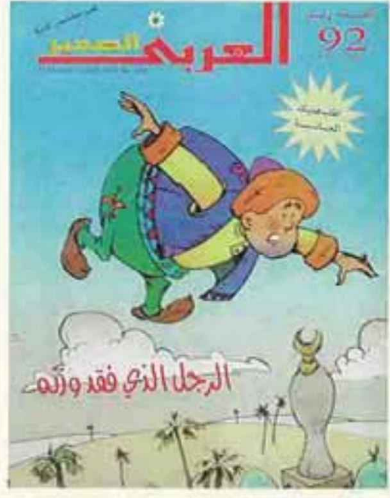
أعتقد أننا نتفق على أن شبابنا اليوم في الجامعات وغيرها يعاني من ضعف الشعور بالانتماء لأسباب شتى، وإذا كان هذا هو حال الشباب فكيف سيكون حال أطفالنا غداً أو بعد غد؟!

إن إشارة الخطر الحمراء تطل علينا من كل مكان تحذرنا من بحار العولمة، وزرع الانتماء هو أحد أطواق النجاة التي نسبح بها آمنين في تلك البحار، كما أن الوعي السياسي والحرية العامة ضرورتان يجب توافرهما في المجتمع، وإرساء قواعدهما في نفوس أطفالنا، ومما يؤسف له أن تسييس الطفل العربي لا وجود له في مجلاتنا اللهم إلا محاولات محدودة في مجلة أو مجلتين، وليس من باب الرفق بالطفل أن نقيم له على الورق عالمًا بهيجاً جداً آمناً جداً راكداً ثم نقذفُ به فجأة إلى عالم الكبار ليجد الصورة المتناقضة، ولتكن سنوات الطفولة كثيراً من الحلم وقليلاً من الحقيقة بدلاً من الحلم الخالص، وهذا كله يحتاج إلى ثورة حقيقية في عالم الكتابة للأطفال.









بين التصور والتجربة (حكاية زمزم)

أعبر سريعاً بتجربتي الخاصة في رئاسة تحرير مجلة «زمزم» التي استمرت تسع سنوات بدءاً من عام ١٩٨٨م، لقد شغلتني عدة قضايا تطلبت إجابة سريعة وعملية من خلال ما ينبغي تقديمه على صفحات المجلة مع غياب التجارب الكافية في مجال مجلات الأطفال الإسلامية الطابع.

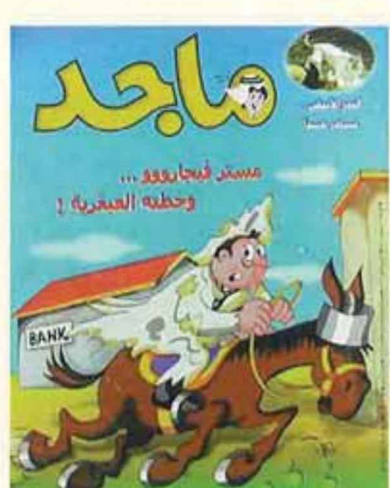
لقد بدأت المجلة في ٣٦ صفحة للعدد، من المقاس الشائع: مقاس ٢٠×٢٨سم، أما القضايا التي ظلت مطروحة ولا تزال فهي:

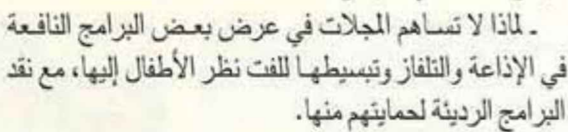
- فتح سبل جديدة لبث القيم الدينية والأخلاقية في وجدان الطفل، وتجاوز الشكل التقليدي في تقديم القصة الدينية والتاريخية، وأسلمة مواد المجلة دون افتعال أو نبرة وعظية.
- جعل الطفل طرفاً فعالاً في العملية الإبداعية كاتباً ومحرراً وناقداً يقرأ مواد المجلة قبل طبعها.
- شحذ نقاط التميز، وتجلية الحس الجمالي عند الطفل، والجمع بين أكثر من هدف واحد في العمل الواحد بما يستوعب الأهداف الموضحة في الثلاثية الغائبة.
- الحفاظ على هوية الطفل مع تقديم أحدث ما يدور في العالم من منظور إسلامي.
- تحويل كلمة الافتتاحية إلى قصة تنطوي على قيمة إنسانية.

وعلى الرغم من إقبال الأطفال على المجلة عانت من معوقات مالية أثرت تأثيراً مباشراً في جودة الإخراج، وحجم الملازم الملونة وما إلى ذلك، وهذا يوضح أهمية التمويل العام لمشروعات مجلات الأطفال لضمان الجودة والاستمرار، على أن تطلق الحرية الكاملة للقائمين عليها..

نظرات واقتراحات

ـ ليس كل أديب كبير يكتب للكبار ينجح في الكتابة للأطفال، ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك إخفاق توماس إليوت في قصيدة «القطط العمياء» التي كتبت خصيصى للأطفال، وقد حدث أن مجلة مصرية واسعة الانتشار كانت تنشر بابًا فكريًا ثابتًا لأستاذ جامعي مرموق، وعندما كاشفته بعدم صلاحية أسلوب العرض للكبار اعترف بذلك، إلا أن هذا الباب استمر فترة طويلة، فأهلاً بكبار الكتاب إذا أجادوا.. فقط.. إذا أجادوا.





ـ لماذا لا تساهم المجلات في عرض بعض البرامج النافعة في الإذاعة والتلفاز وتبسيطها للفت نظر الأطفال إليها، مع نقد البرامج الرديئة لحمايتهم منها.

ـ لمسايرة التقدم يتم إنتاج قرص مدمج ((CD مكمل للمجلة كل عدة أشهر، للتوسع في بعض المواد المكتوبة توسعًا شائقًا، وربط الطفل بالحاسوب والإفادة من إمكاناته.

ـ يجب تقليص مساحة المواد التعليمية وتركها للمدارس.

ـ لا نريد لعقول أطفالنا أن تصبح رفوفًا توضع عليها أحدث ما أنتجته التقانة (التكنولوجيا)، بل نريد لعقولهم أن تتدرب وتجهز لتكون فعالةً مشاركةً في صناعة التقانة (التكنولوجيا) وإبداعها.

ـ أبواب المسابقات والاختبارات في حاجة إلى تجديد جذري يرتبط بالمستقبل.

ـ إن وجود شيء من العلم والموضوعات المعاصرة ليس حجةً في دفاع المجلة عن نفسها، فالعبرة بنسب وجود هذه الموضوعات، وهي نسب تنطوي على خلل كبير، كما أن الأولويات مهدرة ومعكوسة.

ـ لا بد من الانتقاء الدقيق للمواد حتى لو أصبح حجم المطبوعة أقل من ذي قبل.

ـ الاستفادة أولاً بأول من المعطيات الحديثة والمعلومات التي تقدمها شبكة (الإنترنت).

ـ ما نعاني منه من أمية ثقافية في شريحة الكبار من المتعلمين يرتد في جانب منه إلى أمّية الطفل الثقافية الأولى وما يترتب عليها من وأد لمواهبه المحتملة، وعلى المجلات وضع خُطة لاستكشاف هذه المواهب.

ـ قصور ثقافة الطفل هو أحد أسباب تخلف العالم الثالث وأعراضه، ولا يمكن موازنة تكلفة الثقافة بعائدها الضخم.

ـ على كل مجلة أن تحدد المرحلة السنية التي تسعى إليها كبداية لتحديد الأهداف، وأن تعلن هذه المرحلة على الغلاف.

ـ أمنية جميلة أن نقرأ العلم في ثوب درامي ذكي.

ـ إن إمكانية استقبال الطفل لما هو جديد كبيرة بالنسبة إلى إمكانية تطوير الكبار، فالطفل لا تقيّده بديهيات كثيرة تكبل عقول الكبار وخيالهم، وهذا يدعونا إلى التعامل مع الطفل بأكبر قدر من الانطلاق والتجاوز والدخول في الكتابة للطفل العربي دخولا ثوريًا، وثمة مشجعات كثيرة مثل رعاية بعض القيادات في الوطن العربي لقضايا الطفل المختلفة، وتخصيص اعتمادات متزايدة لها، وإقامة مؤسسات نشيطة في هذا المضمار.

ـ بالكلمة الفعالة نصنع طفل التحدي والصمود حتى لا تدوسه أقدام المتربصين بالوطن، نريد طفلاً مجهزًا بمعمل (لعبه) يتحول عندما يكبر إلى معمل حقيقي يعالج فيه مشكلات المجتمع، نريد طفلاً يعشق وطنه وأرضه وتراثه وإسلامه، نريد جيلاً به عشرات الآلاف من العلماء تصنعه صناعة عربية إسلامية من لُحمة الواقع يصلح ما أفسدناه.

ـ من المهم أن تتحول مؤتمرات الطفولة إلى إضاءة حقيقية على دروب المستقبل العربي بتوزيع مختصر للتوصيات على الجهات المعنية في الريف والحضر، ومتابعة تطبيقها، مع منح ميدالية شرفية كل عام لأفضل مجلة متطورة.

وأخيرًا...

وحتى لا نظلم مجلات الأطفال العربية والقائمين عليها نقول: أليست الموضوعات المنشورة والخيال العلمي اللاهث خلف قاطرة الغرب تعبيرًا وصدى لحال العقل العربي الراهن، وتواضع التقدم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي؟ أليست تلك المجلات فقرة في المنظومة العربية السائدة بسلبياتها وإيجابياتها؟ فلمَ القسوة إذن في النقد؟!

ومن ناحيةٍ أخرى نقول إن ميدان الطفولة أكثر رحابة وترحيبًا بما هو جديد، فلندخل في معمعة التجاوز والانطلاق لتصبح العصافير نسورًا، ولنطلق الآن نفير البداية.

أغذية من الهندسة الوراثية

محيي الدين لبنية
المدينة المنورة - السعودية

نجح العلماء خلال قرون طويلة من دراساتهم المستمرة في استنباط محاصيل نباتية جديدة بواسطة عمليات الانتخاب والتربية، وهي تمتاز بوفرة إنتاجها وقدرتها على مقاومة الأمراض أكثر من الأنواع المشتقة منها، ثم استفادوا حديثًا من التطورات الرائعة في تقنية الهندسة الوراثية، وعمليات الاندماج الخلوي في نقل صفات مرغوبة من نباتات إلى أخرى.

ويفيد هذا الاتجاه العلمي الحديث في حل مشكلات نقص الأغذية في العالم بإنتاج كمية أكبر من المحاصيل النباتية، كما تصبح بعضها ذات فوائد غذائية أكثر لجسم الإنسان، وتقل تكاليف إنتاجها، ولا تفسد محاصيلها بسرعة، وتقاوم الأعشاب الضارة والإصابة بالفيروسات والفطريات والحشرات. وظهرت حديثًا في أسواق بعض الدول كالولايات المتحدة وبريطانيا محاصيل نباتية جديدة عدلت بعض صفاتها بواسطة تقنية الهندسة الوراثية وحضرت منها بعض السلع الغذائية، لكن واجه هذا الاتجاه العلمي الحديث معارضةً شديدةً من عدد كبير من الناس لخوفهم أن تكون هذه الأغذية الجديدة ذات أضرار صحية، فامتنعوا عن شرائها مما أعاق التوسع في إنتاجها وتسويقها، ولاحظ ذلك المهتمون بهذا النوع الجديد من الإنتاج الغذائي المتفوق كمًا ونوعًا، فعقدوا الندوات العلمية التي نقلتها وسائل الإعلام المرئي والمسموع لإقناع الرأي العام بفوائد هذه التقنية العلمية الحديثة في زيادة الإنتاج النباتي، والأمان في استخدام السلع الغذائية المصنوع منها، ويعتقد بعضهم بقرب موعد توفر عدد متزايد من المحاصيل الزراعية التي عدلت بعض خواصها بالهندسة الوراثية في الأسواق، وكذلك منتجات تصنيعها التي قد تتفوق أحيانًا في ارتفاع نسب مكوناتها الغذائية من البروتينات والفيتامينات وغيرها على الأنواع التقليدية منها.

عمليات التعديل الوراثي للنباتات

تمكن العلماء قبل عقدين ونيف من الزمن من إجراء التعديل الوراثي لصفات بعض النباتات بعد نجاحهم في فصل المورثات من خلايا بعض الكائنات الحية، ونقلها من كائن إلى آخر، ثم عملت بالطريقة المرجوة منها في أماكنها الجديدة، وأمكن بواسطة هذه التقنية الحديثة فصل جزيء ال د. ن. ا الحامل للصفات الوراثية للخلايا ثم عومل بأنزيمات معينة لتكسير جزيئاته إلى شظايا بحجم مورث واحد أو أكثر، ثم أدخلت هذه الشظايا في جراثيم أو فيروسات معينة، فأصبحت تحتوي كل خلية منها على قطعة من جزيء ال. د. ن.ا الجديد، ثم يؤدي نمو هذه الكائنات الدقيقة الجديدة على بيئات خاصة إلى كبر حجم كل قطعة موجودة من جزيء ال. د. ن. ا فيها، وتنمو الفيروسات أو



الجراثيم في بيئات خاصة على شكل مستعمرات ثم تفحص المستعمرة المحتوية على المورث الخاص منها، وهو من أصعب مراحل هذه التقنية الجديدة، فتحصل في نهاية هذه العملية على خلية بكتيرية أو فيروس يحمل المورث ذا المواصفات المطلوبة، ثم يوفر نمو هذه الكائنات الحية الدقيقة على بيئات خاصة (مليجرامات من المورث المطلوب) ويمكن تعرف التركيب الجزيئي لهذا المورث ومعرفة صفاته، ثم إضافة إشارات خاصة إلى نهايته قبل إدخاله في جزيء د. ن. ا للخلية البكتيرية أو النبات أو الحيوان المراد نقل صفاته الوراثية إليه، وتكون الشفرة الوراثية عامة لذا يعمل المورث المنقول في العائل الجديد على إرسال الإشارت الصحيحة التي أدخلت فيه، وأمكن بهذه التقنية العلمية الحديثة الإنتاج التجاري للكثير من العقاقير مثل مركب أنترفيرون، وهرمون الأنسولين البشري وهرمون النمو البشري Growth hormone، في خلايا بكتيرية، كما استطاع علماء تربية النبات تعديل بعض صفات النباتات ومحاصيلها أو الحيوانات فأصبحت أوفر إنتاجاً، وأكثر فائدةً في تغذية الإنسان.

مزاياها

تفيد عمليات التعديل الوراثي لبعض صفات النباتات في حل مشكلات نقص الأغذية في العالم نتيجة إنتاج كميات أكبر من محاصيلها، كما يصبح بعضها ذا فوائد غذائية أكثر للحيوان والإنسان، ولا تفسد محاصيلها بسرعة، وتقاوم بشكل أكبر الأعشاب الضارة والأمراض التي تسببها الفيروسات والفطريات والحشرات، فتصبح تكلفة إنتاجها أقل من مثيلتها النباتات التقليدية، وحضر بهذه التقنية الحديثة نبات فول الصويا المعدل وراثيا عن طريق إدخال المورث إليه من بكتريا عزلت من التربة، وأصبح هذا النبات أكثر مقاومة للآفات الزراعية، ويعطي محصولاً أوفر من النوع العادي، وأعلن العالم مونسانتو - وهو أول منتج لفول الصويا المعدل وراثيا - إمكانية استعمال مقادير أقل من مبيدات الأعشاب عند زراعة هذا النبات، وأنه يوفر محصولاً أكبر، لذا يفضل المزارعون زراعته على نبات فول الصويا التقليدي، ووفر هذا النوع النباتي الجديد نحو ٢٪ من الإنتاج الكلي لفول الصويا بالولايات المتحدة عام ١٩٩٦م، و ١٥٪ في عام ١٩٩٧م، ونحو ٤٠٪ في عام ١٩٩٨م.

منتجاتها الغذائية

ظهرت في الأسواق البريطانية عام ١٩٩٧م بعض السلع الغذائية المحضرة من نباتات عدلت بعض صفاتها بواسطة تقنية الهندسة الوراثية، ولاقى استعمال بعضها كالجبن النباتي،

عمليات نقل المورثات تسبب خوفا في نفوس المستهلكين، بينما المعامل تجدُ في اكتشاف جوانبها الإيجابية والسلبية

وصلصة البندورة المحضرين منها الاستحسان من الأشخاص النباتيين، بما يخص مظهرهما وقوامهما، وفضلوا مذاقهما على المنتجات التقليدية المشابهة لهما، لكن أدى تناول الأغذية المحضرة من فول الصويا المعدل وراثياً إلى شكوى بعض الناس من أعراض حالة الحساسية الغذائية منها، مما يستوجب الكتابة على عبوات هذا النوع من السلع الغذائية بأنها محضرة بواسطة تقنية الهندسة الوراثية، وثارت عاصفة من الاحتجاجات من جمعيات حماية المستهلك ضد استخدام هذه الأغذية الجديدة في تغذية الإنسان، كما دخل محصول فول الصويا المعدل وراثياً حديثاً إلى بريطانيا لاستخدامه في تحضير علائق غذائية لتسمين الحيوانات، وليس لتصنيع أغذية للاستهلاك الآدمي، ولم يتمكن تجار التجزئة البريطانيون التمييز بين بذور فول الصويا المعدل وراثياً والنوع العادي منه، والولايات المتحدة هي المنتج الرئيس لهذا النبات في العالم بنوعيه المحور وراثياً والتقليدي، ولا يرغب المزارعون الأمريكيون فصل نوعي محصول هذا النبات بعضهما عن بعض إذا لم تتوافر طلبات شراء كافية من المستوردين لبذور فول الصويا المعدل وراثياً، وتكون تكاليف إنتاجه أقل من النوع التقليدي، ومحصوله أوفر لارتفاع مقاومة نباتاته للإصابة بالآفات الزراعية، وتعتقد حكومة الولايات المتحدة بأن عدم تصريح المصدرين لفول الصويا بأنه معدل وراثياً لا يخرق قانون تصديره حسب اتفاقيات منظمة التجارة العالمية، ويمكن حظر تصدير هذه البذور عند توافر أدلة علمية كافية بأنه غير مأمون صحياً، ولا يوفر الدقيق المحضر من بذور نباتات فول الصويا المعدلة وراثياً أي مزية للمستهلكين، وإنما يوفره للمنتجين لانخفاض تكلفة إنتاجه، ووفرة محصوله، وتستعمل مشتقات بذور فول الصويا في ٦٠٪ من السلع الغذائية المصنعة في بعض دول شرق آسيا، وفيها لا يمكن الاستغناء عن أطباق الطعام المحضرة منه على موائد سكانها، وليس للمستهلكين خيار في ذلك.







نباتات كثيرة عدلت بواسطة تقنية الهندسة الوراثية ولاقت إقبالاً كبيراً بين المستهلكين

تطوراتها

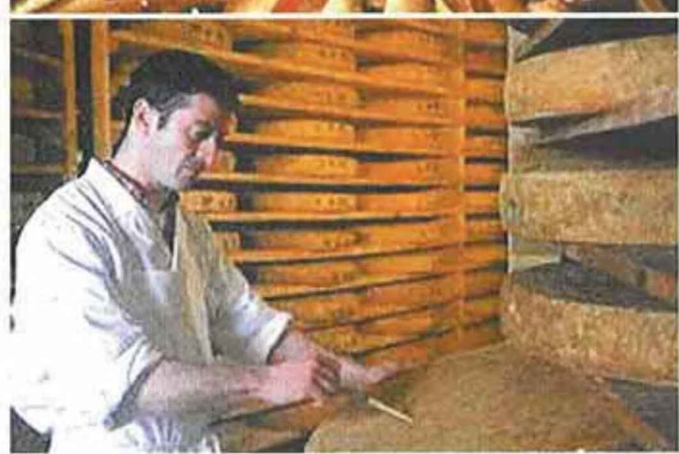
نجحت شركة بيونير هاي بريد العالمية Pioneer Hi-Breed International في تطوير نبات فول الصويا المحور وراثياً، واستخدمته في دراساتها العلمية لزيادة كمية الأحماض الأمينية المحتوية على عنصر الكبريت، وهي الميثيونين والسيستئين لاستعماله في تغذية الحيوانات، وهي تفيد في تشجيع نموها وسرعة تسمينها. ولهذا المحصول النباتي أهمية اقتصادية كبيرة للمشتغلين في تربية الدواجن وتسمينها، كما يمكن تحول الحمض الأميني ميثيونين في أجسام هذه الحيوانات إلى الحمض الأميني سيستئين، ويكون المركب ٢-اس ألبيومين 2S-Albumin الموجود بشكل استثنائي في الجوز البرازيلي غنياً بالميثونين والسيستئين، واختير المورث الموجود فيه كمانح، ويشتكي بعض الناس من حدوث تفاعلات فرط الحساسية في أجسامهم نتيجة أكلهم المكسرات، وتظهر أعراضها الصحية على شكل حكة خفيفة في الجلد، ويعتقد نحو ربع سكان الولايات المتحدة بأنهم وأطفالهم يعانون من الحساسية لأغذية معينة، وظهور أعراضها الصحية على أجسامهم، ويمكن تحديدها بإجراء اختبارات لمصل الدم، ويعاني بعض الناس من ظهور أعراض الحساسية الغذائية

عند تناولهم بعض الأغذية المحضرة، وتستعمل معظم شركات التقنية الوراثية في العالم كائنات حية دقيقة أكثر من النباتات الغذائية كمانح للمورث المرغوب في نقله إلى نباتات أخرى، وعلى الرغم من ذلك ما زالت شدة حالة الحساسية من البروتينات الميكروبية المكتشفة حديثًا غير محددة، ولم تجر عليها اختبارات كافية، ولم يعرف ما قد تسببه من مشكلات صحية في جسم الإنسان، ولقد طورت شركة بيونير هاي بريد العالمية نبات فول الصويا بواسطة تقنية الهندسة الوراثية لاستعماله في تحضير علائق غذائية لتسمين الحيوانات، كالدواجن، لكن لا تتوافر طريقة سهلة لتمييزه من النوع التقليدي المستعمل في طعام الإنسان، وتسبب بروتينات فول الصويا حدوث حالات أقل من الحساسية من بروتينات اللبن البقري المستعملة في صناعة مستحضرات أغذية الأطفال الخدج وسواهم.

الحساسية الغذائية منها

أثارت عمليات نقل المورثات بين مختلف الأحياء الدقيقة من جراثيم وفطريات وخمائر أو النباتات أو الحيوانات خوفًا في نفوس الكثير من الناس لأخطارها غير المتوقعة على صحتهم، فقد تسبب بروتينات المورثات حدوث الحساسية في جسم الإنسان، وقد تقوم شركات إنتاج الأغذية بواسطة تقنية الهندسة الوراثية بعمليات نقل البروتينات المسببة للحساسية الغذائية من كائنات مانحة إلى الأغذية، وتوقعت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية عام ١٩٩٢م حدوث هذه المشكلة عندما لاحظ العلماء حدوث الحساسية عند تناول بعض الأغذية النباتية المعدلة وراثيًا مما أوجب الكتابة على عبوات منتجاتها الغذائية بأنها حضرت بواسطة تقنية الهندسة الوراثية، وسجلتها في قائمة الأغذية المسببة لحدوث الحساسية الغذائية، فيمكن انتقال العوامل المسببة للحساسية من نبات إلى آخر بواسطة عمليات التلاعب بالمورثات في هذه التقنية الجديدة، كالذي حدث بعد نقل مورثات من الجوز البرازيلي إلى نبات فول الصويا، وتمكن العلماء من عزل العامل ألبيومين أس Albu-min S كمادة مسببة للحساسية الغذائية والموجودة في الجوز البرازيلي، ولاحظ العلماء شكوى الأشخاص الذين يعانون الحساسية من هذا النبات من ظهور أعراض حساسية مشابهة لاستخدامهم مستخلصات غذائية حضرت من بذور فول الصويا، وأجريت على نباتاتها تعديلات وراثية، وجمع





قد تتضمن عمليات نقل المورثات بين مختلف الأحياء بروتينات مسببة للحساسية مما يثير كثيرًا من الاعتراض عليها

أولئك العلماء مصل دم من أشخاص اشتكوا الحساسية من الجوز البرازيلي، وحللوا قدرة البروتينات في فول الصويا المحور وراثيا على الارتباط مع المركب ألبيومين أس في عينات مصل دمائهم.

رأي إدارة الغذاء والدواء الأمريكية

اشترطت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية F.D.A عام ١٩٩١م بما يخص استخدام الأغذية المحضرة من نباتات عدلت وراثيًا في تغذية الإنسان بألا تسبب ظهور أي مشكلات صحية، وأنها مأمونة صحيًا، وتحظر هذه الإدارة بيع أي أغذية عند ظهور أي مشكلات صحية نتيجة استهلاكها وعند احتوائها على مورثات نقلت من نباتات وسواها تسبب حدوث الحساسية الغذائية في جسم الإنسان، كما فرضت بهذا الخصوص تنظيمات خاصة باستخدام هذه الأغذية الجديدة في صناعة السلع الغذائية بشكل يشابه استعمال المواد المضافة للأغذية Food additives

كالمواد الملونة والمركبات الحافظة، وضرورة إجراء اختبارات السلامة عليها، والكتابة على عبوات منتجاتها بأنها حضرت من نباتات عدلت صفاتها وراثيًا، واحتاجت شركة بيونير هاي بريد العالمية إلى استشارة إدارة الغذاء والدواء الأمريكية بما يخص اختبارات الأمان على هذه الأغذية قبل تسويق منتجاتها في الولايات المتحدة وسواها.

القيود المفروضة عليها

تشترط إدارة الغذاء والدواء الأمريكية قبل تسويق السلع الغذائية المحضرة من النباتات المحورة وراثيًا الكتابة على عبوانها بأنها حضرت بهذه التقنية الجديدة وخاصةً بذور فول الصويا المعدل وراثيًا، وقد لا ينطبق ذلك على الأغذية الأخرى منها التي يندر أن تسبب حدوث الحساسية في جسم الإنسان، ويستعمل عدد من الشركات التجارية الكبيرة تقنية الهندسة الوراثية في إنتاج عدد متزايد من السلع الغذائية للإنسان والحيوان، وما زال الخوف يعيق انتشار بيعها في الأسواق لما قد تسببه من الحساسية الغذائية، وعقدت عدة مؤتمرات علمية حول هذه المشكلة الصحية لاختيار الحلول المناسبة لها، فأظهرت الحاجة إلى إجراء دراسات علمية أوسع على المركبات المسببة للحساسية التي قد توجد في هذه الأغذية الجديدة وخاصة البروتينات الموجودة فيها، فمثلاً سببت بذور نبات فول الصويا المحور وراثيًا من الأنواع المانحة له حدوث الحساسية الغذائية منه أدت إلى حدوث تفاعلات في مصل دم الأشخاص الذين أجري عليهم، فحظر استخدامه للاستهلاك الآدمي، وليس في تحضير العلائق الغذائية لتسمين الحيوانات.

مستقبلها؟

هنا يطرح السؤال نفسه عن كيفية تعرف السلع الغذائية المعروضة في الأسواق أكانت محضرة من الأنواع التقليدية للنباتات أم الأنواع المعدلة وراثيًا منها، وتحتاج الموافقة على



نقل المورثات يعامل معاملة المواد المضافة في المعلبات

بيع الأغذية المعدلة وراثيًا في الأسواق البريطانية لحماية المستهلكين مثلاً إلى موافقة لجنة النصح للأغذية. وفي إنجلترا وهي تضم ممثلين عن المستهلكين فيها، وخبراء للكشف عن سلامة المنتجات الغذائية الجديدة، وتأكدهم من سلامتها لصحة الإنسان والمشكلات التي قد تحدث عند استعمالها، وظهر اهتمام بعض العلماء حول وجود بعض المورثات التي تقاوم المضادات الحيوية في بعض النباتات المعدلة وراثيًا، لكن يتركز معظم خوف المستهلكين من خطرها على صحتهم، لذا يجب وضع بطاقة على سلع الأغذية المعدلة وراثيًا لاطلاع المستهلكين عليها.

وبلا شك سوف تستفيد الصناعات الغذائية من الهندسة الوراثية بعد اقتناع المستهلكين بفوائدها والأمان الصحي لاستخدامها في طعامهم، وتوافر شروط السلامة في إنتاجها والإشراف عليها. وتباع في أسواق الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما بعض السلع الغذائية المحضرة من المحاصيل النباتية الجديدة، بينما تعارض القوانين الغذائية في بعض الدول الأخرى استخدامها في تغذية الإنسان، وليس في تسمين الحيوانات، ويعتقد المتفائلون من علماء التغذية بعدم استمرار معارضة أعداد متزايدة من الناس استخدام هذه الأغذية الجديدة وقتًا طويلاً بعد إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات الصحية التي قد يسببها بعضها ومن ثم انتشار بيع منتجات تصنيعها في أسواق العالم لتفوق نباتاتها المعدلة وراثيًا على الأنواع التقليدية منها في وفرة إنتاجها، ومقاومتها للآفات الزراعية، وفوائدها الغذائية، وجودة خواصها. ولعل الوقت أصبح قريبًا لرؤيتنا في الأسواق ثمار خضراوات وفواكه وبذور محاصيل الهندسة الوراثية، وسلعًا غذائية متنوعة محضرة منها تتفوق في قيمتها الغذائية ومواصفات جودتها على الأنواع التقليدية منها؛ لاحتوائها على نسب أعلى من البروتينات والفيتامينات وغيرها.

المراجع

1- Burke,D. 1988.
Why all the fuss about genetically modified foods?
Brit. Med. J.,316:, 20 Jun., 1845.

2- Food and Drug Administration statement of policy.
Foods derived from new plant varieties.
Fed. regist. 1992, 57 (104), 22984 - 3004.

3- Food and drug Administration. Foodlabeling, foods derived
from new plants varities. Fed Regist. 1989, 49, 725 - 37.

4- Krause, M. V., and Mahan, L.K. (1984).
Food, Nutrion, and Diet therapy, p278.
W.B. Saunders Co., London, England.

5- Nestle, M. (1996).
Allergies to transgenic foods. Questions of policy?.
The New England. J. of Med., 334:, March 14, 726.

6- Passmor, R. and Eastwood, M.A. (1991)
Human Nutrition and Dietetics. P 200, 209, 290. Churchill livingstone, London, England.

الكرب في حياة الإنسان

محمد الدنيا
حمص - سورية



عندما تفوت المرء معرفة الكرب معرفة صحيحة، أو حينما لا يحسن عيش لحظاته، يصبح عدوانيًا، وقد يدمر حياته. يعبر الكرب في الواقع عن قدرات الشخص التكيفية المذهلة في مواجهة التهديدات والضغوط التي يمارسها العالم عليه.

وقد كشف الموضوع الحيوي الذي نشرته مجلة لو فيغارو الفرنسية Le Figaro magazine في عددها الصادر في أكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٩م أبعاد الكرب وتداعياته.

يروى أن هانس سلي قد عثر ذات صباح في سلة قمامة مختبره على جرذان حية، بعد أن رميت في الأسبوع الفائت على أنها ميتة، عقب تجارب قاسية أجريت عليها. واستنبط من هذا الموقف فكرة الكرب Stress، الكرب، في إشارة إلى مجمل ردود الفعل العصبية والهرمونية الموجودة عند كل فرد (إنسانًا كان أم حيوانًا) يواجه اعتداءً، والتي ترمي إلى الحفاظ على تماميته النفسية والبدنية.

إن البدن مزود، من أجل استمرار ثبات وسطه الداخلي إزاء تقلبات بيئته المفاجئة، بمجموعة آليات ناظمة للحالات الطارئة، هي نفسها دائمًا أيًا كان العامل المعتدي. إن من شأن نسمة هواء باردة أو رنين هاتف مباغت أن يبلبل توازن الجسم الداخلي، ويطلق استجابة موحدة وشاملة: الكرب، الشهير!

هناك غدّة هي بمنزلة القلب من آليات التكيف، ونعني بها زوج غدّتي الكظر اللتين تقعان فوق الكليتين. في الحقيقة، كل من هاتين الغدتين هي غدة مزدوجة: القسم الداخلي، لب الكظر، هو غدة الاعتداء، والقتال، أو الهروب؛ والقسم الخارجي، قشرة الكظر، هو غدة الخضوع والاستسلام. غدة للمكاسب، وأخرى للخسائر، حلان للتفاوض الوجودي المؤدي، عمليًا في أغلب الأحيان، إلى تسوية.

هرمونات الكرب

يؤدي الكرب إلى إطلاق الأدرينالين، الهرمون الذي يفرزه بشكل خاص لب الكظر، والنورادرينالين، الهرمون الذي تفرزه الأعصاب الودية. وعند وقوع تهديد - عدو، أو شدة من أي شكل كانت -، يختار الفرد المواجهة أو الهروب. ويكون الرد نشيطًا في الحالتين: القبول بالمواجهة يعني التقدير المحتمل للنصر المباشر؛ ويعني الهروب إرجاء احتمال هذا الفوز، ليس أكثر. يعمل النورادرينالين على تقليص أوعية الجلد ويحول الدم إلى العضلات؛ ويعمل الأدرينالين على تسريع ضربات القلب وتقويتها، ويحشد السكر الاحتياطي في الكبد. وبنتيجة تأثير هذين الهرمونين، يتدفق الوقود والأكسجين نحو الخلايا لتعزيز إنفاق الطاقة

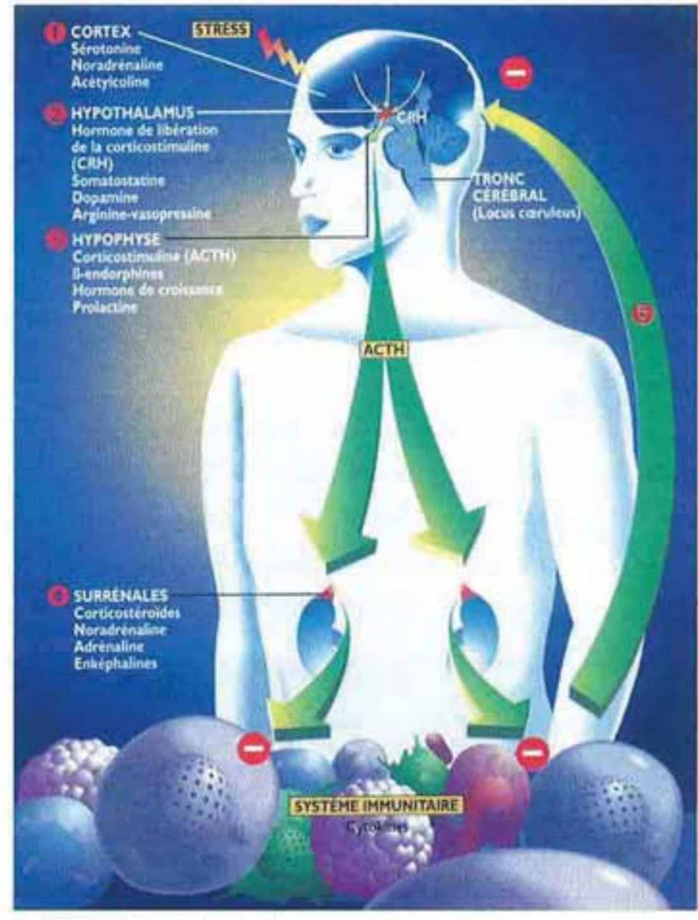
المتنامي. إذن، فهما يؤديان بشكل تكاملي الرد البدني الفاعل.

ويأتي إطلاق هرمون الكورتيزول الذي تفرزه قشرة الكظر بمنزلة إقرار لدى الفرد بالعجز عن التصرف بشكل مباشر - القبول بالهزيمة. ويحل الاستسلام محل التنشيط العصبي الودي. ويتيح الكورتيزول التكيف على المدى البعيد بإعادة تكوين مخزون الكبد من السكر عن طريق تعزيز تأثير الكاتيكولامينات (الأدرينالين والنورادرينالين والدوبامين) وكبح دفاعات الجسم المناعية، ولذلك ثمنه: ظهور التقرحات المعدية.

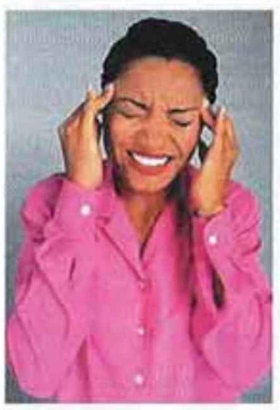
مشاركة غدة قشرة الكظر

كلما برز وضع جديد، أو حدثت خيبة، أو ظهرت ريبة كبيرة أو تبين أن اليقين موئس، كان الكورتيزول المفرز بغزارة شاهداً على حالة من الكرب. وللعوامل الاجتماعية دورها أيضاً.

فالمغلوبون وغير الواثقين من مصيرهم لديهم معدل كورتيزول أعلى بشكل عام قياساً مع الغالبين، على الأقل لدى الأنواع التي تكون القدرة لديها مرادفاً للأمن.



مما لا شك فيه أن الكرب ليس قضية غدية خالصة، فالدماغ، كما في كل أهوائنا، هو سيد السلوكات. عندما نتعرض لموقف مهدد، تقرر القشرة المخية الجبهية، جزء الدماغ المحتجب خلف الجبهة، الردّ بإستراتيجية ما. إن الكرب، المتهم بالمسؤولية عن كل الأذيات التي نتعرض لها، هو التعبير المتعدد الوجوه للعلاقات الانفعالية التي يعقدها الفرد مع العالم.



يؤثر الكرب في انفعالاتنا، وفي أفكارنا بشكل ما. ويتعلق كل ذلك بعدد من الهرمونات التي تعمل على نحو متعاقب

يؤدي فرط الكرب الصحة بشكل خطير، ويضعف الدفاعات المناعية، ويعزز ظهور الأورام، ويؤثر بشكل خاص في الذاكرة، ويهاجم الدماغ. الكرب يفسد حياة الشخص، ويمرضه، وقد يقتله أحياناً. إلا أنه يؤثر بشكل مخاتل أيضاً، فيهاجم دماغنا، ويؤدي إلى شيخوخته المبكرة. هذا ما أثبته روبرت سابولسكي وزملاؤه من جامعة ستانفورد. ويفسر سابولسكي قائلاً: إن فرط تعرض خلايا الحُصين «قرن آمون» العصبية في الدماغ للقشرانيات «الهرمونات القشركظرية ومشتقاتها» يتلف قدرتها على مقاومة التشنجات الصرعية ونقص التروية. فعند تعرض الحصين لفرط القشرانيات السكرية يشيخ مبكراً. وأظهرت دراسات حديثة هذا الضمور الحصيني عند المكتئبين. ويمارس كرب ما بعد التعرض للإصابات الجرحية -

الرضية التأثير نفسه. وهكذا، نتبين أن للكرب ثمناً لا يستهان به ندفعه على المدى الطويل.

وفي الواقع، يبدأ كل شيء منذ الطفولة. وتؤكد دراسة صادرة عن باحثي معهد ماك جيل الكندي أن من شأن مداعبات الأم ورعايتها وملاطفتها لرضيعها في هذه السن أن تخفف من تأثيرات الكرب عليه لاحقاً. ذلك أن هذه التعبيرات الأموية تحدث تغيراً في عدد مستقبلات القشرانيات السكرية مما يعزز تنظيم البدن بشكل أفضل.

تأثيرات الكرب المؤذية

إن بعض الكوارث الطبيعية غير قاتلة أحياناً للبشر إلا بصدمات الكرب. مثال ذلك، من بين أمثلة أخرى كثيرة، الهزة الأرضية التي دمرت عام ١٩٨١م منطقة نابولي الإيطالية التي لم تستمر سوى ثماني عشرة ثانية، ولم تقتل أحداً، إلا أن نوبة ذعر جنوني اجتاحت السكان، فقد قام سجناء سجن





يمكن التأثير في كل مستويات الكرب، باستعمال البنزوديازيبينات للتهدئة، أو محصرات البيتا للتخلص من الخفقانات والارتعاشات التي يسببها الكرب

بوجيوريال بطعن رفاقهم بشوكات الطعام. وفي إحدى عيادات قرية بوزولي، قام رجل مرعوب بشنق نفسه، وماتت سبع نساء بالنوبة القلبية.. وقد يقتل الكرب فرحاً أيضاً، فخلال حريق شبَّ في أحد مراقص مدينة دبلن الإيرلندية، وبعد أن تأكدت أم من فقدان أطفالها، ماتت عندما عرفت أنهم على قيد الحياة!.

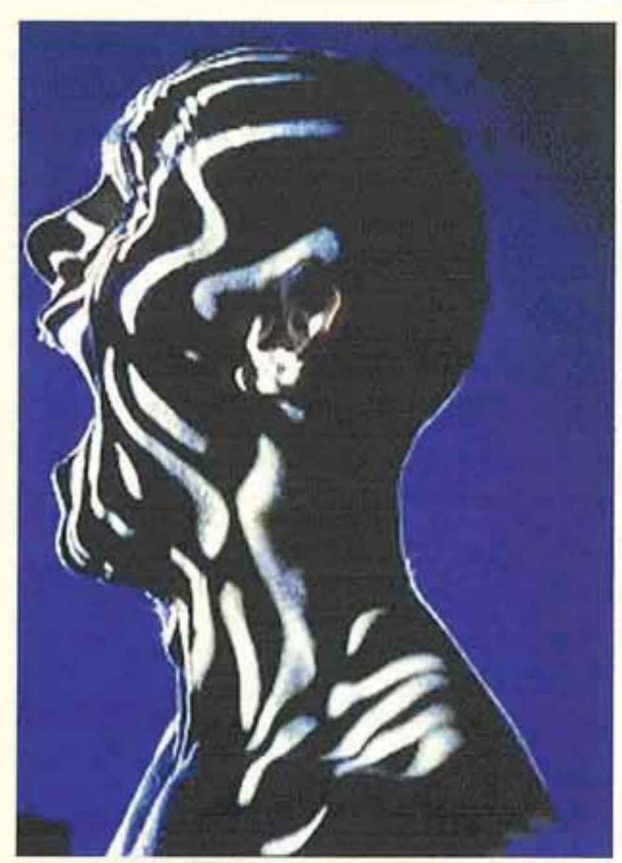
يؤدي الكرب أيضاً إلى تدمير دفاعاتنا المناعية، متيحاً بذلك غزو الجراثيم لأجسامنا. هذا ما أثبته البروفسور رونالد جلازر، من جامعة أوهيو الأمريكية، الذي أكد أن التغيرات التي يحدثها الكرب ضعيفة، غير أنها كافية لتتمخض عن نتائج بيولوجية ذات مغزى. وأثبت أيضاً أن الكرب الاجتماعي يعمل على تنشيط فيروس مرض الحلأ (العقبول) في البدن. ووفقاً لمعطيات البروفسور غايل بيج من جامعة جون هوبكنز الأمريكية، فإن الكرب يعزز نمو الأورام بقضائه على نشاط فئة خاصة من خلايا الجهاز المناعي «خلايا إن كي = ناتورال كيلر، القادرة في الأحوال الطبيعية على قتل الخلايا الورمية».

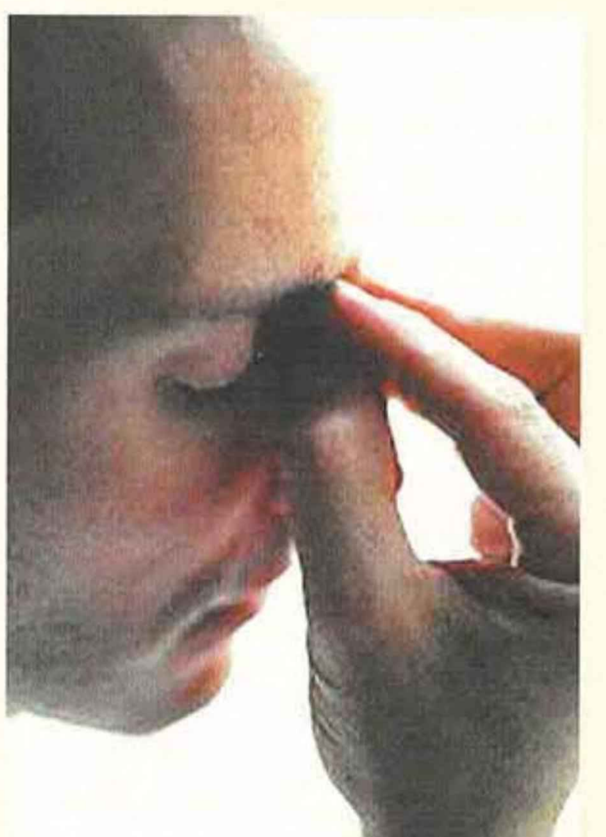
الكرب يسد أوعيتنا: هذا ما أثبتته بوضوح الدراسة الفنلندية التي أنجزها توماس كامارك: يعزز الكرب إحداث أذيات في الأوعية الدموية، ويسبب تصلب الشرايين، مثلما يفعل الكوليسترول تماماً. وتظهر هذه العلاقة لدى من هم دون سن ٥٥ سنة أساساً. وأشارت دراسة أخرى أجريت في جامعة أوهايو إلى أن الكرب يحدث تغييراً في بعض العناصر المهمة في تركيب الدم. كما أنه يرفع بشكل خاص معدل الـ «هوموستئين»، هذا الحمض الأميني الذي يشار إلى أن له دوراً في مخاطر الإصابات الوعائية ـ القلبية.

الجهاز الهضمي، هو أيضاً، يدفع ثمناً ثقيلاً بسبب الكرب، ونعرف جميعاً دوره في القرحة المعدية. كما أنه يساهم في ظهور التهابات المستقيم والقولون النزفية. ويتخفى الكرب خلف مختلف المشكلات المرتبطة بالحركية الهضمية.

أخيراً، وفي الجانب الاجتماعي للكرب، يمكن القول: إنه كلما كانت قرارات الشخص نابعة من ذاته، قلّت معاناته من الكرب. وهكذا، فإن المديرين هم أقل تعرضاً لمخاطره من المرؤوسين.

لكل كربه، وأيضاً طريقة تكيفه في ضبط تأثيراته وعدم





إن للكرب تأثيراته المخاتلة ونتائجه على المدى البعيد، إلا أننا لسنا متساوين أمامه، وكل شيء متعلق بطريقة مواجهته

الوقوع ضحية القلق أو الاكتئاب. عندما يقول أحدهم: «أنا مكروب»، فإنه إنما يعبر بذلك عن إحساس يتسم غالبًا بالتوتر. وعندما نتحدث عن كروب الحياة اليومية، فإنما نعني بذلك الضغوط والمتطلبات التي نخضع لها.

تعلم المواجهة

لاحظ الباحثون بعد ذلك أن الضغوط نفسها لا تولد النتائج نفسها عند جميع الأشخاص، بل تختلف من شخص إلى آخر. ويكفي التنقل على الدراجة، والتعرض لخانق مروري للتأكد من ذلك: بعضهم يتوتر ويكاد ينفجر، بينما ينتهز آخرون الفرصة للتمتع بشيء ما، كأن يستمع إلى الموسيقى أو يجري اتصالاً هاتفيًا أو ربما ليحلم.. وقد بيّن الباحثون العنصر الجوهري الناظم على صعيد الكرب: طريقة مواجهتنا له.

بين عامل الكرب والنتائج التي نحس بها، يطور كل منا إستراتيجية للتكيف مع الضغط تعمل على تعديل تأثيرات الكرب على أبداننا. في الواقع، نجد أنفسنا مكروبين كلما تعرضنا لإثارات البيئة المحيطة، وكلما توجب علينا أن نواجه جهداً تكيفيًا. ومن شأن هذا التحريض أن يخلق فينا انفعالاً. ويستند التحكم بالكرب إلى القدرة على التحقق من هذا الانفعال وتحويله إلى مخطط عمل، ويعني ذلك أن معظم عوامل كرب حياتنا اليومية ليست بحد ذاتها سيئة أو حسنة؛ لأن المسألة هي مسألة كيفية مواجهتها، وكم يكلف ذلك؟ بل إن الكرب حتمي لدفعنا إلى التفوق على أنفسنا. وإذا كان الكرب مكلفًا جداً على الصعيد العلائقي (الاستثارية)، والبدني (الآلام)، والنفسي (القلق)، والذهني (التركيز)، فإنه يجب إما محاولة تجنب عامل الكرب عندما يكون ذلك ممكنًا، وإما تغيير طريقة مواجهتنا له. ولابد من محاولة إقناع الذات بأن ذلك ممكن.

الكرب، والقلق، والاكتئاب

في اللغة الدارجة، عندما يقول أحدنا: إنه مكروب (مضغوط)، فإنما يعني بذلك أن قدرات تكيفه أصابها

الإرهاق. هل يشير ذلك إلى أننا قلقون؟ ليس بالضرورة. يثير الكرب انفعالات متباينة جداً، من بينها القلق. والقلق، الذي نعرفه جميعاً، هو انفعال عادي سمته إدراك الخطر وتثبيط السلوك غالباً. ويمكن أن ينتج من الكرب، وقد يظهر خارج كل سياق مكرب. ويصبح القلق اضطراباً نفسياً عندما يتوافق وثلاثة معايير: الاستمرار وقتاً طويلاً عدة أسابيع؛ وأن يعيق التصرفات الطبيعية؛ وأن يولد المعاناة. وعند تضافر المعايير الثلاثة، تغدو الاستشارة الطبية مطلوبة. ويتسم مرض الاكتئاب بالتباطؤ الحركي النفسي (حيث يغدو كل شيء أصعب)، والآلام المعنوية (حزن مستمر). من الملاحظ إذن وجود بعدين في الكرب: عامل الكرب، الذي نسميه الكارب؛ وإستراتيجية التكيف، لمواجهته. الأول هو من خارجنا، والآخر متعلق بنا.



العالم المحيط مفعم بالمعلومات، والمنبهات المكربة عندما تصبح مفرطة، يجب إعداد الطفل على كيفية مواجهة الكرب، منذ الأيام الأولى من الحياة

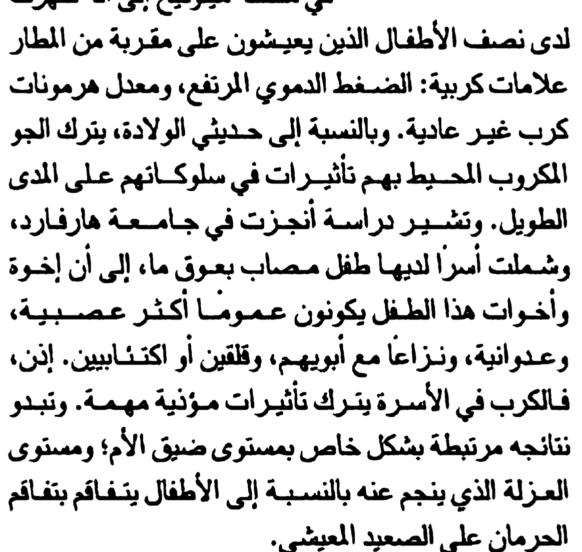
للوراثة دور مهم

هل نحن موهبون لأن نعيش حياتنا بابتهاج أو في اكتئاب؟. هذا ما يعتقده عدد من الباحثين، الذين كشفوا مؤخراً عن الدور الجوهري للعوامل الوراثية في القدرة على أن يكون المرء سعيداً. هنالك عشرات الكتب التي تتحدث عن العدوانية أو عن الغيرية، والاكتئاب، والقلق، والانفعالات.. ولكن نادراً ما نجد كتباً تتحدث عن السعادة، مع أن هذه السعادة هي مطلب بيولوجي، لعله الأهم، وهدف يسعى إليه الجميع. وكان عالم الوراثة كافالي - سفورزا (جامعة ستانفورد) قد حاول وضع أسس لـ «علم السعادة». وقد تبيّن له أن الأطفال سعيدون بطبيعتهم. وهم قادرون على التمتع بالحياة، ثم يكتشفون مواكب المتناقضات. للأسف، هذه الرؤية التفاؤلية والحس السليم يصطدمان بملاحظات علماء الوراثة، الذين تبين لهم أن العوامل الوراثية تؤدي دوراً بارزاً في التأهب للاستمتاع بالحياة. وكشفوا أيضاً أن التفاؤل عند الشخص في وقت معين مرتبط جزئياً بوراثيته (وجزئياً بالظروف)، وأن للاكتئاب مورثات أيضاً.

الأطفال والكرب

أجرى باحث أمريكي «باتيك وادوا» في جامعة كنتوكي تحقيقاً شمل ١٥٣ من النساء الحوامل في الشهر الثالث من الحمل. وسألهن حول مختلف جوانب حياتهن، ومستوى الكرب لديهن، وقاس استجابات الأجنة على المنبهات الصوتية، واستنتج أن كرب الأم يؤثر فعلاً في نمو دماغ الجنين وعمله.

ويؤكد أطباء بريطانيون أن الجنين الذي يتعرض للكرب يصبح في المستقبل شخصاً قصير القامة، ويعتقدون أن سبب ذلك يكمن في تضاؤل الدورة الدموية في الشرايين التي تغذي الجنين. وهذه الفرضية أكدتها الفحوص التخطيطية، وقد يتعرض هؤلاء الذين ولدوا قصاراً من أمهات قلقات لمخاطر الإصابة بالأمراض التاجية، والداء السكري، والاكتئاب. وتشير دراسة أجريت في منطقة ميونيخ إلى أنه ظهرت لدى نصف الأطفال الذين يعيشون على مقربة من المطار علامات كربية: الضغط الدموي المرتفع، ومعدل هرمونات كرب غير عادية. وبالنسبة إلى حديثي الولادة، يترك الجو المكروب المحيط بهم تأثيرات في سلوكاتهم على المدى الطويل. وتشير دراسة أنجزت في جامعة هارفارد، وشملت أسراً لديها طفل مصاب بعوق ما، إلى أن إخوة وأخوات هذا الطفل يكونون عموماً أكثر عصبية، وعدوانية، ونزاعاً مع أبويهم، وقلقين أو اكتئابيين. إذن، فالكرب في الأسرة يترك تأثيرات مؤذية مهمة. وتبدو نتائجه مرتبطة بشكل خاص بمستوى ضيق الأم؛ ومستوى العزلة الذي ينجم عنه بالنسبة إلى الأطفال يتفاقم بتفاقم الحرمان على الصعيد المعيشي.

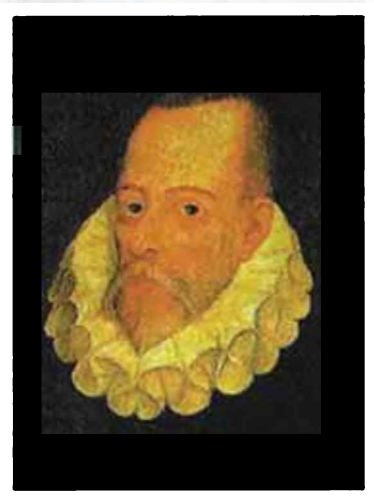


تطور حركة الاستعراب الإسبانية

خالد سالم
مدريد - إسبانيا

تشهد ساحة الاستعراب في إسبانيا مدرستين، كلتاهما تعمل في مجال الدراسات العربية والإسلامية، وتتمتع بالشرعية العلمية، وهما المدرسة الكلاسيكية، أي التي تهتم بالدراسات العربية الأندلسية والكلاسيكية، والأخرى حديثة تهتم بما هو معاصر. وتسير الأولى منهما على خطا المستعرب الراحل إميليو غارثيا غوميث بينما تتبع الثانية تقاليد تلميذه هيدرو مارتينيث مونتابيث ورؤاه، وهو يعمل في جامعة مدريد الأوتونوما.

ومع أن هذا لا يعني أن المدرسة الأولى وليدة الأمس القريب، فإن بصمات التأسيس والريادة للمستعرب غارثيا غوميث واضحة على الجيل الحالي. فقد سبقه في هذا الدرب أساتذة آخرون مثل باسكوال غايانغوس، وخوسيه أنطونيو كوندي، وفرانثيسكو كوديرا إي ثايدين، وغونثاليث بالنثيا، وآسين بلاثيوس...، وهي تضرب بجذورها في العصور الوسطى. غير أن حقل الاستعراب في إسبانيا ظل مشوشًا في جملته إلى أن حل القرن التاسع عشر وبدأ هؤلاء المستعربون السالفو الذكر، في وضع أسس حركة استعرابية تقوم على أساس علمي، على الرغم من بعض المآخذ على بعضهم، وبشكل خاص فرانثيسكو خابيير سيمونت. ويرجع الفضل إلى هذه المجموعة في دراسة الحضور والتراث العربيين في إسبانيا بشكل مباشر وعلمي.



ثيربانتيس

محرقة ثيسنيروس

من الملاحظ أن حركة الاستعراب المعاصر في إسبانيا تأخرت في نشأتها عن مثيلاتها في الدول الأوربية الأخرى، إذ بدأت محاولات بهذا الصدد في القرن الثامن عشر، ولم تتأصل حتى القرن الذي تلاه؛ إذ إن الجهود الضئيلة والمتفرقة التي بذلت كانت تفتقر إلى الدقة العلمية حتى ذلك القرن. وعليه أثبتت حركة الاستعراب الإسبانية الشابة التي خرجت من عباءة الرومانسية أن التراث العربي يتمتع بالجدية والأهمية، ويستحق التوقف والتأمل.

وهو وضع لافت للنظر في بلد هو البلد الأوربي الوحيد الذي بنى العرب عاصمته، وهو أمر له دلالات وتبعات تكمن في وعي الإسبان ولا وعيهم، فلا يزال الحضور العربي موضع جدل ونقاش حتى اليوم على اختلاف هويتهم ووعيهم الثقافي. فلم يحسم الجدل بعد حول هوية الأندلس وانتمائها، وخاصة فيما يتعلق بالإجابة عن سؤال: لمن هذا التراث؟ أهو للعرب أم للإسبان؟

أما تخلف إسبانيا عن اللحاق بقطار الاستعراب حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

فمرجعيته دينية بحت، وذلك لإغلاق باب البحث في الشؤون العربية بعد محرقة المصاحف والكتب والمخطوطات التي أمر بها الكاردينال ثيسنيروس عام ١٥١١م، وفيها أتت المحرقة على ٨٠٠٠ر٨٠ مجلد عربي حسب بعض المصادر - أعداء هذا الكاردينال - و ٥٠٠٠ مجلد حسب مصادر أخرى مناصرة له.

ولم يكتف الكاردينال ثيسنيروس بذلك بل سعى ونجح في استصدار قرار ملكي مؤرخ في إشبيلية في ٢٠ يونيو /حزيران عام ١٥١١م يقر جمع المصاحف والكتب العربية كافة وتحريم امتلاكها على أي فرد من العامة. وبعد ذلك تحولت الجهود التي كانت تبذل في حقل الاستعراب إلى مجالات أخرى.

ولم يكن هذا الموقف عفواً عن الإسلام وعن ثقافته أو شعور بالذنب، بل لبدء مرحلة جديدة من التنصير وحمل رسالة الإنجيل بين سكان العالم الجديد الذي اكتشف مع حملات الإسبان والبرتغاليين في أمريكا اللاتينية التي بدأت في العام نفسه الذي شهد سقوط غرناطة، آخر معقل للعرب في الأندلس. علماً بأن سقوط غرناطة كان في مطلع يناير/ كانون الثاني من عام ١٤٩٢م، ووصل كريستوفر كولمبس إلى القارة الأمريكية في أكتوبر/تشرين الأول من العام نفسه.

وبذلك كانت محاكم التفتيش وراء وأد حركة الاستعراب الإسباني التي ولدت مبكراً. وكانت وطأة هذا القرار الملكي ومحرقة الكتب العربية والمصاحف شديدة إلى درجة أن الحوليات وبعض الكتب تؤكد أن الكثيرين سجلوا على أغلفة الكتب عبارة كهذه «إن الخوف يتملكني، هذا ليس القرآن اللعين».

وكان الدين وراء نشأة الاستعراب الإسباني في مرحلته الأولى ودفنه، أي قبل القرن السادس عشر، إذ كان قد ظل



نازك الملائكة

معطلاً حتى القرن الثامن عشر ولم يأخذ طريقاً جاداً حتى القرن التاسع عشر.

التراجع الحضاري

ويضاف إلى ذلك أن من أسباب تجمد حركة الاستعراب الإسبانية في تلك الفترة تراجع القوة السياسية والحضارية للعرب، في الوقت الذي أخذ العالم المسيحي في النهوض والرواج الفكري والثقافي وتأكيد الذات، مما حمل إسبانيا على الاهتمام بالنهضة الأدبية التي بدأت في أوربا تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية، وبذلك نسي الإسبان الكتب والمخطوطات التي كانت تضم بين صفحاتها خلاصة الحضارة العربية، وظلت سنوات طويلة بين أرفف المكتبات والمحفوظات، ولم يقترب منها سوى بعض الباحثين من حين إلى آخر.

وكانت رغبة الكنيسة الإسبانية في توحيد البلاد دينياً سبباً آخر في وأد حركة الاستعراب الإسباني التي نشأت قبل أي حركة أخرى في أوربا. وهو الأمر الذي حملها على وضع الدعاية هدفاً لدراسة القرآن والتراث العربي.

غير أن من الإنصاف أن نشير إلى أن إسبانيا كانت سباقة في هذا المجال، إذ بدأ الاستعراب الإسباني نشاطه والعرب كانوا لا يزالون في الأندلس، وكان هدف ذلك الاستعراب هو تعرف الأعداء؛ أي العرب، وضرب كتابهم المقدس «القرآن الكريم». وهناك من يسوغ هذا الهوس الديني بأن إسبانيا كانت طوال تاريخها ذات نزعة تبشيرية، وهذا مثبت تاريخياً من قبل الإسبان.

ومن هذا المنطلق أنشئت مراكز استعرابية في الأديرة والكنائس بالمدن التي استردها الإسبان من العرب ابتداء من القرن الثالث عشر، وكان السبب هو رد الصفعة - حسب الكنيسة - «للمحتل» العربي والانتقام من دينه ممثلاً في القرآن مما أسفر عن وجود متخصصين ذوي باع في تفنيد كتاب المسلمين المقدس والنيل منه دينياً وثقافياً.

وتأكيداً لهذا السياق فإن أول

ترجمة إلى الإسبانية للقرآن كانت إهداء ـ تمت عام ١١٤٣م ـ على يد روبرتو دي رتينيس، بأمر من القس بدرو البينيرابلي أو بدرو الموقر Pedro el venerable حملت إهداء إلى القديس برناردو يقول: «إلى الدعاية ضد الإسلام». وعلى الرغم من هذه الولادة المغرضة لحركة الاستعراب فإن هذا الوضع سمح للاستعراب أن يشكل جزءاً من التراث الثقافي للإسبان، دون أن يكون ذلك من أهداف رجال الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا.

الحكيم وورثة الترجمة

وجدير بالإشارة أن المسؤول الأول عن هذا الوضع، أي تكثيف الاهتمام بالدراسات العربية، كان الملك ألفونصو العاشر، الملقب بالحكيم، الذي أسس مدرسة طليطلة للترجمة التي عملت طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. والمعروف أنها قامت بترجمة أمات الكتب العربية في شتى العلوم إلى الرومانثية مباشرة ـ أي الإسبانية ـ دون نقلها أولاً إلى اللاتينية على غرار ما كان يقوم به رئيس أساقفة طليطلة دون رايموندو.

لقد شهدت تلك الفترة حركة ترجمة واسعة للكتب العلمية بحثاً عن التراث اليوناني الذي استفاد منه العرب وتمثلوه، إلى جانب دراسة الفلسفة والدين لأهداف جدلية.

وإلى هذا الملك الحكيم والعاشق للثقافة العربية يرجع الفضل في أول ترجمة للقرآن إلى الإسبانية، وكان من رواد الدراسات المقارنة، والتأثر بالتراث العربي الذي ترك بصماته على مؤلفاته نفسه مثل: General Historia, Libros del Saber de Astronomia y las Cantigas de Santa Maria. وإليه يعود الفضل في تأثر كتاب إسبان بالثقافة العربية في مراحل لاحقة عليه مثل: دون خوان مانويل في كتابه «الكونت لوكانور»، ورئيس أساقفة إيتا في كتابه «الحب الحميد»، دون أن ننسى ثيربانتيس



دون كيخوتي

وروايته العالمية «دون كيخوتي». بالإضافة إلى ترجمة كتب تنتمي إلى التراث العربي العالمي من بينها «كليلة ودمنة» على سبيل المثال.

وعلى الرغم من القرار الملكي الذي استصدره الكاردينال ثيسنيروس، وتحول إسبانيا صوب العالم الجديد بغية تنصيره، فلم تكن القطيعة تامة بين المتخصصين الإسبان والثقافة العربية، ففي القرن السادس عشر نفسه كتب بدرو دي ألكالا Vocabulista Aravigo en letra castellana وهو كتاب أساسي في معرفة صوتيات اللغة العربية في الأندلس، وهو مجال لا يزال يفتقر إلى الكثير من الدراسات العربية والإسبانية، أعني هنا دراسات لغوية عن العربية الأندلسية، وهي دعوة أطلقها لدارسي اللغويات والأندلسيات في الجامعات العربية على أساس واقع أعيشه في الجامعات الإسبانية.

وفي تلك الفترة صدرت كتب تتناول تاريخ الأندلس، خاصة تاريخ مملكة غرناطة وتمرد الموريسكيين، من بينها Historia de los Reyes Catolicos «تاريخ الملكين الكاثوليكيين» لأندريس بيرنالديث، و La Cronica de los Reyes Catolicos لفرناندو بولغار، و La Guerra de Granada «حرب غرناطة» لدييغو أورتادو دي ميندوثا، و Historia de la rebelion y castigo de los moriscos، تاريخ تمرد الموريسكيين وعقابهم وهو لمارومول كاربخال Marmol Carvajal.

ومع هذا النوع من المؤلفات ينتهي ما يمكن أن نطلق عليه بالاستعراب الإسباني الخاص أو الذاتي، ويصاحبه خوف الموريسكيين من محاكم التفتيش، ومعهم هواة التعرف إلى التراث العربي في الأندلس، مما حملهم على إخفاء أي معرفة بلغتهم الأم. وأمام هذه المخاوف تقلص عدد المقبلين على دراسة العربية إلى درجة أن الأستاذية في العربية بجامعة سلمنكة ظلت شاغرة ابتداء من عام ١٥٠٠م، وظل قسم اللغة

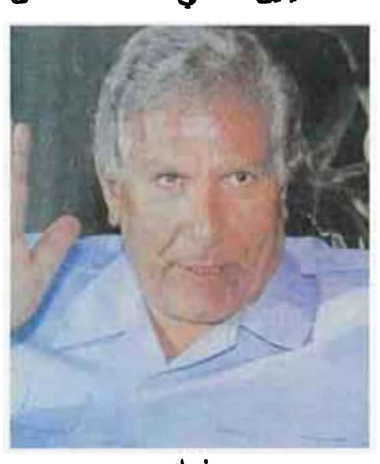
العربية في جامعة ألكالا - أو قلعة عبدالسلام - شاغراً من الأساتذة، بينما لم يطلب الطلاب الانضمام إليه.

إسبانيا مختلفة

ولم تقم قائمة للاستعراب الإسباني حتى القرن الثامن عشر، خلال ولاية الملك كارلوس الثالث - كان من أسرة البوربون المالكة في إسبانيا في الوقت الراهن - وأمام هذه المعطيات المحلية نشأت في إسبانيا حركة استعراب معاصر مختلفة عن الحركات الأخرى في العالم، وبذلك ولد الاستعراب الإسباني واندثر، ثم عاد ينهض كالعنقاء في ظروف مختلفة عن محيطه الأوربي والعالمي، فقد ورد في مجمله من الخارج بسبب تصفية الاستعراب المحلي على يد المؤسسات الدينية منذ ولادته.

ولعل هذه الملاحظة تعد أبرز ميزات الاستعراب الإسباني المعاصر، إذ تمت استعارته بينما كان لديه أرض محلية خصبة للنمو والترعرع قبل أي استعراب أو حركة استشراق أوربية. ولم يكن تطوراً لشيء محلي، بل كان مستورداً، وجاء بعد قرنين من التوقف والجمود. وقد يؤكد هذا مقولة: إسبانيا مختلفة! Spain is different التي يحلو للإسبان التشدق بها لتسويغ أوضاع غريبة أو شاذة.

إن الوسط الذي يعيش فيه الاستعراب الإسباني معاد له، فالذاكرة الجماعية للإسبان تنظر إلى ما هو عربي نظرة ريبة وازدراء، وفي أحسن الأحوال عدم اكتراث وشفقة، على الرغم من تكالب الشباب على دراسة الأدب واللغة العربية في السنوات الأخيرة وهذه مسألة لها أسباب إدارية تتعلق بالدرجات التي حصل عليها الطالب في الثانوية، في الكثير من الحالات. بيد أن من الضروري التماس العذر للإسبان بهذا الصدد، فمن الضروري الأخذ في الحسبان علاقات خضبتها دماء السكان الأصليين، أعني دماء سكان



يوسف إدريس

الأندلس الأصليين الذين أصبحوا الإسبان بعد سقوط غرناطة، وهذا أمر لا تغفره العقلية الغربية، حتى وإن كانت هذه العلاقات قد أنتجت إحدى أبرز حضارات العالم على مدى التاريخ، وكان لها دور مهم في تكوين هوية فريدة لإسبانيا. ولا نغالي إذا قلنا: إن وصول إسبانيا إلى العالم الجديد يعود في جذوره السياسية والتجارية والدينية إلى ظاهرة الأندلس في بلد أوربي.

واللافت للنظر على الرغم من الظروف والملابسات التي أشرنا إليها كافة أن الاستعراب الإسباني يشكل جزءاً من التراث التاريخي الثقافي لهذا البلد حيث يقوم فريق من الباحثين الجادين الذين يتمتعون بكفاءة علمية كبيرة، بالبحث في التراث المشترك للجماعة، بينما هذه الجماعة أو المجتمع يدير ظهره لهم، باستثناء أقلية قليلة تعي هذا الدور وأهمية هذا التراث للبلد الأوربي الوحيد الذي أقام فيه العرب حضارة امتدت ما يقرب من عشرة قرون، وليست ثمانية كما يشاع، إذا أخذ في الحسبان تاريخ طرد الموريسكيين الذي كان في القرن السابع عشر وهناك من تخلف منهم في إسبانيا، إذ آثروا العيش في الأرض التي ولدوا فيها على الانتقال إلى بلاد يجهلونها تماماً، وإن كان ذلك سيعني حفاظهم على هويتهم الدينية وعدم طمسها، كما حدث فيما بعد، إضافة إلى عودة البعض منهم إلى شبه جزيرة أيبيريا بعد الرحيل إلى شمال إفريقية.

وهذا دون أن تكون لدي رغبة في الدعوة إلى الجهاد أو الإعداد لحرب صليبية ونحن في مطلع قرن جديد تحكمه العولمة، ولكنني أردت التنبيه إلى واقع يدركه اليوم المستعربون الإسبان والعرب المقيمون في بلاد الأندلس.

مشروع كارلوس الثالث

ولهذا عندما جاء كارلوس الثالث وأراد أن يدخل الدراسات العربية في إسبانيا منتصف القرن الثامن عشر، لم يجد من يستطيع أن يؤدي هذه المهمة بين الإسبان، فاضطر إلى استيراد المعرفة والأشخاص في

مجال الاستعراب، فأمر آنذاك بإحضار عدد من الرهبان الموارنة، برز بينهم ميشيل قصيري - بعض المراجع العربية تقول إن اسمه ميشيل غزيري - الذي شغل وظيفة أمين مكتبة الأسكوريال ووضع عدداً من المؤلفات، كان أهمها تصنيف مخطوطات هذه المكتبة، وبينها بالطبع المخطوطات العربية، وكتاب للكلمات العربية التي دخلت الإسبانية، ودراسة وملخص لكتابي «لمحة» و«الإحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب.

كما أسفر مشروع كارلوس الثالث عن ترجمة المجلد الضخم الذي وضعه ابن العوام حول الفلاحة على يد خوسيه أنطونيو بانكيري، ووضع قاموس عربي - لاتيني على يد فرانثيسكو كانييس.

جدير بالإشارة أن الحياة دبت في حركة الاستعراب الإسباني ليس فقط بسبب رفع المرتب والترقي الوظيفي اللذين وعد بهما كارلوس الثالث لمن يتعلم العربية، بل كانت أساساً بسبب تقليص صلاحيات رجال محاكم التفتيش إلى أن فكّر بعضهم في إلغائها.

وكان من تبعات هذا الوضع ولادة حركة الاستعراب الحديثة والحقيقية في القرن التاسع عشر على يد عاشق الكتب باسكوال غايانغوس (١٨٠٩ - ١٨٩٧م) الذي درس بين باريس ولندن قبل أن يعود إلى مدريد عام ١٨٤٣م لشغل منصب أستاذ اللغة العربية في جامعتها والذي أنشئ قبل بضع سنوات من عودته وهو في منتصف عمره. ومع أن شخصية غايانغوس تركت بصماتها على بداية الاستعراب الإسباني ومدرسته الحديثة من خلال نزاهته العلمية وإنسانيته، فمن المعروف أنه تخلى عن درجة الأستاذية لطلابه، ولم يضن عليهم بكتبه ومخطوطاته وملاحظاته العلمية التي جمعها طوال مسار حياته المعهدية، فإن هذه المدرسة لم تسر على خطا حركة الاستعراب الإسبانية في العصور الوسطى ممثلة في مدرسة طليطلة للترجمة، وردريغو خيمينيث دي رادا، وبدرو دي ألكالا، ومارمول كاربخال، بل تبعت خطا الرهبان اللبنانيين والسوريين والاستشراق البريطاني والفرنسي من خلال سيلفستر دي ساسي ودوزي.

ومع عودة الاستعراب الإسباني إلى الساحة يلاحظ أنه ابتداء من القرن الثامن عشر أخذ يقتصر تقريباً على أساتذة الجامعات، أي يمكن وصفه بالنزاهة وإنكار الذات والتحلي بالبحث التاريخي والعلمي بعيداً عن مقاصد استعراب العصور الوسطى الذي نشأ في أحضان الكنيسة بحيث كان نفعياً وذا أهداف دينية أيديولوجية غير خافية على أحد. بيد أن هناك من المستعربين الإسبان، وعلى رأسهم برنابيه غارثيا لوبيث، يرون أن مولد الاستعراب الإسباني كان لظروف تطلبتها الضرورة الاستعمارية.

أما فيما يتعلق بمواضيع الاستعراب الكلاسيكي فيمكن وصفها بأنها كانت محلية بعيدة عن الأسباب الرومانسية التي كانت وراء نشأة الاستشراق الأوربي في نهاية القرن السابع عشر. فقد ولد الاستعراب الإسباني لدراسة ما هو قائم وموجود على أرض الأندلس، لهذا فإنه تأخر في دراسة نتاج الثقافة العربية خارج حدود الأندلس.

الملك ألفونصو العاشر، الملقب بالحكيم، أسس مدرسة طليطلة للترجمة وكان وراء تكثيف الاهتمام بالدراسات العربية

وتتميز حركة الاستعراب الإسبانية من الحركات الأوربية الأخرى في أنها عاشت وعايشت الإسلام، فالأندلس كانت سبباً في خصوصية الاستعراب الإسباني، وهو وضع لم تتمتع به حركتا الاستعراب البريطانية أو الفرنسية على الرغم من التاريخ الاستعماري الطويل الذي حظيت به فرنسا وبريطانيا في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

حري بنا أن نشير هنا إلى أن الكثير من المستعربين والمثقفين يعللون تخلف إسبانيا حضارياً عن محيطها الأوربي بطرد الموريسكيين من بلادهم، إذ فقدت

إسبانيا بخروجهم معظم العارفين ببواطن الأمور في الزراعة والتجارة والحرف الفنية. أما القائلون بأن الاحتلال العربي للأندلس كان وراء ذلك فهم قلة، ويفتقرون إلى الدقة العلمية والتاريخية معاً. ومجرد الجدل حول هذه المسألة لا وجود له بين حركات الاستعراب الأوربية الأخرى، مما يؤكد خصوصيتها في إسبانيا.

ومع حلول القرن التاسع عشر أخذ الاستعراب الإسباني، والغربي



عبد الوهاب البياتي

عامة، يكثف اهتمامه بما هو عربي لظروف معروفة للجميع. إذ أخذ الأدباء والدارسون في البحث عن مغامرات ثرة خارج الزمان والمكان، في محاولة لاكتشاف الكنوز الممثلة في العصور القديمة والوسطى والآداب والثقافات الأجنبية. وكان الأدب الشرقي على رأس هذه الآداب التي حظيت بالاهتمام والدراسة، مما رفع المستشرقين إلى مصاف رجال الدولة والمجتمع في الدول الأوربية.

وفي إسبانيا أخذ الاستعراب المسار نفسه تقريباً، وإن كان قد تخلف عن الحركات الاستعرابية في الدول الأوربية الأخرى. وهناك من يذهب إلى القول إن إسبانيا مدينة بالكثير لمستعربيها في القرن التاسع عشر؛ وذلك لأنهم بدؤوا عملهم من الصفر تقريباً، إذ كان عليهم وضع كتب قواعد اللغة العربية والمعجمات وترجمة المخطوطات وتحقيقها ونشرها. إلا أن هذا الطرح يجانبه شيء من الصواب؛ لأن المستعربين المحدثين أفادوا بدرجة ما من أعمال أسلافهم الذين بدؤوا هذه المسيرة إبان الحضور العربي في شبه جزيرة إيبيريا لظروف أسلفناها.

رائد الاستعراب

أما أبرز مستعربي بداية القرن الماضي فكان خوسيه أنطونيو كوندي الذي ترك بصمات واضحة على الاستعراب داخل إسبانيا وخارجها. وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت إليه والتقليل من شأنه فإن أحداً لم يحاول الكتابة في تاريخ الحضور العربي - أو الاحتلال كما يطلق عليه الإسبان - مباشرة من مصادره العربية، إذ اكتفى المؤرخون الذين سبقوه في استقاء المعلومات من الحوليات المسيحية التي لم تكن كافية لسد الثغرات الكبيرة التي كانت قائمة قبله.

وعلى الرغم من أن خوسيه أنطونيو كوندي كان رائد الدراسات العربية في إسبانيا؛ فإن باسكوال دي غايانغوس يعد المؤسس الحقيقي لمدرسة المستعربين الحديثة الذي جمعته صداقة وعمل حميمان مع مستعرب لا يقل عنه أهمية هو سيرافين إستيبانيث كالديرون المعروف بـ «السوليتاريو» el solitario أو المتوحد، واشتهر بتأثره بما هو عربي في كتاباته من منطق رومانسي. ثم تلمذ لهذا الأخير فرانثيسكو خابيير سيمونيت وهو لا يتمتع بالقبول في الدوائر العربية والكثير من الإسبانية المحايدة، إذ يرون في أعماله مهاترات كثيرة وتحاملاً على العرب. وكان سيمونيت قد خصص جزءاً من أبحاثه لدراسة اللغة، وخاصة دراسة الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية، مفنداً بعض نظريات سلفه في هذا المجال، من منطق التقليل من شأن التأثير اللغوي العربي في اللغة القشتالية الإسبانية. وهو رفض لواقع راسخ، فيه نوايا غير طيبة وهروب من حقيقة ملموسة.

ويعود الفضل إلى مستعربي القرن التاسع عشر في اكتشاف الأدب الموريسكي، إذ ظل حتى القرن الماضي مهملاً إن لم يكن مجهولاً. كما قاموا بمراجعة الأفكار المتعلقة بالفتح والحضور العربيين في إسبانيا على أساس علمي، إلى جانب اكتشاف الجانب الجذاب والرومانسي للأدب الأندلسي من منطق روح العصر.

تصحيح الأفكار

وحري بنا أن نشير هنا إلى أن الحضور العربي في شبه جزيرة إيبيريا كان موضع خجل وعار للكثيرين، وبفضل دراسات هؤلاء

المستعربين تغيرت الصورة وأصبحت إيجابية أو أخذت طريقها نحو تصحيح للأفكار بهذا الصدد، وهو واقع ملموس من خلال معاملتي اليومية مع الطلاب والزملاء في الجامعات الإسبانية، إلى جانب جزء من العامة البعيدين عن هذا المجال.

غير أن القرن العشرين يظل أزهى عصور الاستعراب الإسباني بكل المقاييس، ففيه اكتشف أسين بلاثيوس أثر القرآن في الكوميديا الإلهية، والكل يعلم أهمية هذا

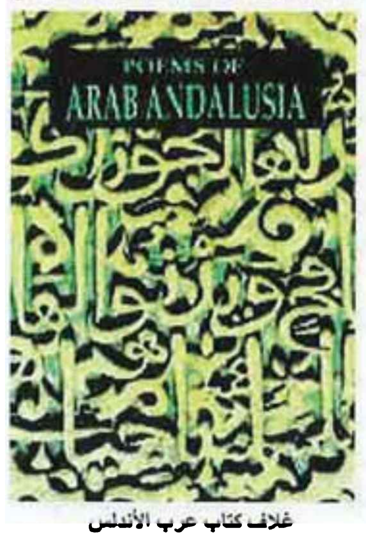
عندما جاء كارلوس الثالث وأراد أن يدخل الدراسات العربية في إسبانيا منتصف القرن الثامن عشر، لم يجد بين الإسبان من يستطيع أن يؤدي هذه المهمة

البحث، إضافة إلى عدد المستعربين الإسبان الذين يملؤون الساحة بأبحاثهم ودراساتهم الكلاسيكية والحديثة إلى درجة تستحق التوقف والتأمل والدراسة، وهي تشبه إلى حد ما عدد دارسي أدب الإسبانية في الوطن العربي عموماً ومصر خصوصاً، وإن كان البون لا يزال شاسعاً بين نوعية دراسات الجانبين وعملهما في هذين المجالين. وهنا تفرض الظروف السياسية والاقتصادية نفسها في الحالتين.

ومن أبرز رواد الاستعراب في النصف الثاني من القرن العشرين إميليو غارثيا غوميث الذي ظل الحارس الأمين على التوجه القومي الرجوعي اللاهوتي في نظرته إلى التراث الأندلسي إلى أن فارق دنيانا في صيف عام ١٩٩٥م ليدفن في المدينة التي بدأ فيها نشاطه العلمي والمعهدي، غرناطة، مؤسساً مدرسة الدراسات العربية. إلا أن هذا التوجه لا ينقص دوره البارز في حقل الاستعراب الإسباني والأوربي بصفة عامة شيئاً، وإن اختلف معه بعض الدارسين في بعض طروحاته بهذا الصدد.

وقد شهد القرن الحالي مولد مدرسة جديدة في الاستعراب الإسباني، هي المدرسة المعاصرة تضارع المدرسة الكلاسيكية التي تقصر نشاطها أساساً على الدراسات الأندلسية والكلاسيكية العربية. ويعود الفضل، كما أسلفت القول، في إنشاء هذه المدرسة إلى بدرو مارتينث مونتابيث. فمع صغر سنه نسبياً - احتفل بعيد ميلاده الخامس والستين في يونيو/ كانون الثاني عام ١٩٩٨م، وأستاذ الجامعة يظل عاملاً في إسبانيا حتى السبعين - نجد أن معظم مستعربي هذه المدرسة قد خرجوا من عباءته، وهم يملؤون الجامعات الإسبانية ومعاهد البحث في الشؤون العربية في مدريد ومدن الأندلس وبرشلونة وطليطلة، وكلهم مدينون له ويملؤهم العرفان بذلك والزهو بالتلمذة.

ولا يوجد متسع لتصور أن ساحة الاستعراب الإسبانية تشهد صراعاً أو مواجهة بين أساتذة المدرستين ومريديهما. وأكثر من هذا، فإن صاحب المدرسة المعاصرة، (بدرو مارتينيث مونتابيث) يرفض إطلاق هذه التسمية على ما وضع أسسه منذ أن تفتحت عيناه على العالم العربي المعاصر بزخمه السياسي والثقافي في قاهرة عبدالناصر حيث عمل مديراً للمركز الثقافي الإسباني في نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات. وكانت القاهرة نقطة انطلاقه واهتمامه بالأدب العربي



غلاف كتاب عرب الأندلس

المعاصر فترجم لنجيب محفوظ قبل أن تعرفه بلدان أوربية كثيرة، ولكل من صلاح عبدالصبور، وعبدالوهاب البياتي، ويوسف إدريس، ونازك الملائكة، ولآخرين تزخر بهم مكتبات الجامعات الإسبانية.

دائرة الاتهام

ومع عودته إلى مدريد وإنشاء جامعة مدريد أوتونوما شرع في تأسيس قسم الدراسات العربية في

تتميز حركة الاستعراب الإسبانية من الحركات الأوربية الأخرى بأنها عاشت وعايشت الإسلام، فالأندلس كانت سببًا في خصوصية الاستعراب الإسباني

هذه الجامعة الفتية التي افتتحت عام ١٩٧٠م، وفي اتخاذ توجه جديد في هذا الحقل، ليدرس، أول مرة، الأدب والفكر العربي المعاصر واللهجات العربية في جامعات إسبانيا. ولنا أن ندرك أهمية هذا التوجه بعد أن ظلت الدراسات العربية نحو قرنين مقصورة على ما خلفه الأجداد من تراث عربي في الأندلس، وهو تراث تنظر إليه هذه المدرسة على أنه إسباني بقدر ما هو عربي، ويذهب بعضهم إلى تأكيد أنه إسباني مع أن هذا اللفظ لم يكن له وجود سياسي في خريطة أوربا حتى بعد أن رحل العرب بسنوات طويلة.

يضاف إلى هذا أن حركة الاستعراب في إسبانيا ظلت أكثر الحركات الغربية بعداً عن دوائر الاستعمار الغربية، من هنا يمكن الجزم بنزاهتها، وإن كانت أصابع الاتهام تشير إلى بعضهم بولوجهم هذا المجال، إلى جانب الاستخبارات والمخابرات، ولكن هذه تبقى في دائرة الاتهام و«غيرة الصنف» التي شخصها الجاحظ منذ قرون.

إن حركة الاستعراب الإسباني المعاصر على قصر عمرها موازنة بمثيلاتها في محيطها الأوروبي تعد من أنشط الحركات وأكثرها إنتاجاً وتأثيراً في الحياة الثقافية في هذا البلد. والدليل الجلي على ذلك كثرة الكتب التي يصدرها أساتذة الاستعراب في إسبانيا والعدد الهائل من الطلاب الذين يلتحقون عاماً بعد عام بأقسام اللغة العربية التي تنتشر في معظم جامعات إسبانيا، خاصة جامعات شرق وجنوب إسبانيا، وإن كانت جامعة عاصمة إقليم الباسك، في مدينة بتوريا، أخذت منذ ثلاثة أعوام في تدريس لغة الضاد على يد شاب مصري، يدعي صلاح سرور، وهو دور يعد مغامرة حقيقية إذا أخذ في الحسبان الظروف المالية والثقافية التي بدأ فيها هذه المهمة.

ويمكن القول إجمالاً: إن حركة الاستعراب الإسبانية بمدرستيها تلفت النظر، فهناك إقبال كبير على تعلم العربية والبحث والتنقيب في تراثها، وهو أمر يثير فضولي ودائماً أسأل طلابي في بداية العام الدراسي: لماذا تتعلمون العربية؟ وأجد إجابات متنوعة ومتعددة ومعظمها يشير إلى حب للثقافة العربية ورغبة في تعرف الجيران، وتعرف التراث المشترك وأصدقائنا العرب على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط. إنها عوامل عدة، في مجملها مغامرة!

المراجع

- Angel González Palencia, *Historia de la literatura árabe*, Madrid, 1928
- Carmen Gómez Camarero, *Contribución del arabismo español a la literatura árabe contemporánea: catálogo bibliográfico (1930-1992)* Universidad de Granada, 1994
- Emilio Garcia Gómez, *Silla del moro y nuevas escenas andaluzas*, Madrid, 1948.
- Emilio Garcia Gómez, "D. Miguel Asin (1871-1944). Esquema de una biografia", en Al-Andalus, 1944, IX.
- José Jiménez Pérez, "Un arabista español del siglo XVIII. Fray Patricio José de la Torre", en Al-Andalus, 1953, XVIII, 2.
- J.T. Monroe, " Américo Castro y los estudios arabistas", Ap. Vol. Col. *Estudios sobre la obra de Américo Castro*, Madrid, Taurus, 1971
- Manuela Manzanares de Cirre, *Arabistas españoles del siglo XIX*. Instituto hispano-árabe de cultura. Madrid, 1972.
- Pedro Martinez Montávez, El Isalm, Barcelona Salvat, (Temas clave), 1991.
- Pedro Martinez Montávez, *Pensando en la historia de los árabes*, CantArabia, Madrid, 1995.
- Pedro Martinez Montávez, *El reto del islam*, Temas de Hoy-Ensayo, Madrid, 1997.
- Pedro Martínez Montávez, "Lectura de Américo Cástro por un arabista: apuntes e impresones", Separata de *la Revista* del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos, Volumen XXII, Madrid, 1983-1984.
- Rodolfo Gil Benumeya, "Hispanidad y Arabidad", en *Cuadernos Hispanoamericanos*, Nos. 4-6, 1948.
- VV AA., *Actas de las Primeras jornadas de la literatura árabe y contemporánea*, Madrid, UAM, 1991.

ليلة سقطت غرناطة

[إلى موسى بن أبي الغسّان - البطل الغرناطي]

عبداللطيف عبدالحليم (أبو همام)
القاهرة - مصر



وجهك بين الوجوه، ينتفضُ الـ
بأسُ به، والعبوسُ والخطرْ
والنبلُ والحزنُ والجَسارةُ والـ
موت زؤامًا، والريحُ والمطرْ
تصهلُ فيه الخيولُ عاصفةً
تَهْزِمُ فيه الرعودُ والشَرَرْ
يقول: لا، للعويل، للأسف الـ
مكْلوم، لا، للدموع تنهمرْ
وهم حواليْه زفرةٌ ولَظَى
ليس بهم من نَبالةٍ أثَرْ
شوقُهُمُ للحياة خانعةً
حجُوا إليها بالأمن واعتمروا
تجمدتْ بالدماء أوردةٌ
يحرسُها في أمانها الخَوَرْ
سباعُهم تلفظ المياهَ، ولا
نابَ لها، كالسِّباع أو ظُفُرْ
منْ صور راقت العيونَ، وما
يُنْبِضُها الاحتدامُ والسَّهَرْ
سيوفُهمْ من نعومةٍ برقتْ
وما بها حِدّةٌ ولا أشَرْ

ما عرفتْ من سواعدٍ صرختْ
بها دماءُ الإباء، تَسْتَعِرُ
تَسْتَلُّ في مولد «الأمير» ولا
غالبَ إلا الإلهُ، والقَدَرُ
يَبْرُدُ دفْقُ الكلام، يُعقدُ في الـ
جدران حرفًا، تَزِينُه الصُّوَرُ
يبردُ دَفْقُ الرجال، يَخْثُرُ في الـ
عروق دفقُ العصير، يَنْخَثِرُ
يَمسخُ لونَ الربيع، ينجرفُ الـ
خريفُ فيه، يهاجرُ الشَجَرُ
هنا «أبو عبدالله» يبحث عن
«مَرْيَمِه»، والسيوفُ تَشْتَجِرُ
هنا «أبو عبدالله» والأفقُ الـ
محصورُ يَدْمَى، والقصرُ ينتحرُ
وحوله من خيانةٍ زُمَرٌ
تلحَّفوا بالهزيمة، ادَّثَروا
يُسْفِرُ طيَّ الظلام وجهُك، يغـ
لبُ الوجومَ المخنوقَ، يَنْتَدِرُ
ليس لنا في عهودهم أملٌ
ليس لنا في أمانهم وطَرُ

احتفاء الماء بالعاشقين

راشد عيسى
عين الباشا - الأردن

هو: رجعتُ إليك
فقبلَك كنتُ أحلّقُ بين الضباب وحيداً
ودونَك عشتُ، كما نورسٍ ضيّعَتهُ المنافي، وخانت
خطاهُ صخور الشواطئ لا موجةٌ تصطفيه لها لا
فنارٌ يضيء على روحه الذاهلهْ
هي: وقبلَكَ يا سيّدَ القلب كنتُ السفينةَ في لُجّة البحر تُغْوي
مع الموج لا تجدُ البوصلَهْ
وتحكي لجنّية البحر أسرارها الكاملهْ
ولمّا لمحتُ صواريك تدنو إليّ وتُقرئني شوقَ عينيكَ
في اللحظة الفاصلهْ
رأيتُ الموانئَ أجملَ ممّا أظنُّ وممّا يريد ندائي
فودّعت حزني لأرْسي سفينةَ جرحي على صدركَ البحرِ
يا أعذبَ العاشقينَ وأعمقَهم في دمي منْزلَهْ
هو: تضرّرَ قلبي بطولِ الجفاف، ولم أكُ أطلبُ إلاّ رذاذاً
يُعيدُ لقلبي خُصوبتَهُ الذابلهْ
كلانا إذن بحرُ صاحبه وكلانا سفينهْ
وتلك العواصفُ قد أجّلَتْ طَبْعَها،
وليس بوُسْعِ الرياح سوى أن تهبّ علينا نسيماً
ونجوى سكينهْ
هي: يليقُ بأن يحتفي الماءُ بالعاشقينَ وتبني النوارسُ أعشاشَها
دونما حذَرٍ وارتيابْ
أحبكَ أبحرُ فيكَ بلا عودةٍ وبلا دمعةٍ وبلا صيغةٍ للعتاب

هو: إعذريني إن قسا البحرُ على المركب يوماً
ثم ألقاه يميناً ويسارا
إعذريني حين لَمْلَمْتُ شتاتي
وعبرتُ البحرَ بحثاً عن دليل حين ضيّعتُ جهاتي
كنتُ أعدو خلف حلْمٍ قاب قوسين وأدنى
كلّما أوشكُ أن أمْسكَهُ فرّ منّي وتوارى
كنتُ أبْني في عُباب الموج أكواخاً من الحزنِ الجليل
وأساهي غفلةَ الموج لأستجدي المحارا
غير أني كلّما خيّرتُ في صبح جديدٍ
سوف أختار بعينيك النهارا
هي: يا حبيبي
أنتَ دارُ الحلْم لا أرجو سوى عينيكَ دارا
كُفَّ عن عُذْركَ هذا
أنت تكفيني فلا أبْغي اعتذارا
ليس بين البحر والبحر عتابٌ وتصاريحُ سباحهْ
ليس نحتاج رموزاً وكلا البحْرَيْن في الحبِّ بليغٌ
ضاربُ العمق بأسرار الفصاحهْ
ليس بين القلب والقلب أحاديثٌ تُدارى
فاعْشقِ الموجَ، كما شئتَ لأنّي سوف ألقاكَ على
الموج كثيراً، ولأنّي مُذْ عشقتُ الماءَ يا ملاّحَ
قلبي
صرتُ أرْتادُ المجاهيلَ، وأعتادُ البحارا

خصوصيات المكان

صالح الحميدان
الرياض - السعودية

إلى مهبط الوحي وأرض الرسالات في هذه الظروف القائمة التي تمر بها أمتنا وإلى أطفال الصمود:

هذا مكانٌ به قبلَ الحيا جَنّيْ
قبلَ المشاعلِ في أنفاسِهِ وَرْيْ
في كلِّ يوم به من وجْدِهِ مطرٌ
أو نخلةٌ طَلْعُها في رأسِه وَحْيْ
إذا تَضَوّرَ نَهْرٌ في مَعِيّتِه
سقاه قولاً به لِصَدْرِه جِلْيْ
طوبى لِمَن بَعْضُهُ في دَربِه شَجَرٌ
و بَعْضُهُ ديمةٌ تَسْلِيمُها هَمْيْ
هذا مكانٌ يَمَسُّ القلبَ رونقُهُ
حتى ينادي الهوى من غَيِّهِ غَلْيْ
كأنه كوكبٌ يسعى بهالتِه
إلى عيونٍ نَقَا أفراحُها صَلْيْ
يتلو خطا روحه ميلاً إلى وَهَجٍ
يندى بها طائراً في لَمْحِهِ سَبْيْ
في صحوهِ غابةٌ في الصمتِ يغرسُها
في نومِه شُعْلَةٌ في نفثِها هَدْيْ
إذا تمادى ركودُ الوقت في دمِه
أصارهُ قادماً في شمسِه بَنْيْ
وعَمَّمَ الأرضَ من سلطانه سُبُلاً
إلى البراكين في أعطافِها جَرْيْ
طوبى لمن نبذَ الأصنامَ منعتقاً
وصارَ للريح في روعاته رَعْيْ

هذا مكانٌ به قبلَ الحيا جنيْ
قبلَ المشاعلِ في أنفاسِه وَرْيْ
كأنما الكبشُ مأسوراً بساحتِه
مقابرُ الأمسِ إذ ينتابُها نَسْيْ
يرنو إلى نفسِه يأسو ثُمالتَها
حتى يرى الفتقَ لا يُجْدي به سَدْيْ
ضنءُ اليباب كأنّ اليومَ سَحنتُهُ
ظلامُ ليلٍ عوى في خطوِه نَعْيْ
طوبى لمن رعشةُ الأسواقِ قامتُهُ
ورأسُهُ نشوةٌ تحديقُها رَمْيْ
إن البحارَ تسوسُ الجرحَ زُرْقَتُها
وفي يديها نسيمٌ مَسُّهُ رَقْيْ
في مائها عاشقٌ يحبو إلى شفةٍ
قطرُ المواسمِ في ألوانِها أرْيْ
إذا تراءى له منها مقابسةٌ
تناوشَ الزرعُ في أضلاعِه سَقْيْ
وأجرسَ الطيرَ إسراجاً لصبوته
وباغتَ الغمُّ من سيمائه غَشْيْ
طوبى لمن قلَّبَ الأوراقَ معتنقاً
ما يذبحُ الشِّركَ من أنواره نَفْيْ

***

عيون بلا غمائم

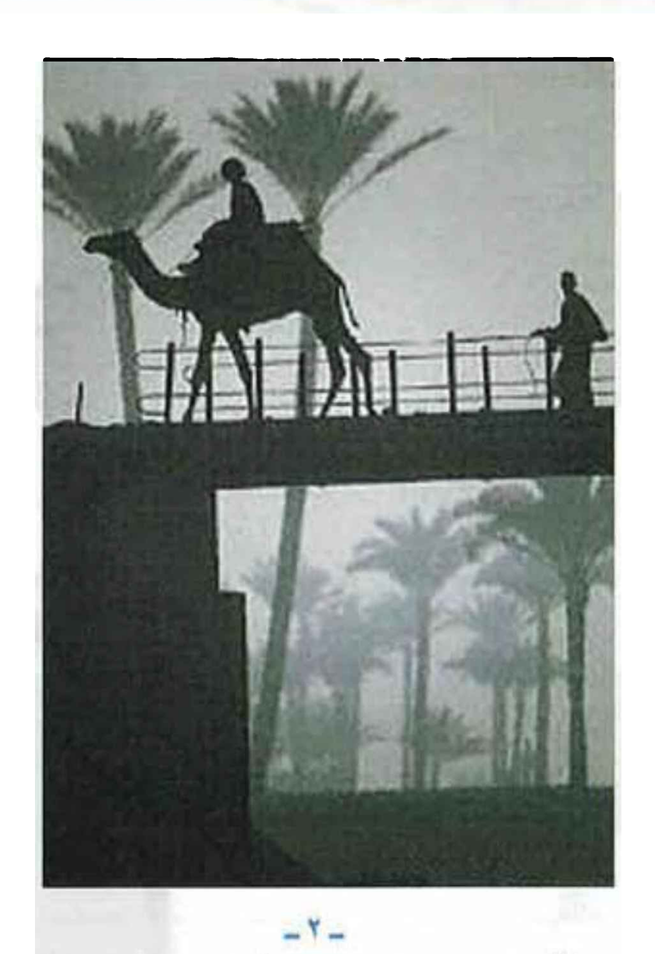
متولي أحمد حسن الشافعي
المحلة الكبرى - مصر

- ١ -

في الجوف الحامي، أفرغا المثلجات، فتفتحت الخدود المتوردة، وجلسة الباشا مع ضيفه طالت، والأوامر تتوالى، وفي نهار بؤونة جسد هنداوي، ينز الماء المالح، وهنداوي اليوم، ليس كرهوان الأمس، أربعون عامًا أكلت الأرض من لحمه وعظمه، عشرة أفدنة حول السراية، وهنداوي وسطها كذكر النخيل، تتفتح صدور العابرين، وهم يدعون لك يا هنداوي، ومن جني يديك المتشققتين أكل الباشا وضيوفه، عنبًا وبلحًا، وبرتقالاً وخوخًا وعسلاً مصفى.

وضيف الباشا اليوم ليس ككل الضيوف، منذ نزل من سيارته، وهو يتأمل كل شيء ويسأل عن كل شيء، فيجيبه الباشا أحيانًا، ومرات أخرى يطلب مني أن أجيب، حتى صعدا إلى السراية، حجة بإيجار فدانين، كتبها الباشا، ازرعهما ما شئت، على أن ترعى الباقي، وتحرس السراية، لا يتذكر هنداوي الآن أين ذهبت، فالجهل وطيش الشباب هما السبب، وهل أنت في حاجة إلى حجة يا هنداوي؟ فاسمك مضاف إلى الجنينة دائمًا، على كل لسان، ولولا الحسد والخوف من نظمي باشا، لقالوا سراية هنداوي، فنظمي باشا من حاشية الملك، اسمه سند وحماية للأميرة نعمة الله مالكة الأرض كلها، ولولا ذلك ما جاء، وإذا رحلت الأميرة كما يقولون، فرحيله سيصبح واجبًا، والحجة ضاعت يا هنداوي، وهل يعجزه أن يترك لي فدانين من دون حجة، يمسك بجذع النخلة، يرمي ببصره إلى حدود الجنينة، تلامس عيناه شجرها ونخيلها العالي ويمتلئ صدره بعبيرها، يأتيه صوت الباشا مع صهد الظهيرة، لينا هذه المرة لا أمر فيه، يهرول هنداوي حيث يجلسان، اسمع يا هنداوي ممدوح بك هو المالك الجديد، لقد بعت له كل شيء السراية والأرض، وتحدث البك، هنداوي يعرفني جيدًا، لديّ مصانعي بالمحلة وسأقيم مصنعًا هنا، وأريدك يا هنداوي حارسًا على السراية، وسأعطيك راتبًا شهريًا وتبادلا الابتسامات والتهاني، وامتدت الأيادي تتصافحان، فوق الزجاجات الفارغة، نعم عرفتك صبيًا في وكالة الحاج إبراهيم، غريبًا كنت، فحنا عليك، وأهداك ابنته ولما تمردت فتحت الشركة لك ذراعيها، وحين فقئت إحدى عينيك أثناء العمل، بالتعويض المناسب، ابتعت ماكينة نسيج، والماكينة أصبحت اثنتين، والمصنع صار مصانع وها أنت تعود لتجعلني خادمًا لديك، لا يا بك، الثورة ستوزع الأرض، وسأحصل على نصيبي، فأنا لا أستطيع إلا أن أكون مزارعًا.

وانطلقت سيارة نظمي باشا تشق المزارع، فاستقامت الظهور المحنية في الحقول والمصارف، تتابع السيارة وغبارها المتصاعد نحو السماء.



ـ ٢ ـ

كنّا ننصت له بشغف في الأماسي الحلوة، وهو يحكي لنا عن السراية التي كنّا نراها من خلال حكاياته المعجونة بخياله الخصب، كلمات الباشا نحفظها، ونقلده في نطقها، نضحك كالباشا ونشخط مثله، نافذتنا هو على هذا العالم، لم يجرؤ أحد منا على مقاطعته في يوم ما، احك يا ناصر ماذا يأكل الباشا؟ خروفاً مشوياً، بكامله يا ناصر، هذا في الإفطار إنه الباشا يا أولاد، واليوم رمى لي الباشا علبة نعناع، هل سلمت عليه يا ناصر؟ لا أبي فقط هو الذي يسلم عليه بعد أن يغسل يديه، أسقطها لي من النافذة، فردت له جلبابي، ورفعت أسفله إلى أعلى، حتى لا تقع على الأرض، وكان جسده يهتز من كثرة الضحك، تأملت نفسي، رأيت عورتي مكشوفة، فقد كنت بلا سروال، فضحكنا وحاولنا أن نهتز كما الباشا، وأخرج ناصر حبة بيضاء كقرص صغير، واشترط أن يمصها كل واحد منّا مصة واحدة، ويعطيها لزميله، مصة واحدة يا ناصر! نعم إنه نعناع الباشا يا أولاد.

لم يعد أحد يلتف حول ناصر هنداوي، وأحجم هو عن الكلام، ولم تعد حقيبته المدرسية منتفخة بالبرتقال، أو الخوخ والرمان، بل إن الولد رضا استهزأ به اليوم أمامنا جميعاً، هو فيه كورة حديد في الدنيا يا ناصر، كنت بتضحك علينا، وتقول: إن أولاد الباشا يلعبون بكورة من حديد يا مفتري، ويخرج ناصر عن صمته ويضحك هذه المرة بهستيرية، أعمل إيه إذا كنتم مغفلين.

انعكس ضوء الشمس على العين الزجاجية، فارتد شعاعها الأحمر صوب النخيل، وكان قد استأجر عمالاً من قرى مجاورة، وبالآلات الحادة راحوا ينجرون الأشجار، يومان متواصلان، والأشجار تتساقط، وهنداوي في بيته ينزف دماً، كل ضربة في النخيل، هي في قلبك يا هنداوي، ما الذي فعلناه لتذبحنا يا بك، وتمدد النخيل، وارتفعت أعمدة من حديد، لا تحزن يا هنداوي، ربنا عوض عليك بأرض تملكها، تعيش وتزرع يا هنداوي، ودارت الماكينات، وبجوار المصنع كانت المصبغة، وفي رحم الأرض انغرست مواسير من حديد وامتدت، تقذف رجسها في ماء الترعة، ومن ماء الترعة تشرب المواشي، وتدور الساقية لتروي الزرع، من رجس المصبغة صرنا نقتات يا بك، والبك نقوده كثيرة، ومعارفه أكثر.

ودارت الساقية، وخلفها هنداوي لا يزال يدور بوهن يهش على بقرته يضع الجميع قطعة من الخيش على عيني البقرة أو الثور الذي يدور في الساقية إلا بقرتك يا هنداوي تدور بلا غمامة.

بقايا اسمي

وجدي الأهدل
صنعاء. اليمن

منذ عشر سنوات غادر صاحب الغرفة العلوية غرفته بعد أن أغلقها كعادته ثم لم يعد..

أخذت مفتاحها وأدرت أكرة الباب ببطء وكأنما أخشى أن تستيقظ الأشياء التي في انتظاري، ودخلت بمفردي وأغلقت الباب خلفي. شممت رائحة غريبة ليست عطرية ولا نتنة ولكنها مريحة مخلوطة برائحة غبار عتيق..

لأول مرة في حياتي أحس بثقل أنفاسي وكم كانت مثيرة للإزعاج، كانت هناك أشياء كثيرة مهملة يغطيها الرمل تماماً.. المنضدة، المكتبة، سرير النوم، دولاب الثياب، المعاطف المعلقة، مطفأة سجائر مازالت بها أعقاب بالية، قناني عطور رخيصة، أمشاط منوعة، مظروف مفتوح بداخله رسالة، زجاج منثور تتكسر عليه إضاءة لمبة الغرفة الصفراء الوحيدة بألوان تثير حساسية الأعصاب وتوهمك كلما اقتربت بتواجد مخلوقات متناهية القدم لدرجة الانقباض من كونهم أسلافنا الأوائل..

نظرت في ساعتي مخمناً كم من الوقت سأحتاج لكي أجد ما جئت للبحث عنه، فإذا بي أسمع صوت تكات ساعة، وعندما تأملت المكان جيداً وجدت ساعة حائط فوق الباب تماماً لا ترى بصعوبة، كان الغبار يغطي وجهها تماماً فلم يكن ممكناً على أية حال رؤية عقاربها ما إذا كانت تشير إلى الزمن الصحيح أم لا؟

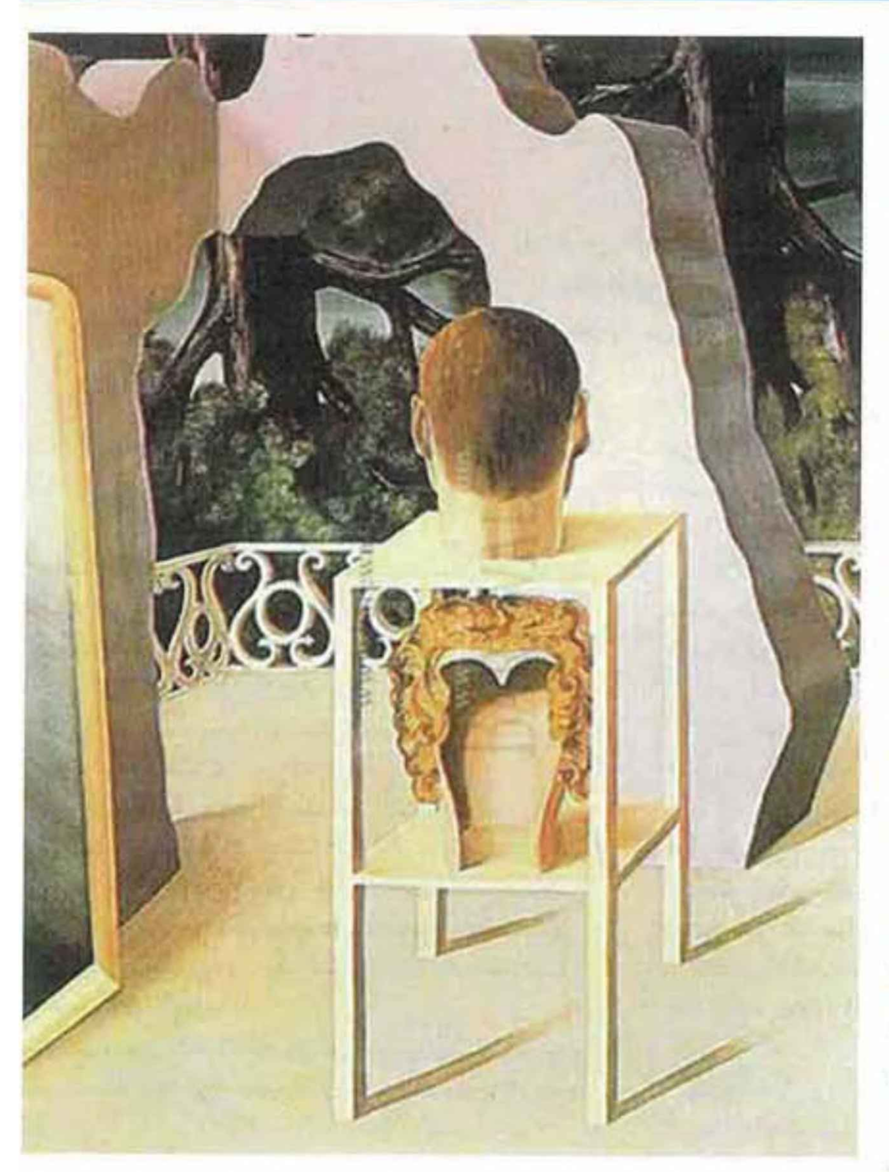
انتشلتُ نفسي بصعوبة من خصوصية المكان الأخاذة، ورحت بهمة أقلب بين كتب المكتبة ودفاترها بحثًا عما يمكن أن يكون دفتر مذكرات خاصاً بصاحب الغرفة.

ذلك الرجل الغريب الأطوار الذي اختفى قبل عشر سنوات في ظروف غامضة..

وبعد ساعتين من البحث وراء السراب أيقنت بفشل مهمتي، وقبل أن أغادر الغرفة أخذت أتجول فيها بعيني، فلمحت المظروف المفتوح، فانبثقت في رأسي فكرة جيدة، وهي أن تلك الرسالة التي ربما كانت آخر شيء أنجزه الرجل الغامض قبيل اختفائه، أنها ربما تحتوي على مفتاح للغز اختفائه المحير.

أخذت المظروف وفردت الرسالة ورحت أقرأ..

(لا أحد يحفل بأمري.. لا أحد يحبني أو حتى يكرهني! اللامبالاة كانت دائماً من نصيبي، ولذلك كان بقائي في هذا العالم أشبه بقمامة تم التخلص منها بشكل غير ضار بالبيئة. أنا أيضاً لست راغباً في البقاء الإلزامي في حياة لا أحد يحسدني عليها. إنني الآن أعيش أيامي الأخيرة مضطراً ولولا تلك القرصات الخبيثة المنبعثة من معدتي لما تناولت طعاماً على الإطلاق.. ثم ما معنى أن تغذي جسداً لا تريده وأنت تنوء بحمله في كل مكان، ولا تعرف طريقة للتخلص منه.. ثم لماذا كان هذا الجسد، ولماذا كان عليّ أن أخدمه طوال عمري بدلاً من أن يخدمني هو؟ لقد سخرنا الحيوانات والتكنولوجيا



وحتى عقولنا لخدمة أجسادنا، ولم نفكر يوماً في تسخير أجسادنا لخدمة ذواتنا.. تلك الذوات التي يحاول الجسد طمس معالمها بداخلنا وتأكيد أنه ليس يوجد إلا الجسد ولا شيء غيره!! إن هذا الجسد يرهقني ويقلقني أمره وتخيفني رغباته ولست أدري كيف أهادنه؟

إن هذا الجسد الذي يمثلني ويتصرف باسمي، ويستمد سلطاته من كينونتي ليس إلا شيئاً كغيره من الأشياء يمكن كيميائياً أو فيزيائياً أن يتحول إلى شيء آخر، وأما أنا فلست شيئاً ولا شيء، ولكنني لربما أكون الفاصل بين الاثنين!

إن لحظات السعادة القليلة التي تجود بها الحياة طوال عمر مهما امتد لا تقارن بمثيلاتها البائسة التي هي في مواجهتها كل ذلك العمر.

غواية الحياة البشرية على هذا النمط لم تعد تستهويني، ولذلك كان يجب عليّ أن انسحب من هذا العالم وألا أترك خلفي أي شيء يدلل على أنني عشت على ظهر كرتنا الأرضية المأفونة ولو حتى دقيقة واحدة.. ولذلك أيضاً أمضيت عدة أيام وأنا أتعقب كل شيء يخصني بالإتلاف، صوري الفوتوغرافية لدى الأصدقاء، ملفاتي وأوراقي لدى شركة العمل الموظف بها، استمارات العضوية في الجمعيات الكثيرة المنتسب إليها.. ولم يبق سوى اسمي لم أستطع أن أجعلهم ينسونه بسهولة.. كنت مصمماً بشدة على استعادة اسمي منهم وإتلافه قبل مغادرتي هذا العالم. ولذلك أبقيت غرفتي سليمة ولم أحرقها وسأترك هذه الرسالة في مظروف مفتوح في انتظار أن يتسلمها في يوم ما قد يأتي قريباً وقد يأتي بعيداً شخص ما ليس إلا.. بقايا اسمي..

توقفت ساعة الحائط عن التكتكة، وعم الظلام الغرفة مجدداً وسمع صوت أكرة الباب وهي تغلق على نفسها بالمفتاح وإلى الأبد.



آليونا

إيجيني شبانوف

ترجمة: توفيق ونوس

اللاذقية - سورية

كان المنزل كبيراً ذا واجهة زجاجية عريضة مطلة على الحديقة.. انتقلا إليه مؤخراً وبدآ يتنزهان أكثر من ذي قبل، كانا كلما شاهدا أطفالاً في طريقهما إلى موقف الباص تبادره بقولها:

- إيغور.. لم لا نتبنى طفلاً.

وانصاع الزوج أخيراً للفكرة، وبدأت مايا تزور بيت الأطفال تكراراً وتتفرس في وجوههم القرنفلية.. بعد أيام خرجت مايا تدفع أمامها عربة جديدة بفخر واعتزاز عبر الشارع إلى البيت.. ظانة كسائر الأمهات أن ابنتها هذه، هي أذكى وأجمل من جميع أطفال العالم.

كانت آليونا، طفلة مرحة قلما تبكي أو تصرخ، كانت تنام معظم ساعات اليوم، لا تتأثر بالضجيج كما لا تزعج أحداً.. ومرت الأشهر تباعاً، وبدأت آليونا تحبو حول البيت وتملأ الغرف صراخاً وزعيقاً، وعيناها تتبعان مايا كيفما راحت.. لكن القلق بدأ يتسرب إلى قلب مايا.. لقد تأخرت آليونا عن النطق.. فزارا مكتب التمريض ليستشيرا طبيباً حول الأمر، حيث هدأ من روعهما بأن بعض الأطفال يبدؤون النطق بعد السنة الأولى وربما بعد السنتين.. رغم ذلك، ظلت مايا في دوامة من الشك والحيرة.

ذات يوم ذهبت الأسرة للتنزه على نهر الدنيبر، حيث نشطت آليونا على البساط السندسي واتجهت نحو شاطئ النهر، فسارعت مايا تناديها:

- آليونا.. حاذري، سوف تسقطين.

ثم توقفت آليونا عند حافة النهر تماماً.. اختبأ إيغور ومايا خلف شجرة وأخذا يصرخان:

- آليونا.. آليونا.

لكنها لم تسمع النداء.

لا تصدق تلك الثورة البادية في عيني مايا وهما تحدقان في أذنيّ الطفلة البريئة.. ماذا عن الأشياء الحلوة التي همستها في أذنيها.. ماذا عن الأماني والآمال التي بنتها في الخيال وأعدة الطفلة بها.. لمن كان كل هذا؟

وضع إيغور ذراعه حول كتفي زوجته محاولاً تهدئة روعها، أما آليونا فراحت تركض مع الأولاد وتبتسم مثلهم.. إنه كابوس لا يصدق.

نقلت الطفلة إلى كييف ولينينغراد، وهناك فحصت بدقة وجاء قرارهم قطعياً.. إن الصمم خلقي.. وصعقت مايا للنبأ، فصرخت بعصبية:

- لكنها تلتفت إليّ إذا ما ناديتها.. إنها تسمع. لكن الطبيب قال:

- إنها تسمع، لكن ليس كما نسمع نحن.. يولد الطفل أحياناً مع خلل سمعي ناجم عن عدة أسباب، لكن جلده يسمع، إنه يلتقط تذبذب موجات الهواء، خاصة في الداخل، حيث توجد جدران تعكس هذه الذبذبات، قدماه أيضاً تشعران بارتجاج الأرض إذا ما سار أحد عليها، لهذا تلتفت طفلتك إذا ناديتها أو مشيت إليها.

لكن مايا لم تقنط، حملت الطفلة إلى موسكو، إلى مشفى الأطفال.. علّ الأطباء هناك يقولون: إن الصمم غير خلقي.. ربما هناك أمل.

دخلت المشفى، وتحاشت النظر إلى المرآة حتى لا ترى أسارير وجهها، أخيراً تقدم منها طبيب وقال:

- أخشى أنه ليس ثمة أمل.. لا شك أن الصمم ولادي.. أخبريني بصراحة هل حاولت التحرر من هذه الطفلة في فترة الحمل بواسطة الكينا؟

صرخت مايا:

- ماذا؟ إنها ليست ابنتي.. أنا لست ملومة.. أنا لست ملومة.

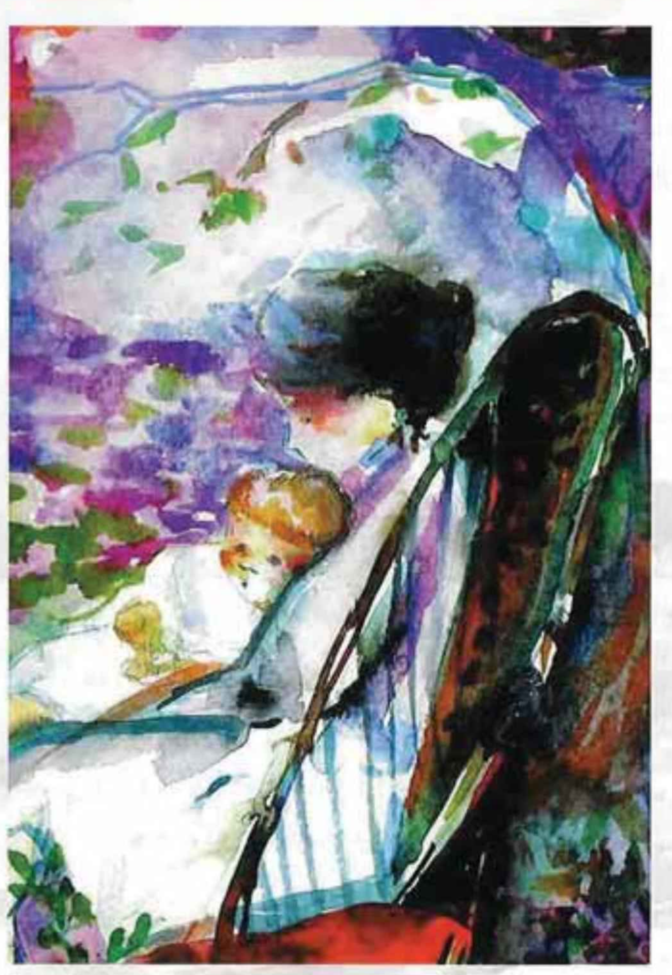
- وكررتها مراراً في طريق عودتها إلى البيت حاملة آليونا، وتراقب الأطفال الذاهبين إلى مدارسهم عبر الشوارع المزدحمة.

أما آليونا، فلم تفقه شيئاً مما يجري حولها، وركضت كالمعتاد حول البيت وقفزت على قدمي الجدة العجوز.

- إنني لن أتركها.

همست مايا بعنف محدقة خلال الباب المؤدي إلى الغرفة التالية، حيث جلس هناك زوجان متقابلان يكتبان تقريراً عن سبب رغبتهما بإعادة طفلهما المتبنى إلى بيت الأطفال، وكانا قلقين حول نتيجة طلبهما هذا لدى إدارة البيت، وحول مثولهما أمام لجنة خاصة توجه لهما أسئلة مسهبة.

أن تحصل على طفل شخص آخر، وتحبه كطفلك الحقيقي، هو عمل صعب تماماً، كمحاولة المرور خلال ثقب إبرة.



لكن أناساً كثيرين لسبب ما لا ينجبون أطفالاً فيضطرون إلى التبنّي.

في مجلس إدارة بيت الأطفال كانت الوجوه واجمةً هائمةً في ضباب كثيف، وما يقولونه، كأنه آتٍ من أميال بعيدة.. سأل أحدهم عن تقرير طبي مصدق.. وقال آخر لو أنها ابنتك الحقيقية لكان هناك أمرٌ آخر.. أما رئيس المجلس فقد أشار إلى أن القانون يحظر إعادة الأطفال المشوهين.. وطافت المعاملة.. حقاً أن التنازل عن الطفل أصعبُ من تبنيه.

أخيراً تمت التضحية بكائن بشري في سبيل إسعاد شخصين آخرين.

في ذلك المساء أعطت مايا لآليونا، حمّاماً دافئاً وسرّحت لها شعرها الأشقر وألبستها فستاناً أحمر جديداً، ثم قبضت على وجهها بكلتا يديها وحدّقت بها عن كثب.. وانهمرت بضعُ قطرات من الدموع في عينيْ مايا.. لكن آليونا لا تحبُ الدموع فقدمت لعبةً لوالدتها.

في الصباح التالي، حملت مايا طفلتها مسرعة عبر الشوارع الفرعية إلى الغرفة التي غادرتها منذ سنتين مضتا.. وكأن آليونا أحست بقرب الانفصال النهائي، فرفضت أن تصعد السلّم مع المرضة، فاضطرت مايا إلى الصعود معها حتى باب الغرفة ذي الستارة البيضاء.

هناك قالت المرضة:

- حظاً سعيداً.

فبادرتها مايا:

- إنني لست ملومة.

خرجت مايا وقلبها ينفطر لفراق ربيبتها ودخلت بيتها كأنها عائدة من جنازة.. أول ما لفت نظرها.. ذلك السرير الأزرق الصغير في الغرفة الصامتة يرنو إليها، وتحته صندوق كبير أحمر ممتلئ باللعب والدمى.

ومرت الأيام والصمتُ يخيّم على البيت حتى باتت أتفه الأمور تثير زوبعةً فيه والتحدثُ عن الأطفال محظوراً، وإذا ما سُئلا عن آليونا يقولان: إنها في مدرسة للتمريض.

ذات يوم هرولت مايا إلى بيت الأطفال وأسندت رأسها إلى الباب الحديدي، ومن خلال الأشجار رأت رأساً مضفور الشعر، فصرخت:

- آليونا.. آليونا

لكنها.. لم تُجب.

ثم ارتحلا إلى القرية للتنزه حيث تعيش والدةُ إيغور، عادا بعدها فوراً إلى بيت الأطفال لزيارة آليونا، لكنهما مُنعا في المرة التالية من زيارتها، لأنها كانت تعزف عن الطعام إثر كل زيارة.

مايا، المرأةُ الجميلةُ الفاتنة، باتت اليوم نحيلةً شاحبة، لم تعدْ تتأثر بالخطوط البيضاء التي تظهرُ في شعرها الأدكن.

ذهبت مايا إلى المرضة بيكاترينا وسألتها السماح بتبنّي طفلة أخرى، أية طفلة، حتى ولو كانت سقيمة، لكي تنسيها آليونا وتوسلت كثيراً إلى مجلس الإدارة.. أخيراً سُمح لها باختيار طفلة، تصادف أن يكون اسمها أيضاً آليونا.. أخذتها مايا إلى البيت والسعادةُ تغمرها.. الآن لديها طفلةٌ جديدة، قرنفلية اللون عمرها شهر واحد.

ذات يوم جلس إيغور في غرفته يقلّبُ صفحات ألبوم الصور على ركبتيه، فبدت علامات الكآبة على محياه حين طالعته صورة آليونا الأولى.. لكنه لم يُدرك أنها قد تعود إليه ثانيةً.

إلا أنها عادت فعلاً.. لقد توسلت مايا إلى المرضة بيكاترينا لاستعادة آليونا الأولى ووافقت بعد لأي.. بعد ستة أشهر ذهبت مايا مع آليونا الكبيرة إلى السوق للتبضع، وعند الباب الداخلي للمخزن، بُهتت الطفلة وتشبثت بوالدتها بعنف.

كان ثمة ستارة بيضاء معلّقة على الباب الداخلي المؤدّي إلى الغرفة الخلفية للمخزن.. من نفس نوع الستارة المعلقة على باب غرفتها الخاصة في بيت الأطفال.

مُسْلِمَةٌ في القرية العالمية

صبوره أوريبه
ترجمة: صلاح يحياوي
ماديسون - أمريكا

«مُسْلِمَةٌ في القرية العالمية»» عنوان المقال الذي كانت قد أنجزته صبوره قبل لحظات من انتقالها إلى رحمة الله في غرناطة «إسبانيا» مغتالةً بيد أثيمة في مؤامرة عنصرية أضاع خيوطها القول: «إن القاتل شاب معتوه».

وما هذا النص إلا تقرير كتبته صبوره حول دور المرأة المسلمة ليقرأ في مؤتمر يعقد في الرباط «المغرب». وكانت المواضيع الأساسية للمؤتمر «الأسرة والعلاقات البشرية وحرية السريرة والالتزام الأدبي والتربية والتعليم» من أحب المواضيع إلى نفس صبوره. وهكذا يتكون النص من عطاء فكري وروحي، وتلخيص لفكرها وخواطرها.

إن طبيعة الالتزام مع المعرفة ومع العقل ومع العلم تعمل على تنقية التصرف المتواضع لمن يعرف أن كل معرفة تأتي من الله؛ وهكذا اختتمت النص بحمد الله وشكره...(المترجم).

حق النقاش والارتياب

أتقدم هنا بصفتي مسلمة مؤمنة، وبوصفي امرأة: إنني أومن بتوحيد الله، وإن وجودي من نعم مشيئته، وأنا أسعى إلى الخضوع لهذه المشيئة عن طيب خاطر. إنني أعترف بمكانة محمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولاً، وبالبركة التي تفترض الوثوق بهدي القرآن، وبنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، نهج السلام والخير. كما إنني، بوصفي مؤمنة وخليفة الخالق في الأرض على حد سواء، أقبل حرية التعلم ونقاش أي موضوع يبدو لي ملائمًا، وأقبل حرية الارتياب فيه والبحث فيه وتحليله من جميع وجهات النظر، من دون خوف من الوصول إلى حدّ ما يُعدُّ مُتَّفَقًا عليه أو مَسْموحًا به؛ وإنه تقع على عاتقي مسؤولية هذا النقاش والارتياب، والعمل الذي ينجم عن المعرفة المكتسبة، وإنني لكوني مؤمنة، أطالب بحق وواجب ملاحظة جميع أشكال الخلق - بما في ذلك مختلف التظاهرات البشرية - من حيث التجسيدات المتعاقبة للقدرات الكامنة التي وضعها الله في الكائنات البشرية - على أنها الطريقة الأكثر ملاءمة للقيام بالوظيفة التي خُلقنا من أجلها، وكفعل تقرب وحب نحو من يشملنا برحمته.

وهكذا إذًا، أعدُّ معرفةَ الله - التي أحصل عليها خلال دراسة الخلق وممارسة الصلاة، وهذه الأحاديث الحميمة مع الله التي تهدئ القلب فضلاً عن العينين - معرفة لا يعدلها شيء.

ليس هناك من حقيقة لم يُشر القرآن الكريم إلى ما ترمز إليه، ولم تُضف عليها السنة صبغة خاصة، وأبعد من ذلك أنها مسألة شخصية أن تجد في كل لحظة السداد والصواب أو الخطأ بعد النية الفضلى.

إنني مؤمنة اعتنقت الإسلام وأنا في سن الرشد بعد أن جربتُ أنظمة دينية وفلسفية أخرى. وقد جذبتني جزئيًا المجالات الواسعة التي يتيحها، بانعدام التعاليم وضُروب الحرام واللعنات، وبغياب الجريرة الأولى، الخطيئة الأصلية، وبانعدام وجود إكليروس يُنذر بالويل والثبور وعظائم الأمور، والذي يحدد في كل لحظة من هو في صف الأخيار، ومن

هو في صف الأشـــــرار من دون مانويات(١): يولد الإنسان - أي إنسان - نقيًا وحرًا ليَقبل قدره وموقعه ودوره في العالم.

ومع ذلك يستلزم العقل البشري - إلى جانب هذه الهبة العظيمة، أي الدليل والمعالم كيلا يغرق في كون لا حدود له - يستلزم مراجع جوهرية ليجد طريقه وسط الطوارئ التي قد تحدث له، وقد أُبلغَتْ الرسالة إلى كل أمة بشكل أو بآخر. نعْتمد نحن المسلمين على القرآن، وعلى نموذج

وأورد هنا من الأسماء الـ ٩٩ الحسنى التي أراد الله تعالى أن نسميه بها، وأكثر هذه الأسماء تكرارًا هي التي تبدأ بها السلسلة: الرحمن، الرحيم، الرؤوف، الحليم التي تهيمن على العلاقات بين الخالق ومخلوقاته. ولما كان الأمر كذلك فإنني أرى نمو هذه الصفة في معيار الممكن أولويةً لنا جميعًا. ألا يجدر بنا أن نحاول أن نكون شفيقين بأمثالنا في الوقت الذي أقام الله عز وجل نفسه على أنه الشفيق الرحيم؟

والذي كان هكذا دائمًا على الرغم من أنه ما كان يجري الحديث عنه بهذا الشكل. وهو واقع أن تكون الإنسانية بمجموعها جملةً تحتضن جميع مكوناتها لمجرد كونها كذلك.

ولهذا السبب فإن كل إنسان حري بحقوق وبتقدير وباحترام، لا بل، إضافة إلى ذلك، كما أرى، بحب من قبل الآخرين، وهو لا يستطيع ضد هؤلاء الآخرين إلا التصرف في الحالة التي يرى فيها نفسه معتدى عليه، ذلك أن المعتدي في هذه الحالة يفقد مزاياه.

شكل لرؤية العولمة

جرت العادة استخدام مصطلح العولمة في هذه الأزمنة لوصف وضع آثاره الوصول الآني أو الفوري إلى المعلومة نفسها من أية نقطة من الكواكب بقدر من تجانس الاستخدامات والعادات التي يقتضيها هذا المصطلح، إنها اطراد نسق يشجعه وينمّيه مديرو الأسواق العالمية، وذلك لما تمتلك هذه الظاهرة من فائدة لصناعاتهم. لقد ابتُكرَتْ - من أجل هذه الحركة الاقتصادية الخالية من أي أساس آخر - دعامةٌ ذات تطلع عقدي (أيديولوجي) مقصود بعينه، إنها أطروحة الفكر الوحيد الذي لا نظير له.

لقد أخذت القوميات - كطفرة لهذا التجانس الذي سهلته المعلومة، وشجعته القوى المالية - تطفو على السطح على نحو ملحوظ. إنني أرى - من منظور إسلامي - أن للقوميات معنى كأمكنة تلاق مألوفة ومريحة، إنها نطاق خاص صنع من تآلفات وأذواق. لا شك أنها تستطيع في لحظة ما إنجاز غاية سياسية إيجابية، غير أنها تحتفظ دائمًا بجانب موحش لمن لا يمتلك قسمات انتماء، وجرثومة انقسام ورفض.



التربية شرط ضروري لمواجهة الطوفان الإعلامي

التصرف الماهر واللبق لعشير برز واستقر في لحظة تاريخية، وفي مجال جغرافي محدد.

تمر حياتنا كوهم ينساب بين الارتباطات العصبية لعضويتنا مولّدًا أثرًا خادعًا في مركز الحس المشترك، مؤديًا إلى ذاكرة سريعة الزلل؛ لهذا السبب فإننا نتصل خمس مرات في اليوم بالحقيقة، وبها يكتسب باقي سلوكنا معنى، ويكتسب مجموع تظاهرات المخلوقات التي تعمر العوالم وزنًا.

إنني لا أنسى بصفتي مسلمة حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». مرسخًا بذلك الالتزام الجذري الذي يربطنا جميعًا، ويربط كل واحد من أعضاء مجتمع الكائنات البشرية الأكثر شمولاً، الالتزام الذي يقول لنا: إنه لا خلاص إن لم يكن للجميع. ويحلو لي فيما يتعلق بهذا أن أتأمل في مفهوم يغمر في أيامنا هذه وسائل الإعلام ألا وهو العولمة.

هذا هو حسب فهمي العولمة الحقيقية،

وهكذا إذًا يبدو لي أن الطرح القومي مضاد للنداء الداخلي العالمي الذي يتضمنه الإسلام، أي لشعور المرء بأنه مدعو للقيام بعمل. ولا أرى أن مسألة تشجيع القومية مهما بلغته في عروبتها تحسن شيئًا من الوضع المتبادل لمن هم كذلك، ولمن ليسوا كذلك. هناك أمة، عشير من الإخوة في الدين، وأنا واحدة منهم، أمة لديها القوة الجاذبة واللاصقة الكافية وسعة الأهداف الضرورية لاحتضان ما يقارب ألف مليون من المسلمين الذين يقطنون هذا الكوكب، عشير من المؤمنين يبحث عن إتمام الحياة على توالف مع الرسالة كما بلّغها محمد صلى الله عليه وسلم.

هذه هي الهوية التي يبدو لي أن تشجيعها إيجابي، هي هوية ضرورية لكنها كافية. وتأتيني الهويات الأخرى تقدمها لي ظروف الزمان والمكان حيث وُلدت، ومن خلال مساري الحياتي.

يبدو لي من الملائم في هذه النقطة القيام بتحديد الأمة العربية وتمييزها من اللغة العربية. ينتمي بعض الناس إلى الأولى، والثانية ننتمي إليها جميعًا.

إن اللغة العربية تراث عالمي، وهي متاحة لأي كان ليتعلمها، ويعيشها ويتمتع بها. لقد عملت جميع اللغات وجميع الألسن مرّةً ما في إبلاغ الأمم التي تستخدمها الرسائل التي أراد الله إرسالها إليها: اعملوا الخير، تجنبوا الشر، لا تشركوا بي شيئًا ولا أحدًا، احتفظوا بي في سرائركم، ابقوا على الصراط المستقيم، لا تبتعدوا عن الله.

إن جميع اللغات هي مظاهر للمقدرة التي منحها الله للكائن البشري، إنها الهوية التي قدمها الله له لتعليمه أسماء جميع الأشياء، لذلك هي عطاء ثقافي ورثناه جميعًا؛ ومن ثم فإن أية لغة تبدو لي رائعة، وأهلاً لتُحفظ وتُمارس ويعتنى بها.

أما اللغة العربية فتحتل لدينا مكانًا خاصًا من حيث إن وحي القرآن قد نزل بحروفها، لأنها كانت وسيلة التبليغ التي استخدمها محمد صلى الله عليه وسلم، ومع أنها غير ضرورية للتواصل مع القرآن والحديث، فإننا نعد تعلّمها أمرًا موصى به جدًا. إذ يجب أن يكون المرء على اتصال دائم مع مصادر إتقان اللغة العربية، إنها أداة مساعدة لا بديل لها. زد على ذلك أنّ بُنى اللغة تحيل إلى أنماط وظيفة الفكر، مما يتيح فهم جبلّة ذلك المجتمع الإسلامي عند نشأته في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه.

التربية والتعليم هما درجة السلّم الأولى، ويجب بعد ذلك أن تتعلم المرأة تمييز المعارف المفيدة من غير المفيدة، وأن تتعلم - زيادة على ذلك - استخدام هذه المعارف المفيدة لتعديل واقعها

التربية والتعليم

تحملني معرفة اللغة العربية إلى أمر عام حول التربية والوصول إلى المعلومة الأداتين اللتين تمكنان من ممارسة تأثير متزايد في عالمنا: وبالفعل فإن شبكات التواصل الجديدة التي تخالف القانون مقتحمةً حدود البلدان، متيحة الوصول مباشرة إلى المعلومة من أية نقطة في الكوكب، قد بدلت النماذج السلوكية ساعة التحكم بها، وهي تُخوِّل مدى محدودًا عمليًا لمن يبث معلومة ولمن يزعم صياغة التصرفات الاجتماعية بها.

أما بالنسبة إلى التربية، فإن من المعروف جيدًا أن امتلاكها ينجز وظائف مختلفة ذات أهمية؛ إذ لا غنى عنها من أجل الوصول إلى عمل جيد، إلى مركز مسؤولية؛ وهي ضرورة لتعزيز الكرامة والمقدرة على التفكير، والتمتع بحقل واسع من التطور البشري. تعد التربية اليوم أكثر من أي وقت آخر شرطًا ضروريًا ضد الغرق في المحيط الإعلامي للشبكات، والحصول منها بالضبط على ما يهم من أجل إعداد أو تأهيل تزداد نوعيته تفاوتًا كلما غدا العامّ عالميًا.

قد أقيم في بلدان كثيرة حدّ تربوي أولي لكل العالم، غير أنه لا يزال هناك الكثير لتعميم هذا الوضع، وبخاصة - وهنا أتكلم بصفتي امرأة - لضم البنات الصغيرات والنساء اللاتي يشكلن تقريبًا ٦٠٪ من المجموع، واللاتي يرين أنفسهن خارج هذا الترتيب.

قد لا يكون التعليم الإلزامي الموحد المناهج والمنتظم، الاختيار الأفضل في جميع الحالات، غير أنه بلا شك هو أجود من الجهل وعدم المعرفة، ووضع النفس خارج الموارد التي تتيحها التنمية، ويتيحها التطور.

ينبغي أن نستأصل تمامًا فكرة أن ليس من الأهمية بمكان أن تكون المرأة متَعلّمة أو لا... يجب التمكن من ضمان تعليم أدنى لها، وهذا لن يكون كافيًا، لأن المرأة بذلك لن تنال العلم من تلقاء نفسها، ولن تكون أكثر حرية. إن التربية والتعليم هما درجة السلّم الأولى، ويجب بعد ذلك أن تتعلم المرأة تمييز المعارف المفيدة من غير

المفيدة، وأن تتعلم زيادة على ذلك استخدام هذه المعارف المفيدة لتعديل واقعها، وما هذا إلا خطوة أولى لا يمكن التغاضي عنها.

يتحدد موضع حديثي من حيث كوني امرأة في مدلولين أساسيين: الأول، المطالبة بحق التعلم، وسيكون من السهل على من لديه شيء من التبصر على المدى الطويل أن يتبين أنه خير للمجتمع بأكمله، وأنه ذو تأثيرات كثيرة في الأجيال القادمة.

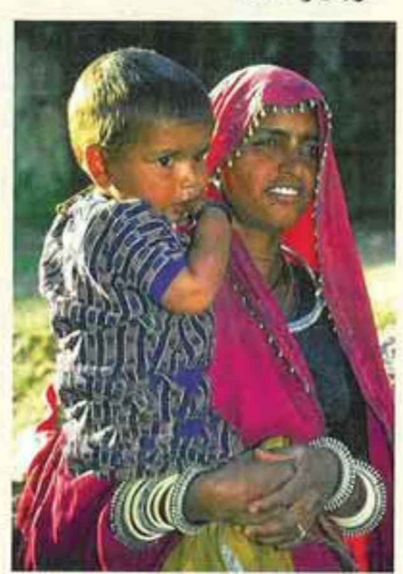
ومن جهة أخرى لدينا نحن النساء ارتباطات قوية بالأرض، بالقوت، بسبب مميزاتنا العضوية (الفيزيولوجية) ومقدرتنا على الإنجاب، مما يحولنا إلى قوة محافظة عظيمة. ومع ذلك، فإن هذا الميل نفسه يجعلنا نرغب في ضمه كله تحت أجنحتنا الحامية، مما يدفع ميلنا إلى التضامن والكرم، ونحن بهذا المعنى ثوريات.

ونتيجة لممارسة المعرفة الناجمة عن وضوح كون الثروات التي يحويها الكوكب تكفي لتقديم الغذاء إلى الجميع، نرى أن ما يخفق هو التوزيع، وهنا يستوجب الأدب التقليدي الذي عملت التربية الإسلامية على تقديمه إلى المسلمين: القيمة المقدسة للحياة، والاحترام، والمشاركة والدفاع فوق كل شيء عن القيم التي تجعل الحياة في العشير أسهل وأكثر إرضاء، أي التفاهم، والصبر، والتأثر بآلام الآخرين، وقبول الآخرين كما هم، وتفسير السمات التي تشكل وضعاً محدداً بعينه كإشارات لإرادة الله. وهذا لا يتعارض مع تحري الوسطاء الذين يتدخلون فيها ولا مع تصميم الإستراتيجيات لتحوير ما يُرغب فيه أو الحفاظ عليه.

إن الأفعال بنواياها. إن دمج الأدب والتأهيل التقني والإنساني سيضاعف المقدرات العظيمة للمرأة. إننا نعرف أن ذلك يتوقف على الظروف الاجتماعية والاقتصادية العامة للمجتمع، وأن الحصول على ذلك ليس مهمة يوم واحد، غير أن العزم على جعل ذلك هدفاً هو البداية لبلوغه.

الحركة النسائية

لقد رأينا على طوال هذا القرن أيضاً تطور ظاهرة اجتماعية متميزة، هي الحركة النسائية. فبتحرينا على طول التاريخ نجد أن الفرق الطبيعي بين الجنسين قد أدى إلى تظاهرات في المنظمة الاجتماعية، تظاهرات قادت إلى أطوار توازن وخلل في التوازن في العلاقات بين الرجال والنساء.



الأسرة جهد مشترك قوامه الرجل والمرأة

لقد أدى إهمال شأن المرأة إلى ولادة الحركة النسائية التي أحرزت - بلا ريب - حقوقاً أساسية للمرأة الغربية، ومع ذلك فإن بعض الصياغات قد حرّفت هذه المطالبات النسائية العادلة، واضعة النساء في مجابهة الرجال، والعكس بالعكس، وجاعلة كلاً منهما عدواً للآخر.

إن هذا - من وجهة نظري - خطأ كبير وخطير؛ لأنه يؤدي إلى انقسام بعيد الغور في النوع البشري، إلى صدع قد يهدمنا جميعاً. وهذا على وجه الدقة هو النقطة الثانية التي يهمني إبرازها: الحاجة إلى التعاون، واعتماد كل من الجنسين على الآخر. إن التعاون حاجة ماسة وجلية لا تستوجب توضيحاً. إن الأسرة تبنى بالمجهود المشترك لرجل وامرأة، وتنهض أية مؤسسة أو أي مشروع على العمل المشترك، ويتم الحفاظ على المجتمع بكامله بالجهود المتعاونة والمتكاملة لأعضائه من رجال ونساء. ولا تبدو حاجة كهذه واضحة جداً في المجتمعات التي تنتج أفراداً منعزلين، ويرى هؤلاء أسباب الراحة في سهولة الحصول على المواد الاستهلاكية، وهم على ما يبدو يحصلون على كل شيء جاهزاً، وإن كان هذا الشيء لا ينفك عن كونه حاجة.

قد يكون الإسلام هو النظام الأكثر إصراراً على هذا الجانب الجماعي لمغامرة الكائن البشري على الأرض، ويلح على تقوية الروابط بين الجماعة ضد هذه الميول المنحرفة في النطاق الغربي. وقد يكون لهذا السبب وللتمركز فيما هو واقعي، وفيما يقرر الحاجات الحقيقية للناس، وليس في دفع تكاليف الحاجات الزائفة التي أنشئت على نحو مصطنع غير طبيعي. ففي الغرب يميلون إلى عد المقترح الإسلامي خطيراً. وقد أعلن الدساسون الماكرون، والمناورون المتلاعبون بالضمائر إن الإسلام عدوهم؛ لأنه ينزع أقنعتهم، ويفضحهم، وهو في الحقيقة يقاوم شعوذتهم الخادعة.

تُحدث جميع الأنظمة - عند ممارستها - عيوباً، إلا أنها تنتج أيضاً آلياتها الخاصة المُصحِّحة. والآن حيث يبدو الكوكب في متناول اليد، والمعلومة عن حدث ما - مهما كان -

صبوره أوربيه

- ولدت ماريا خسوس ألاسترا Maria Jesus Uriba Alastra ابنة ألوخيا Eulogia وخوان Juan في أحضان أسرة كاثوليكية في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩م في خرنيكا Jernika (من بلاد الباسك Pais Baspue).
- حصلت على الإجازة في الفلسفة وعلم النفس من جامعة مدريد المركزية.
- في هذه المدينة - وكانت في الثانية والعشرين من العمر - اقترنت بمنصور عبدالسلام اسكوديرو Escudero الطبيب النفساني والرئيس الحالي للمجلس الإسلامي والاتحاد الإسباني للهيئات الدينية الإسلامية.
- رزق الزوجان بخمسة أولاد: مارتا لطيفة، وبشيرة، وحفيف، ومحمد، وشهيد، واعتنقت الإسلام في أيار/ مايو ١٩٧٨م باسم صبوره.
- إضافة إلى تفرغها إلى تربية أبنائها وتعليمهم، واستقبال العديدين من الأشخاص الذين لا ينفكون عن الهروع إلى منزلها، فقد أسهمت صبوره دائمًا في المهمات التنظيمية للمسلمين في إسبانيا، وبخاصة في النشرات المواجهة للدعوة إلى الإسلام. وكانت تدير مركز التوثيق والنشر في المجلس الإسلامي، وكانت رئيسة تحرير مجلة Verde Islam، كما أدارت في الوقت نفسه Web Islam الصحيفة الرقمية في الإنترنت الموجهة إلى المسلمين الإسبان. وبعد سنة تمامًا من بدء نشرتها استشهدت في ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨م وهي تعمل في عدد النشرة الأخير.

في متناول جميع الناس بصرف النظر عن موقعهم الجغرافي، وحيث يُعرف ما يُقلق - من حيث الجوهر - الكائنات البشرية هنا وهناك، فإن بإمكاننا أن نرى أنفسنا، وأن نشعر بأننا قريبون من أمثالنا، وأن ندرك بأننا جُبلنا من الطينة نفسها، ولأن عالمنا الفردي على نحو مبالغ فيه، والمحب للرفاهية حبًا يتعدى جميع الأشياء، فإنه يرى نفسه يجابه يوميًا حوادث شتى، بحروب وآلام، وبطغيان الطبيعة، ويضرون من زوغان السلوك البشري. وليس محض مصادفة أن تكون صحافتنا موبوءة بأخبار رهيبة. وهكذا فإن أكثر ما سيهم المواطن القارئ هو راحته، وسيضمر عاطفة مبهمة بكونه مذنبًا، ولأنه مذعور فسيكون أسلس قيادًا، وسيعتقد خاشعًا بالبديهيات التي يقترحها العقديون (الأيديولوجيون)، وقد ضاق ذرعًا بمسؤوليته عن الأحداث.

وسيعتقد أبناء القرن الجديد عدم الانسجام بين الأطفال والنمو الاقتصادي، وأن النموذج الديمقراطي والرفاهية - وقد أصلحت كما هي عليه - هي الأجود وهي المثل الأعلى للتطور البشري، من دون مناقشة أن هذا هو المثل الأعلى الذي ينادي به الغرب، ولكنه ليس بالضرورة النموذج الذي يلائمنا جميعًا.

هناك حاجة إلى تربية وتعليم، ودراسة وتفكير، ويقين في المقدرة على تمييز ما يلائمنا ممّا لا يلائمنا من أجل كشف الدعاية المغرضة المضادة للإسلام التي تتسرب إلى وسائل الإعلام.

إن الحياة في جميع امتداداتها محوكة بتوترات، وبضروب من العنف، وبضروب من التفاهم، وبمجابهات، إلخ... ويستمر الأمر كذلك، ولا يتم التغلب على هذه الظروف إلا بالعمل في اتجاه التوفيق، وبالثقة بين هؤلاء وأولئك. يبدو هذا اقتراحًا بارعًا، غير أن الإسلام لا يمكن أن يكون أقل من ذلك، إنه ثوري، ومثالي النزعة وإبداعي، غير أنني أعتقد أنه واقعي على نحو عظيم.

يقول القرآن الكريم: إنّ هناك عوالم كثيرة، وكلها تخصنا إذا عرفنا الوصول إليها، وعلينا من أجل ذلك أن نبدأ بتأكيد وجودها، والإيمان بإمكان جلبها إلى هنا. ولا يمكن إعادة إنشاء هذه العوالم إلا بجهد جماعة من رجال ونساء بالإجماع.

إن العدو الموجود في أنفسنا وخارج أنفسنا هو الذي يحرضنا على إفقار مفهوم الله، ويقدم لنا الحقيقة على أنها ضيقة وهيابة، ويحيل عوالمنا إلى عالم واحد، عالمٍ ذي مظهر أشد ثباتًا، ويغذي الانفصال والمجابهة بين شتى الجماعات البشرية، أو بين القوميات المختلفة، أو بين الرجال والنساء.

إن بناء المستقبل يتطلب تعاون الجميع، وتحقيق الغايات، والله يعلم كيف سيكون هذا المستقبل، إلا أن في متناولنا اتخاذ القرار وتنفيذه، ويتطلب ذلك الوصول إلى المعلومة، والتأهيل الذي لا غنى عنه لفك رموزها، وإرادة استخدامها على أجود وجه.

الهوامش

١. المانوية مذهب يقول بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر، النور والظلام.

أبو إسحق الأسْفَرَاييني
في ذكراه الألفية

محمد عبدالحكيم القاضي
المنيا - مصر

من عوامل النهضة العلمية للأمة مواصلة العطاء بين ماضيها وحاضرها، ومداومة انتماء اليوم إلى الأمس، انتماء تجديد لا انتماء تقليد، انتماء استلهام لا انتماء استسلام.

فهذا المقال تذكير بعلم من أعلام الأمة الإسلامية هو الإمام أبو إسحق الأسفراييني (ت: ٤١٨هـ) الذي مرّ على وفاته أكثر من ألف سنة، وكان علامة بارزة في حياة أمتنا الفكرية، إلا أنه لم يلق من الدارسين المُحدثين العناية التي تليق بمنزلته العلمية.

إغفال المتأخرين لمكانته

وقبل التعريف بالإمام أبي إسحق - الذي عرف بين الشافعية بلقب الأستاذ، حتى إنه لو أطلق لقب الأستاذ في أحد كتب الفقه أو الأصــول فــالمراد به هـو أبو إســحق الأسفراييني - أقول قبل التعريف به: أودّ أن ألفت النظر إلى أنّ المفهرسين المحدثين لم يُولُوه حقه، وقصر في حقه الباحثون على الرغم من مشاركته في علوم العقيدة والفقه والأصول، وتفرده في الاجتهاد والنظر على نحو ما سنرى منتهزين فرصة ذكراه الألفية في التعريف به، أو قُل: التذكير به.

فمن المؤسف أن نجد كارل بروكلمان - رائد فهرسة التراث الإسلامي في العصر الحديث - يترجم له ترجمة هزيلة، يحيل فيها على مصادر قليلة، وحينما يذكر آثاره لا يذكر أثرًا واحدًا صحيحًا(١). أما فؤاد سزكين الذي ينبغي أن يقوم بدور المستدرك على بروكلمان، فيبدو أنه لم يجد بدًا من الهروب من الترجمة لما لم يجد له عند بروكلمان أثرًا صحيح النسبة إليه، فذكر في كتابه «تاريخ التراث العربي» مشاهير فقهاء الشافعية، ولم يذكره(٢).

ولم تزد دائرة المعارف الإسلامية التي صنفها المستشرقون على صنيع سزكين، ففي مادة «إبراهيم» لم تذكره باسمه، وفي مادة أبي إسحاق لم تذكر سوى أبي إسحاق الإلبيري فقيه الأندلس المشهور(٣)، وأما مادة «أسفرايين» فذكرت البلدة، ولم تشر إليه أدنى إشارة(٤).

أما الدكتورة فاطمة محجوب، فقد ذكرته في «الموسوعة الذهبية»، إلا أنها لم تزد على نقل ما كتبه السمعاني في الأنساب، والنووي في «تهذيب الأسماء» بلفظه(٥).

نار تحرق

وأما المتقدمون من المترجمين، فقد اهتموا بالترجمة لأبي إسحق، ولقبوه بالأستاذ، وذكروا طائفة من أخباره وأحواله، فهو «الإمام العلامة الأوحد، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الأسفراييني الأصولي، الشافعي، الملقب ركن الدين أحد المجتهدين في عصره، وصاحب التصانيف الباهرة»(٦)، «أحد أئمة الدين كلامًا، وأصولاً، وفروعًا، جمع أشتات العلوم، واتفقت الأئمة على تبجيله وتعظيمه، وجمعه شرائط الإمامة»(٧).

وهو من أسفرايين، التي ذكرها ياقوت، وقال عنها:(٨): «بليدة حصينة من نواحي نيسابور، على منتصف الطريق من جرجان واسمها القديم «مهرجان» سماها بذلك بعض الملوك لخضرتها ونضارتها». وقد تنقّل في طلب الحديث في كل نواحي المشرق تقريبًا، فنجده في العراق يفتي ويناظر، وانصرف من العراق، وقد شهد له العلماء بالتقدم، كما يقول الحاكم(٩)، ونجده في خراسان يشهد له علماؤها بالفضل والسبق(١٠)، حتى إنه «خرج بعد الجهد إلى نيسابور»، وفي نيسابور بُنيت له مدرسة مشهورة، قال النووي نقلاً عن «تاريخ نيسابور»(١١): «وبني له في نيسابور المدرسة التي لم يبن بنيسابور مثلها قبلها، فدرس فيها وحدث»، قال عبدالغافر في «تاريخه»(١٢): «كان أبو إسحاق طراز ناحية المشرق - فضلاً عن نيسابور ونواحيها - ومن المجتهدين في العبادة المبالغين في

الورع». ومن هذا النموذج الفريد الذي جمع المعارف وتفرد فيها، وأضاف إليها الصفات الكريمة، والخلال الفاضلة وجدنا تقدير العلماء له، حتى الصاحب بن عباد، المشهور بالاعتزال، فإنه قال لأصحابه: «ابن الباقلاني بحر مغرق، وابن فورك صل مطرق، والأسفراييني نار تحرق»(١٣)، ولعله أشار بوصفه هذا للأستاذ إلى توقد ذهنه، وقوة عارضته، وجودة مناظرته.

ولو ذهبنا نعدد ثناء العلماء عليه ما وسعنا ذلك في هذه العجالة، إلا أن بقية حديثنا عنه في نواحي علومه المختلفة وشيوخه وتلامذته ومصنفاته، لعلها تكمل في نفسنا هذه الصورة المحببة.

شيوخه

مثل أبي إسحاق الأسفراييني في رحلاته ودأبه في الطلب، لا يستطاع حصر شيوخه في مختلف الميادين العلمية، وقد ذكر الذهبي عدداً منهم، فقال(١٤):

«وسمع من: دعلج السجزي، وعبدالخالق بن أبي رويا، وأبي بكر محمد بن عبدالله الشافعي، ومحمد بن يزداد بن مسعود، وأبي بكر الإسماعيلي، وعدة» ونحن هنا نعرف موجزاً باثنين منهم محيلين إلى ترجمتهم لمن أراد الزيادة.

- الحافظ الإمام أبو بكر الإسماعيلي:(١٥) أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني الإسماعيلي، الشافعي شيخ الشافعية. كتب الحديث بخطه وسمع، ورحل. وهو إمام أهل جرجان، والمرجوع إليه في الفقه والحديث. قال الحاكم: «كان واحد عصره، وشيخ المحدثين والفقهاء، وأجلهم في الرياسة والمروءة، والسخاء». ونقل الذهبي أنه كان مقدماً في جميع المجالس، فإذا حضر لم يكن يقرأ غيره، له المصنفات الكثيرة، وأهمها المستخرج على الصحيح «صحيح البخاري». توفي في سنة ٣٧٠هـ.

- الإمام الفقيه المحدث دعلج بن أحمد بن دعلج بن عبدالرحمن السجزي(١٦): الفقيه المعدل، الحجة الإمام، شيخ أهل الحديث في عصره. سمع بالحرمين والعراق وخراسان وغيرها من النواحي، وورد مصر، وحدث بها. له مآثر جمة في السخاء والكرم والمروءة. توفي بعد سنة ٣٥٢هـ - على ما حققه الذهبي في السير.

فهذان شيخان من فحولة المشايخ لهذا الإمام الجليل.

تلاميذه

أما تلاميذه فلا يمكن إحصاؤهم، وهو الذي حدث في البلاد، وطاف، وبنيت من أجله مدرسة يدرس فيها ويحدث، إلا أننا سنورد ما قاله السبكي في طبقات الشافعية، قال(١٧): «روى عنه أبو بكر البيهقي، وأبو القاسم القشيري، وهبة الله بن أبي الصهباء(أبو السنابل)(١٨)، ومحمد بن أبي الحسن البالوي». زاد الذهبي(١٩): «وأبو الطيب الطبري، وتخرج به في المناظرة».

الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي(٢٠):

وهو أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى الخسروجردي البيهقي، الخراساني، صاحب السنن الكبرى، المحدث الفقيه، الناقد، اجتهد في نقد الحديث، وتحصيل الأسانيد العالية، ورحل إلى أرجاء المشرق الإسلامي كافة، ثم مكة والمدينة، كان محدث زمانه، وشيخ السنة في وقته، وقد روى عن الإمام الأستاذ أبي إسحق في مواضع كثيرة من السنن الكبرى (ت:٤٥٨هـ).

- أبو القاسم القشيري(٢١):

الإمام القدوة الزاهد الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك النيسابوري القشيري الشافعي المفسر. أحد الفرسان البارعين في الفروسية والعمل بالسلاح، تفقه على جماعة منهم: الأستاذ أبو إسحق الأسفراييني، ثم برع في الفقه، وكان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب، والشعر والكتابة، وكان عديم النظير في السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، من أشهر مصنفاته «التفسير الكبير»، و«الرسالة» المعروفة باسم الرسالة القشيرية، وهي مشهورة عند القوم. (ت:٤٦٥هـ).

تفننه وبعض آرائه ومصنفاته

سبق أن أشرنا إلى شيء من المكانة العلمية التي احتلها الأستاذ في المشرق الإسلامي قاطبة، خصوصاً لشهرته بالبصر في علوم أربعة كانت شغل الناس الشاغل، واحتلت موضعاً رفيعاً من اهتمامهم، هي: العقيدة، والفقه، والأصول، والحديث.

فأما الأول، وهو العقيدة، فقد اشتهر الأستاذ بمصنفه الضخم المسمى «جامع الحلى»، وقد سماه صاحب كشف الظنون «جامع الجلي والخفي في أصول الدين»(٢٢). ويبدو أن التاج السبكي قد وقف عليه؛ لأنه نقل عنه نصاً عن الشافعي، وشرحاً للأستاذ عليه(٢٣)، ومن المعروف أنه كان ينتصر للاعتقاد المنسوب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى. قال السبكي: «و عليه أخذ الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور»(٢٤).

وقد نسب الإمام الذهبي - حكاية عن أبي القاسم القشيري - إليه رأياً بإنكار كرامات الأولياء. وعلق الذهبي على ذلك بقوله: «وهذه زلة كبيرة»(٢٥).

أقول: لو صح هذا النقل على إطلاقه لاحتاج هذا إلى تثبت، خصوصاً أن أئمة الصوفية يعاب عليهم عدم التحري في حكاية الأقوال عموماً، وعدم الدقة في النقل عن المخالفين.

وأما الفقه والأصول، فقال أبو الحسن عبدالغافر الفارسي(ت: ٥٢٩هـ): «كان الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني أحد العلماء الذين بلغوا حد الاجتهاد، لتبحره في العلوم، واستجماعه شروط الإمامة من العربية والفقه والكلام والأصول، ومعرفته بالكتاب والسنة»(٢٦). وألمح أبو عمرو بن الصلاح إلى جزئية مهمة، وهي أنه كان «ناصراً لطريقة الفقهاء في أصول الفقه، مضطلعاً

بتأييد مذهب الشافعي في مسائل من الأصول أشكلت على كثير من المتكلمين الشافعيين، حتى جبنوا عن موافقته فيها»(٢٧).

هل المجتهد مصيب مطلقاً؟

ومن الأمثلة التي ذكرها الأئمة على المسائل التي جدّ فيها الإمام الأسفراييني، وأحكم الدفاع عنها:

ـ مسألة أنّ المصيب من المجتهدَيْن واحد:

ومن المعروف أن هذا هو مذهب الجماهير من العلماء، واشتهر بذلك الشافعي رحمه الله تعالى. والذي يهمنا ليس الدفاع عن الشافعي هنا؛ لأن النص واضح في الحديث: «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»(٢٨)، وللحديث ألفاظ كثيرة تدل على خطأ أحد المجتهدين، إلا أن جماعة من نظّارة الشافعية قد انصرفوا إلى القول بتصويب المجتهدين أو المجتهدين جميعاً على اختلافهم في المسألة الواحدة، وحاول الإمام أبو حامد الغزالي الانتصار لها في «المستصفى»، وقد ناقشت هذه المسألة باستفاضة في تعليقاتي على المستصفى(٢٩)، وكذلك في هوامشي على كتاب «الفتوى في الإسلام» للشيخ جمال الدين القاسمي(٣٠)، إلا أن أبا إسحاق هنا قد أضاف بعداً جديداً إلى المسألة هو قوله(٣١): «القول بأن كل مجتهد مصيب أوّله سفسطة، وآخره زندقة» وهذه العبارة تلفتُ انتباه الأستاذ أبي إسحق إلى البعد الخطير في هذه المقولة، وهو أنها مبنية على جدلية غير صحيحة، تنطوي على مغالطة، لأنها في مقابل النص الصحيح الصريح عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهي في الوقت نفسه تنتهي ـ فيما يسميه العلماء بلازم القول ـ إلى زندقة، لأن من لوازمها إجازة الشيء وضده، وألا يكون هناك باطل إلخ... إلى جانب أنّ لوازمها إنكار بعض السنة الواضحة التي لا تحتمل التأويل.

ويبدو أن الأستاذ كان متشدداً في هذا الرأي والانتصار له، لدرجة أنا أبا القاسم الفقيه قال(٣٢): «إن شيخنا الأستاذ إذا تكلم في هذه المسألة قيل: القلم عنه مرفوع حينئذ لأنه كان يشتم ويصول، ويفعل أشياء».

نسخ القرآن بالسنّة:

ومن المشهور أن الشافعي له قولان في هذه المسألة أشهرهما: أن السنة يمتنع نسخ القرآن بها من جهة الأدلة السمعية، مع جوازه عقلاً(٣٣).

والمراجع لكتب الشافعية في الأصول يلاحظ تخبط الشافعية في هذه المسألة، وإن كان الرازي حاول أن ينتصب للدفاع عن مذهب الشافعي الذي حكيناه مجملاً هنا(٣٤).

ويا للأسف فالوقت والمجهود لم يسعفاني حتى الآن لتبيّن وجهة نظر أبي إسحاق كاملة في هذا الموضوع الذي خاص فيه المتكلمون والأصوليون والمحدّثون لشدة الحاجة إلى تطبيقاته العملية في الفقه، ونتمنى أن يهيئ الله رجلاً يعمل على جمع آراء أبي إسحاق في العلوم المختلفة؛ لأن مصنفاته لم تصل إلينا كاملة حتى الآن ـ على الرغم من أنّ له تعليقة في الأصول ـ أصول الفقه، وكتاب «أدب الجدل»، و«مسائل الدور»، وهو ـ كما يظهر من عنوانه ـ كتاب في الجدل أو المناظرة أو المنطق. والمرء يظفر أحياناً في المصنفات بالرأي بعد الرأي من آرائه، ولعل واحداً من باحثينا يعتني بهذه الآراء ليخرجها في صورة تطرح فكره على الدارسين والمهتدين.

الأسفراييني المحدّث

وأما في ميدان الحديث، فهو الإمام المحدث البارع، قال عنه السمعاني: «رحل إلى العراق في طلب العلم، وحصل ما لم يحصل غيره»(٣٥). وقد سمع في العراق من أبي بكر محمد بن عبدالله الشافعي، ودعلج بن أحمد وأقرانهما، وسمع بخراسان من الإمام أبي بكر الإسماعيلي(٣٦). قال عبدالغافر: «وكان ثقة ثبتاً في الحديث»(٣٧).

ويبدو أنه سمع الكثير من الحديث، ومن ثم عُقد له مجلس الإملاء بنيسابور بمسجد عقيل(٣٨). وعند السبكي حديث يصرح فيه تلميذه أبو الصهباء بقوله: «حدثنا الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم المهرجاني الأسفراييني إملاءً في مسجد عقيل بعد صلاة العصر يوم الخميس في المحرم سنة إحدى عشرة وأربعمئة ـ وهو إملاء عقد له»(٣٩). وهذا يدل على أنّ أول مجلس إملاء عقد له كان قبل وفاته بسبع سنوات تماماً، لأن وفاته كانت في المحرم سنة ٤١٨هـ.

وقد انتخب له الحاكم صاحب المستدرك عشرة أجزاء، وخرّج له أبو بكر بن منجويه الأصبهاني ألف حديث. والمطالع لكتابي البيهقي والحاكم يشعر من خلال الأسانيد بمدى إفادة السنن من حديث أبي إسحاق. إلا أننا نؤثر الاختصار فنذكر أمثلة على معرفته بقواعد الحديث، ودراية أصوله، والوعي بمصطلح نقلته ورواته:

ـ سأله الحافظ أبو سعد عبدالرحمن بن علك النيسابوري عما إذا روى الشيخ حديثاً طويلاً، فاختصره بقوله في آخره: «وذكر الحديث» هل يجوز لراويه عنه أن يذكر الحديث بطوله ولا يختصره؟ فأجاب الأستاذ: إن ذلك لا يجوز.

قلت: وهذا يدلّ على الغاية في الضبط والاحتياط في الرواية، وقد أثارها العلماء قديماً، وذكر الخطيب في الكفاية اختلافهم فيها، كما يدل هذا على أن الحفّاظ الكبار كانوا يجلسون بين يدي الأستاذ ليسألوه عن المعضلات.

ـ لم يكن أبو إسحاق يرجّح الذكورة على الأنوثة في الرواية. وهذا أيضاً من دقائقه، وقد أورد المحدثون والعلماء بحوثاً مطولة في الفرق بين الرواية والشهادة، يمكن مراجعتها عند الخطيب في الكفاية(٤٠)، أو السيوطي في تدريب الراوي(٤١).

مناظراته

سبق أن ذكرنا وصف الصاحب بن عباد له بأنه «نار تحرق» ولعل ذلك لقوة عارضته، وإفحامه الخصوم في مناظرته،

وقد اشتهر الأستاذ بالمناظرة، ورويت له بعض المناظرات التي تدل على وعيه التام بأصول المناظرة، وقواعد الجدل. وهو نفسه له مصنّف في آداب البحث والمناظرة، وقد أشرنا إلى أن المحب الطبري، أحد شيوخ الشافعية، تعلّم عليه طرائق المناظرة.

وسنكتفي هنا بإيراد إحدى مناظراته لطرافتها وصغرها، وهي التي جرت بينه وبين القاضي عبدالجبار شيخ المعتزلة، ومرجعهم في زمانه، وصاحب المصنفات الكبيرة في نصرتهم. قال السبكي في طبقاته(٤٢):

قال عبدالجبار في ابتداء جلوسه للمناظرة: سبحان من تنزه عن الفحشاء. فقال الأستاذ مجيباً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أفيشاءُ ربنا أن يُعصى؟

فقال الأستاذ: أفيُعصى ربنا قهراً؟

فقال عبدالجبار: أفرأيت إن منعني الهدى، وقضى علي بالردى. أحسن إليّ أم أساء؟

فقال الأستاذ: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء. فانقطع عبدالجبار.

وفاته

بعد هذه الحياة الحافلة بالفائدة العلمية، والعطاء، يجمل بنا أن نختصر صفاته التي تحلّى بها خلالها في قول أبي حازم العبدري(٤٣): «وفوائده وفضائله وأحاديثه وتصانيفه أكثر من أن تستوعب في مجلدات».

ونقل المؤرخون أنه كان يقول بعد أن رجع من أسفرايين: أشتهي أن يكون موتي في نيسابور حتى يصلي علي جميع أهل نيسابور.

فتوفي بعد هذا الكلام بنحو من خمسة أشهر، في يوم عاشوراء سنة ثماني عشرة وأربعمئة، وصلّى عليه الإمام الموفق(٤٤). زاد السمعاني: «ودفن في مشهد أبي بكر الطرسوسي، ثم ورد ابنه في خلق عظيم من أهل أسفرايين، ونقلوه بعد ثلاث، وصلّوا عليه في ميدان الحسين، وحملوه إلى أسفرايين، ودفن في مشهده، وهو اليوم ظاهر»(٤٥).

قلت: ويبدو أن الإمام النووي لم يطلع على هذا الكلام من السمعاني، فقال: «وأما قول أبي بكر السمعاني: إنه توفي بأسفرايين فأنكروه عليه، فالصواب أنه توفي بنيسابور، وحمل إلى أسفرايين(٤٦)، فمن الواضح أن السمعاني لم يقل غير هذا.

فرحم الله الأستاذ أبا إسحاق رحمة واسعة.

المراجع

(*) طبقات الفقهاء للشيرازي: ١٠٦، الأنساب للسمعاني: ٢٣٧/١، تبيين كذب المفتري لابن عساكر: ٢٤٣، ٢٤٤، تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١٦٩/٢، ١٧٠، وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢٨/١، سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣٥٣/١٧، البداية والنهاية لابن كثير: ٢٤/١٢، الوافي بالوفيات للصفدي: ١٠٤/٦، ١٠٥، كشف الظنون: ٥٣٩/١. وغيرها.

١. تاريخ الأدب العربي: بروكلمان. ترجم بإشراف: د. محمود فهمي حجازي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القسم الرابع: ص٢٥، وذكر تحت عنوان آثاره، كتاباً بعنوان: «نور العين في مشهد الحسين» لم يستطع هو أن يسلّم بنسبته إليه. وهذا صواب، غير أنه لو رجع إلى ابن خلكان حقاً كما ذكر لوجد بعض آثاره.

٢. تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين، الطبعة المترجمة: ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ٢، القسم الخاص بفقهاء الشافعية، ص١٥٦ ـ ١٩٥، قسم عقيدة أهل السنة ص ٢٧٦ ـ ٢٩٣.

٣. دائرة المعارف الإسلامية «النسخة المترجمة»، ٤٢١/١.

٤. المصدر السابق: ٣١٤/٢.

٥. الموسوعة الذهبية، د. فاطمة محجوب: ٣٧٦/٤.

٦. سير أعلام النبلاء للذهبي، ط الرسالة: ١٧/ ٣٥٣.

٧. طبقات الشافعية للسبكي، طبعة دار المعرفة مصورة، ١١١/٣.

٨. معجم البلدان ـ لياقوت، طبعة دار الكتب العلمية ٢١١/١. وفيه: أسفرايين بالفتح، ثم بالسكون، وفتح الفاء وراء وألف. وياء مكسورة وياء أخرى ساكنة ونون.

٩. تهذيب الأسماء واللغات، النووي: ١٦٩/٢.

١٠. السبكي، مصدر سابق: ١١١/٣.

١١. النووي، مصدر سابق: ١٦٩/٢، وراجع الذهبي، مصدر سابق، ٣٥٥/١٧.

١٢. السبكي: ١١٢/٣، الذهبي، ٣٥٤/١٧.

١٣. تبيين كذب المفتري لابن عساكر: ص٢٤٤.

١٤. الذهبي: ٣٥٣/١٧.

١٥. من مصادر ترجمته:
الأنساب للسمعاني، ٢٤٩/١، طبقات الشافعية للسبكي: ٨٧/٣، سير أعلام النبلاء، ٢٩٢/١٦، تذكرة الحفاظ، ٩٤٧/٣.

١٦. تاريخ بغداد: ٣٨٧/٨ وهوفيه السجستاني، السبكي: ٢٩١/٣، سير أعلام النبلاء ٣٠/١٦، ابن خلكان: ٢٧١/٢.

١٧. السبكي: ١٢/٣.

١٨. هي عند السبكي: أبو السائب: وقد صححتها من «السّير للذهبي»: ٣٥٣/١٧.

١٩. الذهبي، ٣٥٣/١٧.

٢٠. الأنساب للسمعاني، ٣٨١/٢، تبيين كذب المفتري: ٢٦٥، المنتظم لابن الجوزي، ٢٨٢/٨، وفيات الأعيان: ٧٥/١، سير أعلام النبلاء، ١٦٣/١٨، الوافي بالوفيات، ٣٥٤/٥، طبقات الشافعية، طبعة الحلبي، ٨/٤.

٢١. تاريخ بغداد: ٨٣/١١، الأنساب: ١٥٦/١٠، ابن خلكان، ٢٠٥/٣، طبقات الأولياء، ٢٥٧، سير أعلام النبلاء، ٢٢٧/١٨.

٢٢. كشف الظنون لحاجي خليفة، ٥٣٩/١.

٢٣. السبكي، ١١٢/٣.

٢٤. المصدر السابق نفسه.

٢٥. الذهبي، ٣٥٥/١٧.

٢٦. السبكي، ١١٢/٣، وراجع الأنساب للسمعاني، ١٤٤/١.

٢٧. النووي، ١٧٠/٢.

٢٨. الحديث صحيح متفق عليه، رواه البخاري برقم ٧٣٥٢، ومسلم برقم ١٧١٦، والإمام أحمد، ٢٠٤/٤، ٢٠٥، وغيرهم.

٢٩. راجع تعليقي على المستصفى للغزالي في هذه المسألة طبعة دار الكتاب المصري اللبناني.

٣٠. راجع تعليقي على كتاب الفتوى في الإسلام للقاسمي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٣١. الوافي بالوفيات للصفدي، ١٠٥/٦، الذهبي، ٣٥٥/١٧.

٣٢. الذهبي، ٣٥٥/١٧.

٣٣. راجع: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، طبعة صبيح، ١٨٣/١ ـ ١٨٨، وهما المسألتان التاسعة والعاشرة.
اللمع في الأصول للشيرازي «تخريج الغماري، عالم الكتب، بيروت» ص١٧٤.

٣٤. راجع مناقب الشافعي للرازي، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، ص١٨١. وتفسيره لقوله تعالى:«ما ننسخ من آية أو ننسها. البقرة:١٠٦. الآية في مفاتيح الغيب.

٣٥. الأنساب، ١٤٤/١.

٣٦. السبكي، ١١٢/٣.

٣٧. ابن عساكر، «مصدر سابق» ص٢٤٤.

٣٨. الأنساب، ١٤٤/١.

٣٩. السبكي، ١١٣/٣.

٤٠. الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، ص١٦١ ـ ١٧٤.

٤١. تدريب الراوي للسيوطي، ص٢٢٢.

٤٢. السبكي، ١١٤/٣.

٤٣. النووي، ١٠٧/٢.

٤٤. النووي، ١٧٠/٢. السبكي ١١٢/٣

٤٥. السمعاني، ١٤٤/١.



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٨٨)

جمادى الآخرة ١٤٢١هـ - سبتمبر ٢٠٠٠م

الفائز الأول: **عواد حمد حماد الجهني - السعودية.**

الفائز الثاني: **حسن عبدالمجيد محمد عبابنة - الأردن.**

الفائز الثالث: **السيد إبراهيم محمد بركات - مصر.**

الفائز الرابع: **مُنية سالم التريكي - تونس.**

حل مسابقة العدد (٢٨٨)

جفون العذارى من خلال البراقع أحدُ من البيض الرقاق القواطع

قائل البيت: عنترة العبسي.

سيبوس: نهر في الجزائر ينبع من التلي في جبال أطلس، ويصب في البحر المتوسط.

«أم المساكين» لقب إحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وهي: زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية.

علي الغربي: بلدة في العراق (محافظة ميسان).

الأورومتر: مقياس ارتفاع الجبال.

مسابقة الشهر (العدد ٢٩١)

ضع علامة ☐ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) من قائل هذا البيت: **لا يحمل الحقدَ من تعلو به الرُّتَبُ ولا ينالُ العُلا مَن طبْعُهُ الغضبُ**
☐ المتنبي ☐ عنترة العبسي.

(٢) كتاب «أسرار الكيمياء» هو لـ: ☐ جابر بن حيان ☐ الزهراوي.

(٣) رمضان: مأخوذ من: ☐ رمض الصائم يرمض إذا حرّ جوفه من شدة العطش
☐ اسم من أسماء اللغات القديمة.

(٤) بني المسجد الحرام قبل المسجد الأقصى بـ: ☐ ٤٠ عامًا ☐ ١٣٨ عامًا.

(٥) أول من استشهد من الأنصار يوم بدر: ☐ حارثة بن النعمان ☐ عبدالله بن عمرو والد جابر بن عبدالله.

الاسم: ص.ب:

العنوان: الرمز البريدي:

المدينة: هاتف:

الدولة: ناسوخ:

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى: ١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الثانية: ٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة: ٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

عنوان المجلة:

ص.ب (٣) - الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

صدر حديثا عن دار الفيصل الثقافية

إصدارات دار الفيصل الثقافية (١٠)

رقم الوعاء

دراسة نظرية
وميدانية لأنماط
استخدامه في
مكتبات مدينة
الرياض بالمملكة
العربية السعودية

فؤاد حمد رزق فرسوني

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ/٢٠٠٠م

المسجد الأقصى[1] وقبة الصخرة

جولة تاريخية بين المنارة والعمارة الإسلامية

لقد قرأت في العدد ٢٨١ من مجلة الفيصل الغراء مقالة بعنوان «جولة تاريخية بين المنارة والعمارة الإسلامية» للكاتب عبدالله جعفر السيد، فلفت نظري فيها ما كتب تحت عنوان صغير «المسجد الأقصى»، فقد أشار الكاتب إلى أن الخليفة عبدالملك بن مروان قد بنى المسجد الأقصى سنة ٧٤هـ واستعمل فيه أنقاض كنيسة القديسة ماري، ويقال كنيسة جوستنيان التي كانت تقع في موقع المسجد الأقصى نفسه...، وهذا القول مخالف للحقيقة التاريخية. إذ إن المسجد موجود منذ القدم وقد كان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمّ أنبياء الله ورسله جميعاً فيه في صلاة لم يشهدها مسجد غيره.

فكيف يكون مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذكر الكاتب أنه بني في سنة ٧٤هـ أي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو ٦٤ سنة؟!.

كما أن الصورة التي ظهرت في ص ٤٥ تحت عنوان «المسجد الأقصى» هذا أيضاً قول مجانب للحقيقة، وهي في حقيقة الأمر صورة مسجد قبة الصخرة المشرفة، وهناك فرق بين المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة. ولتوضيح الحقيقة للقارئ نقول، فقد روى الإمام البخاري سؤال أبي ذر الغفاري رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ فقال «المسجد الحرام» قال ! قلت ثم أي؟ قال «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة فصل، فإن الفضل فيه». ومن هنا نستنتج أن المسجد الأقصى هو ثاني المسجدين بعد المسجد الحرام من حيث البناء وأولى القبلتين حيث أمر الله رسوله بعد فرض الصلاة في رحلة المعراج بالتوجه إلى المسجد الأقصى، حتى أمر الله تعالى بتغيير القبلة إلى المسجد الحرام. وثالث الحرمين الشريفين بعد مكة والمدينة. حيث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد وفقاً للحديث الذي رواه ابن حبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.. المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا».

ولتوضيح الفرق بين المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، لابد أن نتحدث قليلاً عن الموقع الذي يقعان فيه أولاً، وهو الحرم القدسي الشريف، والذي أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: *سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله*. الإسراء:١. والمقصود بقوله تعالى الذي باركنا حوله. هي المساحة المحيطة بالمسجد الأقصى والتي تشكل منطقة الحرم القدسي الشريف والبالغة ٢٦٠٦٥٠ متراً مربعاً، بما فيه مساحة المسجد الأقصى، وهي سدس مدينة القدس العربية، ويضم هذا الحرم ما يزيد على عشرين أثراً إسلامياً هي المسجد الأقصى المبارك، وقبة الصخرة المشرفة، وقبة السلسلة، وقبة المعراج، وقبة الأرواح، وقبة الخضر، وباب القبلة، والباب الذهبي، وباب الجنة، وباب النبي داود، والباب الغربي، وباب المغاربة، وباب القطانين، وباب النذير، وباب القيم، وباب حطه، وباب الأسباط، وقنطرة الموازين، ومئذنة المغاربة، ومئذنة الغوانمة، والكاس، والمدرسة الجاولية، والبيمارستان الصلاحي، والخانقاه الصلاحية، وجامع عمر بن الخطاب، والمدرسة الكاملية، والمدرسة الجوهرية، وسبيل قايتباي، وسبيل باب المحكمة.

ويقع المسجد الأقصى وهو ذو قبة فضية وليس ذهبية، في الطرف الجنوبي للحرم الشريف. وهو أكبر مساجد القدس حيث يبلغ طوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً. أما قبة الصخرة فتقع في قلب الحرم الشريف، يحدها الجدار الشرقي للحرم وتحيط بها ثماني قناطر وتسمى الموازين وتختلف في عدد أعمدتها وعقودها وإن اتفقت في كونها تواجه الجهات الأصلية الأربع، بينما تقع مئذنة الغوانمة في أقصى اليمين.

والتباين بين قبة الأقصى الفضية وقبة الصخرة الذهبية يعد واحداً من مميزات الحرم الشريف ومعالم مدينة القدس،

ويفصل بين مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى القنطرة الجنوبية للحرم الشريف، ويقع بينهما «الكاس» وهو حوض مدور مبني من الرخام يستخدم في الوضوء للصلوات الخمس ويقابله المرقى «الدرج» المؤدي من قبة الصخرة إلى المسجد الأقصى في الطرف الجنوبي للحرم الشريف.

أما ما أشار إليه الكاتب فهو ينطبق على مسجد قبة الصخرة، والذي ظهر في الصورة، وقد بناه عبدالملك بن مروان فعلاً، وقد استخدم لذلك المهندسين والفنانين المدربين، وللمسجد أبواب برونزية مزينة بصفائح فضية مزخرفة، وهي من أقدم ما بقي من هذا النوع من الزخارف، وقام الفنانون بتزيينه بالفسيفساء والرسوم، سواء عند بنائه أو عند ترميمه أو تجديده، ويشتمل على الطرز الصقيلة، ورسمت فيها صور نباتية أو أشكال هندسية، وترك لنا عبدالملك على دائر باطن القبة كتابة بالخط الكوفي، وهي أقدم كتابة إسلامية، وبعد ذلك بنحو قرن وربع، عمد الخليفة العباسي المأمون إلى ترميم هذا البناء. وقد بني هذا المسجد على الصخرة التي يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم عندما عرج إلى السماء صعد من على تلك الصخرة، وقد ارتفعت في الهواء حتى ترفع النبي صلى الله عليه وسلم عن الأرض فقال لها: «قفي بارك الله فيك» فوقفت معلقة، في الهواء، ولأنها تثير الفزع لمن يراها، فقد تم بناء تحتها يسندها، ولكن قصة تعلقها في الهواء ليس لها دليل. والمهم أن مسجد قبة الصخرة قد بني في هذا الموقع، وليس على أنقاض كنيسة كما أشار الكاتب. والصخرة هذه تقع في وسط المسجد والقبة من فوقها، وقد وصفها المقدسي «٣٨٠هـ - ٩٨٨م» صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، قال: «والصخرة حجر أزرق لونه، لم يطأها أحد برجله أبداً، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض، كأن إنساناً سار عليها فبدت آثار أصابع قدميه فيها، كما تبدو على الطين الطري، وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام، وسمعت أن إبراهيم عليه السلام كان هناك، وكان إسماعيل طفلاً فمشى عليها».

أما الرحالة ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) فقد وصف قبة الصخرة بقوله: «و هي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، وقد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعه بطرف. وهي قائمة على نشر في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً، محكمة الصنعة، وكذلك داخلها، وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب، فهي تتلألأ نوراً، وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها، وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار فإن النبي صلى الله عليه وسلام عرج منها إلى السماء وهي صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ارتفاعه نحو قامة أيضاً، ينزل إليها على درج وهناك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها، أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة، من الحديد بديع الصنعة والثاني من خشب».

عبدالسلام سالم عبدالله
المنصورة - ص.ب رقم ٧٢٦٨ - الجمهورية اليمنية

المراجع

١. مجلة الأسرة العدد ٨٠ مقال للأستاذ نزار رمضان
٢. مجلة العربي العدد ٢٤٧ استطلاع للأستاذ مصطفى نبيل.
٣. مجلة الكويت العدد ١٩٧ مقال للأستاذ أحمد أبو زيد.
٤ ـ ٥. مجلة العربي العدد ٢٨٢ مقال للأستاذ عبدالغني محمد عبدالله.

تجميل لا انتقاد

أود أن أسجل إعجابي الشديد بمجلتنا «الفيصل» الغراء على ما تمتلئ به صفحاتها الجميلة من أبحاث مفيدة لكتاب جادين، ومن هذه الأبحاث التي أثارت إعجابي ما تفضلتم بنشره في العدد ٢٨٤ في صفحة لغة للأستاذ محمد حسان الطيان تحت عنوان «ما بني من الأفعال على حرف واحد»،



وذلك لطرقه ذلك المبحث الطريف، ومجيئه عليه بإحاطة طيبة، في بداية جذابة تبقى معك متعتها حتى آخر كلمة، إلى تلك المنظومة التي حاكى فيها ابن مالك - رحمه الله - فأجاد

فيها، ولشدة إعجابي بذلك البحث رأيت أن أدون هذه السطور لا انتقاداً ولكن تجميلاً ـ لتعم الفائدة التي رجاها كاتبه منه، وهي ملاحظات بسيطة أرجو أن يتسع الصدر لها:

ـ في البيت السابع من منظومة ابن مالك زيدت كلمة «للمحب» وصواب الشطر: «وإن أمرت بوأي للمحب فقل».

ـ في صفحة ٥٦ العمود ١ السطر ٦ من أسفل ضبطت كلمة «الإرغاث» بعين مهملة والصواب كما دونته بالغين. راجع اللسان مادة «رغث».

ـ في صفحة ٥٦ العمود ١ السطر ٥ من أسفل زيدت كلمة بينما أول البيت والصواب حذفها، راجع مادتي «وثى» و«رغث» في اللسان تجد الشاهد.

ـ في صفحة ٥٦ العمود ٢ مادة «وخى» يزاد على معنى التوجه والقصد معنى آخر ورد ذكره في اللسان قال: «قالت ولم تقصد له ولم تخه»

أي لم تتحر الصواب، ومنه أخذ التوخي.

ـ تعدل الهوامش بعد الهامش رقم ١٩، ففيها كلها إلى هامش ٤٤ سقط أو زيادة أو ترحيل.

محمود آدم

مدرس لغة عربية

مدرسة الإيمان ـ ص.ب ٢٩٧٩٢ البحرين

فوائد التمر

قرأت في مجلة «الفيصل» العدد ٢٧٩ مقالاً بعنوان «حكمة الفطور على التمور» للكاتب صلاح حسين شهاب الدين بيّن فيه أهمية التمر بوصفه غذاء للإنسان، وتطرق إلى خصائص التمر وقيمته الغذائية، وحكمة الفطور على التمور، ومن جملة ما ذكره الكاتب أن التمر من أهم العوامل المساعدة للمرأة في أثناء الولادة بدليل قوله تعالى: وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطَباً جنياً» مريم:٢٥. وهذا صحيح. لكن الفكرة جاءت قاصرة. فكان من الضروري التعقيب عليها لإثرائها واطلاع القارئ الكريم على أهم فوائد التمر للحمل والمخاض والولادة وأن هذه الفوائد من المعجزات العلمية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فمن مدلولات الآيات الكريمة ـ التي خاطب الله تعالى بها مريم عندما أرادت أن تلد عيسى عليه السلام ـ أنّ للتمر فوائد عظيمة في هذا المجال، فقد أثبتت الأبحاث الطبية في عصرنا تلك الفوائد إذ تبيّن من خلال الدراسات والأبحاث على التمر أنه يحتوي على مادة مقبِّضة للرَّحم ومقوية لعضلاته في الأشهر الأخيرة من الحمل، وهذه المادة تقلل من كمية النزف الحاصل بعد الولادة.

كما يحتوي التمر على نسبة عالية من السكاكر البسيطة، السّهلة الهضم والامتصاص. ولما كانت عضلة الرحم تقوم بعمل جبار في أثناء الولادة؛ لذا فإن الأطباء ينصحون بتقديم



السكر والماء للحامل، وهذا مُستنتج من نص الآية الكريمة: فكلي واشربي.

أما الرُّطب فإنه يخفض ضغط الدم عند الحامل لفترة قصيرة، ثم يعود إلى طبيعته، وهذا ما يقلل أيضاً من كمية الدم النازف. كما أنّ الرُّطب من المواد الملينة التي تنظف القولون، وتسهل عملية الولادة، وما يؤكد هذه الحقيقة قيام الأطباء بإعطاء حقنة شرجية للحامل قبل الولادة لتنظيف القولون.

ومن الفوائد التي أثبتتها الدراسات أن التمر يحوي مواد تساعد على انقباض الرحم وعودته إلى وضعه الطبيعي، كما تعمل مجموعة الفيتامينات فيه على إدخال الراحة والهدوء على نفس الحامل، ويقومُ الحديد بتنشيط تكوين الهيموجلوبين لتعويض الدم الفاقد في أثناء الولادة.

وقد أكد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ضرورة إطعام التمر للنساء في نفاسهن وذلك بقوله: أطعموا نساءكم في نفاسهنّ التمر، فإنّ من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولدها حليماً فإنّه كان طعام مريم حين ولدت، ولو علم الله طعاماً خيراً من التمر لأطعمها إيَّاه.

عبدالعزيز إسماعيل أحمد

الحسكة ـ ص.ب ٥٦٩ ـ سورية

حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمُدّ

مراجعة: **عبدالعزيز الساوري**
سبتة - المغرب

صدر مؤخرًا كتاب «إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد» للشيخ الفقيه أبي العباس أحمد بن محمد العزَفي اللخمي السبتي المتوفى سنة ٦٣٣هـ.
وقد تولى تحقيقه ودراسته الأستاذ محمد الشريف، وهو من أساتيذ كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبدالمالك السعدي بتطوان، وصدر عن المجمع الثقافي بأبو ظبي، ضمن السلسلة الأندلسية» رقم (٦).

ويتكون الكتاب من ١٧١ صفحة من القطع المتوسط، مذيّلاً بتقديم عام باللغة الفرنسية. وينتمي مصنِّف هذا الكتاب إلى بيت بني العَزَفي، أحد أكبر بيوتات سبتة التي جمعت بين السياسة والعلم. وقد تولى قضاء مدينة سبتة بعد أبيه، كما لزم التدريس بجامعها مدّة عمره، وتلمذ له جم غفير من علماء الغرب الإسلامي. ولقد أبرز مترجموه سعة ثقافته الفقهية، واطلاعه الواسع على التيارات المذهبية، وتبحُّره في علم الحديث.

كتاب مجهول

وإذا كانت مؤلفات أحمد العزفي مشهورة، وتم تداولها على نطاق واسع بمنطقة الغرب الإسلامي، مثل كتاب «الدرّ المنظّم في مولد النبي المعظّم»، وكتاب «دعامة اليقين في زعامة المتقين»، و«منهاج الرسوخ إلى علم الناسخ والمنسوخ» فإن تأليفه «إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد» لم يعرف انتشارًا كبيرًا، ولم يُنسخ على نطاق واسع، كما أنه لم يُرو، ولا تشير إليه كتب الفهارس أو البرامج المغربية الأندلسية، على الرغم من مكانته العلمية الكبيرة، وسمعة مؤلفه الواسعة.

ولا يوجد الآن من تأليف العزفي - حسب علمنا - سوى نسخة وحيدة تحتفظ بها مكتبة ابن غازي لمؤسسها محمد بن عبدالهادي



إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدّينار والدّرهم والصاع والمدّ
تأليف: **أبي العباس أحمد العزفي**
تخريج ودراسة: **محمد الشريف**
أبو ظبي: المجمع الثقافي، السلسلة الأندلسية، ١٧١ص، ١٤٢١هـ.

المنوني المكناسي رحمة الله عليه، وعليها يقوم هذا التحقيق لكتاب «إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد». إنها نسخة مكتوبة بخط أندلسي عتيق على ورق شاطبي، عاريّة من اسم الناسخ

وتاريخ النسخ، لكن المحقق يرجّح أن تكون قريبة من عصر أبي العباس العزفي، بل إن «بالنسخة من المعطيات ما ينطق بأنها مقابلة على أصل المؤلف. ويمكننا الجزم بأنها ترجع إلى نهاية القرن السابع الهجري أو بداية القرن الثامن بدليل وجود طرر وحواش عليها بخط ابن رُشَيْد السبتي المتوفى بفاس سنة ٧٢١هـ» ص٣٢.

دفاع عن المقومات المادية لسبتة

وتحتوي القطعة على ثمانية وثلاثين فصلاً يمكننا توزيعها إلى ثلاثة أقسام كبرى:

- **القسم الأول:** يناقش فيه العزفي قضية المكاييل الشرعية والأوزان، وهنا يأخذ المؤلف بالفهم المالكي للموضوع، ويُكثر من التعريفات الكلاسيكية، ويسعى إلى التوفيق بين آراء الفقهاء، كما يقف مطولاً عند موضوع «الصّاع» وما قيل فيه لأن «عليه تدور أحكام المسلمين في كلّ ما ينوبهم من أمور الكيل في دينهم» ص٢١.

- **القسم الثاني:** ويتناول فيه موضوع النقود الإسلامية حيث يسطر تاريخها، ويقف عند أوزانها وما وَرَدَ فيها من أقوال العلماء، وفي هذا القسم، يخرج العزفي عن نطاق المناقشة النظرية ليلامس أرض الواقع عن طريق التعرّض لمواضيع مرتبطة بنقود الأندلس والمغرب وأوزانها، ولعلّ من أهمّ قضايا هذا القسم وأعمقها هي مناقشة المؤلف لآراء ابن حزم الأندلسي حول مسألة سكّ العملة.

القسم الثالث: وخصّصه المؤلف لإثبات أسماء المكاييل والموازين وتفسير ألفاظها وأجزائها ومقاديرها، فيقدّم لنا قاموساً بأهم المصطلحات المستعملة في هذا الميدان.

ومن خلال الدراسة المستفيضة التي خصّصها المحقق لهذا الكتاب والتي تعرض فيها لترجمة أبي العباس العزفي ولمصادره ولمنهجيته ولأقسام الكتاب ولبعض القضايا الرئيسة التي يتناولها، يخلص المحقق إلى أن كتاب «إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد» هو «دفاع مستميت عن المقومات المادية الأساسية لمدينة سبتة التي يقوم عماد حياتها الاقتصادية على التجارة والتعامل النقدي، وأداة عملية وضعها المؤلف بيد معاصريه للتغلب على السلبيات التي تطرحها أنظمة الوزن والكيل التي كانت حساسة جداً بمدينة سبتة، حيث تتوافد عليها سلع جميع مناطق حوض البحر المتوسط» ص٣٠.

ويعترف المحقق أنه كان سيتعذّر عليه إخراج هذه النسخة الفريدة والوحيدة إخراجاً مقبولاً لو لم يعتمد المصادر التي عوّل عليها العزفي، ونقل منها نصوصاً كاملة بلا أدنى تغيير في بعض الأحيان. ولم تكن هذه العملية يسيرة لتعدُّد مصادر المؤلف وتنوعها. أما عن الفصول التي تتعلق بتاريخ النقود الإسلامية فقد عمل على مراجعة مادّتها على ما في الأصول المنشورة، أو في بعض التقاييد المخطوطة في هذا الباب. إن غياب نسخة أخرى من هذا التأليف فوّت على الأستاذ المحقق إمكانية المقابلة وضبط النص وتحقيقه وتدقيق بعض كلماته، وإزالة ما يمكن أن يكون قد غمض أو صحّف، لذا فإن النص الماثل بين أيدينا الآن ما يزال - باعتراف المحقق - بحاجة إلى معاودة ضبطه وتدقيق بعض كلماته وسد ثغراته، ولا سيما الخروم والبتور التي تتخلل بعض مقاطعه.

لكن من المؤكد أن تعليق نشر النصوص التراثية على إحراز درجة من «الكمال» في تحقيقها يُفوّت على الباحثين والمهتمين الكثير من الفائدة خاصة تلك التي لها ارتباط بمجالات علمية دقيقة أو تقنية، مثل النقود والأوزان والمكاييل، موضوع هذا الكتاب.

وبهذا الكتاب يكون قسم النشر بالمجمع الثقافي بأبو ظبي قد أصدر ستة كتب أندلسية في سلسلته الجديدة التي أطلق عليها «السلسلة الأندلسية»*، وتعنى هذه السلسلة - على الأخص - بتقديم جانب من التراث الأندلسي الذي لم يوف النصيب الكافي من التحقيق العلمي الرصين، أو الذي ظل قابعاً في الرفوف ينتظر من ينفض عنه غبار توالي السنين والحقب.

الهوامش

* يشرف على هذه السلسلة الأستاذ عبدالعزيز الساوري مراجع هذا الكتاب. [الفيصل]

القدس: مدينة واحدة.. عقائد ثلاث

مراجعة: محمد منصور
دمشق - سورية

(مدينة واحدة.. عقائد ثلاث) عنوان معبر لكتاب موسوعي مهم وضعته الباحثة البريطانية كارين آرمسترونج عن مدينة القدس، تروي فيه التاريخ المأساوي الموغل في القدم لهذه المدينة التي تضافرت عناصر الجغرافيا والدين والتاريخ لتجعل منها واحدة من مناطق الصراع الأكثر أهمية، والأكثر روحانية بالنسبة إلى كثيرين من معتنقي الديانات السماوية الثلاث.. وليكون الثمن في العصر الحالي على حساب الهوية العربية للمدينة، التي تتعرض لمحاولات التهويد الشرسة منذ سقوطها بيد الاحتلال الإسرائيلي عشية نكسة حزيران عام ١٩٦٧م!!

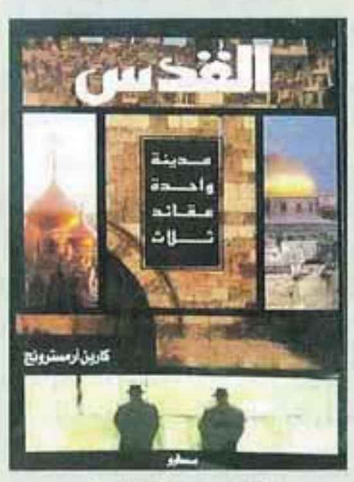
في أكثر من ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير، صدرت الترجمة العربية الأولى لهذا الكتاب العام الماضي، ضمن سلسلة «كتاب سطور» التي تصدر عن مجلة «سطور» الثقافية الشهرية، بتوقيع د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، وهو يأتي في وقته المناسب، حيث تبدو معركة القدس، في أكثر مراحلها شراسة وخطورة!

الجغرافيا المقدسة!

وفي مقدمة الكتاب، تستخدم كارين آرمسترونج مصطلح الجغرافيا المقدسة لوصف الوضع الاستثنائي لمدينة القدس عبر العصور، وتعرف هذا المصطلح بالقول:

«هي خريطة لا علاقة لها بالخريطة العلمية للعالم، ولكنها ترسم صورة الحياة الباطنة، حتى ليصبح ما على الأرض من مدن وغياض وجبال رموزاً للحياة الروحية، ولا يخلو من ذلك مكان ما على ظهر البسيطة، ومن ثم فهو فيما يبدو أنه يستجيب لحاجة إنسانية عميقة، مهما تكن صورة إيماننا بالله، أو إيماننا بما وراء الطبيعة».

وبناء عليه ترى المؤلفة أن القدس تشغل مكان القلب في الجغرافيا المقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين، وإن تباينت الأسباب، مما يجعل من العسير عليهم أن ينظروا إلى المدينة نظرة موضوعية.



القدس: مدينة واحدة
عقائد ثلاث
تأليف: كارين آرمسترونج
ترجمة: د. فاطمة نصر
د. محمد عناني
القاهرة، الكتاب الرابع
من سلسلة سطور، ١٩٩٨م

وتلفت آرمسترونج النظر إلى وجود مفاهيم ذات خصوصية ترد في سياق النظرة إلى القدس كتاريخ وجغرافيا معاً:

الأول - «مفهوم القداسة»: فتشير إلى أنه في العالم الغربي أصبحت فكرة القداسة تبدو غير متسقة

وتستعصي على التصديق، لكن الإحساس بالقداسة، شأنه شأن أي تجربة جمالية، يتطلب الغرس والتنمية، وهو مطلب لا يتمتع بالأولوية في مجتمعنا العلماني الحديث، ولئن انتهى الأمر بحاسة القداسة إلى الذبول في الغرب، فإنه ما يزال في المجتمعات الأخرى ذا أهمية أساسية، بل إن الناس كثيراً ما يشعرون أنه لولا حاسة القداسة لما أصبحت الحياة جديرة بأن نحياها، وانطلاقاً من هذه الحاسة تنبع حالة التعلق والإخلاص لمكان مقدس كما هو الحال بالنسبة إلى القدس.

الثاني - «مفهوم الأسطورة»: التي تفضل الكاتبة تعريفها بأنها «صورة قديمة لعلم النفس»، ولهذا لا نستطيع أن نزعم اليوم أننا تجاوزنا حاجتنا إلى الأساطير. وعليه ترى الكاتبة «أن أساطير الجغرافيا المقدسة تعبر عن حقائق الحياة الباطنة، إذ تمس المصادر المبهمة لآلام الإنسان ورغباته، ومن ثم فهي قادرة على إطلاق عواطف جائحة من عقالها.. وهكذا يجب ألا ننبذ القصص التي تروى عن القدس، بوصفها أساطير وحسب، بل أن نهتم بها لهذا السبب عينه، وهي أنها أساطير».

الثالث - «مفهوم الرمزية»: إذ إن المكان من رموز القداسة الأولى، وأكثرها انتشاراً، إذ كان الناس يرون القداسة في الجبال والمدن والمعابد، فكانوا يشعرون عندما يسيرون في تلك الأماكن أنهم دخلوا في بُعد مختلف من أبعاد العالم المادي الذي يعيشون عادة فيه، فهو منفصل، وإن كان يتفق في طابعه معه. وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون وما يزالون - كما تذهب الكاتبة - يرون في القدس مثل هذا الرمز للقداسة.



المسجد الأقصى

أرض كنعان.. وفليسطيا!

تشير المؤلفة في تتبعها لتاريخ نشوء القدس وتكوينها الأولي كمدينة.. إلى أن من المفارقات، أن المدينة التي كتب لها أن تحظى بالتبجيل لكونها مركز العالم من جانب ملايين اليهود والمسيحيين والمسلمين، لم تكن تقع على أي من الطرق الرئيسة في كنعان القديمة. كانت تقع خارج قلب البلد بسبب وجودها في المرتفعات التي من الصعب استيطانها. وكانت تنمية تلك المنطقة في أوائل العصر البرونزي مقصورة بصفة رئيسة على السهل الساحلي، وعلى وادي برزعيل الخصب، والنقب، حيث كان المصريون قد أنشؤوا مستودعات تجارية. وكانت كنعان بلدا ذا ثروة دفينة، وكان سكانها يصدرون النبيذ والزيت وعسل النحل والقار والحبوب، كما كان لها أهميتها الإستراتيجية؛ لأنها كانت المعبر الذي يربط آسيا بإفريقية، والجسر الذي يربط ما بين حضارات مصر وسورية وفينيقيا وبلاد ما بين النهرين.

وتوضح الكاتبة في سياق بحث تاريخي كيف تحولت القدس فيما بعد إلى مدينة مأهولة مع أنها لم تكن تقع على أي من الطرق الرئيسة في أرض كنعان فتقول:

«كان الناس في الشق الأدنى القديم يتحرقون شوقاً إلى الأمن، ويبدو أن القدس استطاعت أن توفر

لأهلها ما كانوا يتوقون إليه من أمان. فلقد نجحت المدينة في التغلب على قلاقل القرن الثالث عشر (ق. م) التي شهدت خلو كثير من المستوطنات المقامة فوق المرتفعات في كنعان من أهلها. ويشير الكتاب المقدس إلى أن قلعة صهيون اليبوسية، كانت تعتبر حصينة لا يمكن اقتحامها. ولقد شهد القرن الثاني عشر (ق. م) تهديدات جديدة، وظهور أعداء جدد. إذ بدأت مصر من جديد تفقد سيطرتها على كنعان، وتعرضت إمبراطورية الحثيين للدمار، وبلاد ما بين النهرين للخراب بسبب الطاعون والمجاعة. وبدأت هجرة واسعة النطاق تمثل سعي الناس إلى ملجأ أمان جديد. وصاحب تدهور الدول العظمى، ظهور دول جديدة تحتل مكانها. وكانت إحدى هذه الدول دولة «فليسطيا» الواقعة على الساحل الجنوبي لكنعان. وقد يكون أهل فليسطيا الذين أصبح اسمهم فلسطينيين من «أهل البحر» الذين قاموا بغزو مصر، ثم هزمهم المصريون، وأصبحوا تابعين لفرعون. وربما يكون رمسيس الثالث هو الذي قام بتوطين الفلسطينيين في أرض كنعان حتى يحكموا البلد باسمه أو نيابة عنه. وقد تكيفوا في أرضهم الجديدة مع الدين المحلي، ونظموا أنفسهم في خمس مدن هي: عسقلان - أشدود - إكرون - غات - غزة. وعندما ضعف الحكم المصري أصبحت فليسطيا شبه مستقلة، وربما كانوا الحكام الفعليين لكنعان».

مسجد قبة الصخرة

بنو إسرائيل.. وأرض الأعداء!

وتفرد الكاتبة حيزاً واسعاً من الكتاب للحديث عن علاقة بني إسرائيل بالمدينة، ومملكة يهوذا وسوى ذلك، وتستشهد بالكتاب المقدس لترصد سيرتهم على النحو التالي: «يقول الكتاب المقدس: إنهم جاؤوا أصلا من بلاد ما بين النهرين، واستقروا فترة ما في أرض كنعان، ثم هاجرت قبائل بني إسرائيل الاثنتا عشرة في نحو عام ١٧٥٠ قبل الميلاد إلى مصر في أثناء مجاعة من المجاعات، وانتعشت أحوالهم في البداية ثم ما لبثت أن تدهورت فانتهى بهم الأمر إلى الاسترقاق. بيد أنهم تمكنوا أخيرا، في عام ١٢٥٠ تقريبا من الفرار من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، ومن ثم عاشوا حياة الترحال في شبه جزيرة سيناء. ومع ذلك فإنهم لم يعدّوا ذلك هو الحل النهائي، لأنهم كانوا مقتنعين بأن ربهم يهوه قد وعدهم بأرض كنعان الخصبة. وتوفي موسى قبل أن يتمكن بنو إسرائيل من الوصول إلى أرض الميعاد، ولو أن القبائل تمكنت بقيادة خليفته يشوع من اقتحام أرض كنعان عنوة، واحتلال البلاد بحد السيف باسم ربهم، وعاد ما يقال: إن تلك الحادثة قد وقعت في عام ١٢٠٠ قبل الميلاد. ويروي الكتاب المقدس المذابح الرهيبة التي وقعت، إذ قيل: إن يشوع أخضع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها، ولم يبق شارداً بل حرم كل نسمة، وخصص لكل قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة قطعة من أرض كنعان، ولكن إحدى المدن القائمة بين قبيلتي يهوذا وبنيامين صمدت، إذ يقر كاتب الكتاب المقدس

بأن اليبوسيين الساكنين في أورشليم، لم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم. وكتب لأورشليم أن تشغل مكانًا رئيسًا في دين إسرائيل، ولكن الكتاب المقدّس، يصفها في أول إشارة صريحة دون لبس أو غموض بأنها جزء من أرض الأعداء».

وتتوقف المؤلفة في ملاحظة جوهرية مهمة عند كون القدس في الكتاب المقدس «أرض الأعداء» بالنسبة إلى بني إسرائيل، وتتساءل:

«ولكن إذا كان بنو إسرائيل كنعانيين حقًا، فلماذا يصر الكتاب المقدّس إصرارًا حاسمًا على أنهم كانوا من الأجانب؟ لقد كان الإيمان بأصولهم الأجنبية من العناصر الأساسية بصورة مطلقة في الهوية الإسرائيلية، بل إن قصة التوراة، أو الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم تهيمن عليها قصة بحث بني إسرائيل عن وطن».

وعبر هذه المحاكمة الموضوعية تتابع المؤلفة استقراءها لعلاقة بني إسرائيل بأرض كنعان فتلاحظ مجددًا: «كان البحث عن وطن عنصرًا جوهريًا من عناصر الروايات الخاصة بآباء إسرائيل، وكان إبراهيم وإسحق ويعقوب على وعي كامل بأنهم غرباء عن أرض كنعان - وهكذا نجد أن الكاتب «اليائي» يذكر القارئ، بعد حديثه عن وصول إبراهيم مباشرة، بأن (الكنعانيين كانوا حينئذ في الأرض). وهذه مسألة مهمة، فعلى امتداد تاريخ القدس والأرض المقدسة، كان اليهود والمسيحيون والمسلمون دائمًا ما يجدون أن الأرض يملكها آخرون، وكان عليهم أن يتصدوا لتلك الحقيقة، وهي أن المدينة والأرض كانتا ذات قدامة لأناس سبقوهم، وأن سلامة حيازتهم لها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على أسلوب مواجهتهم لأسلافهم».

المدينة فقام بترميم كنيسة النصر على جبل جرزيم، وأعاد بناء كنيسة الميلاد التي أقامتها هيلينا في بيت لحم بعد أن أصيبت بأضرار بالغة في أثناء ثورة السامريين، وكانت أبدع الأبنية التي أنشأها في القدس، كنيسة مريم البتول الجديدة التي تقع على الجانب الجنوبي للتل الغربي.. وكانت تخلد ذكرى مذهب ديني فقط، وليس حدثًا من أحداث حياة المسيح أو بدايات الكنيسة.. ولم تفلح في يوم


العرب والإسرائيليون: مواجهة دائمة

وتنتقل الكاتبة بدءًا من الفصل الثامن للكتاب.. إلى الحديث عن الإرث المسيحي للمدينة، وعن الجغرافيا المسيحية المقدسة لها، بدءًا من الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي أعلن ولاءه للكنيسة، إلى الإمبراطور جوستنيان (٥٦٥ - ٥٢٧ق.م) الذي كان يرى أن القضاء على اليهودية أمر محتوم، والذي رسخ التواجد المعماري المسيحي في

من الأيام في اجتذاب قلوب المسيحيين في المدينة، على الرغم من أنه بالإمكان رؤية موقعها بوضوح في خريطة فسيفسائية للمدينة في عهد جوستنيان اكتشفت في كنيسة ببلدة مدبة في الأردن حاليًا!

وتتجلى في الخريطة الجغرافيا المقدسة للعالم المسيحي، والتي نشأت وتطورت منذ عهد قسطنطين، فهي تصور فلسطين، على أنها الأرض

المقدسة. والخريطة لا تشير إلى الموقع المذكور في الكتاب المقدس فحسب، بل تبيّن ما شيّده المسيحيون بعد ذلك من مبان وآثار وأديرة فحولوا البلاد إلى مكان مقدس. وفي قلب الخريطة تقع أورشليم وقد كتب تحتها «مدينة أورشليم المقدسة» وعلى نحو ما أصبحت قلب العالم المسيحي كله!

وهكذا أصبحت أورشليم مدينة مقدسة مسيحية، وإن لم تكن - على حد تعبير آرمسترونج - في جميع الأوقات مدينة خير وإحسان. فما أكثر ما كان تجلي طابع المدينة المقدس، يصاحبه تناحر المسيحيين واقتتالهم، وتصارعهم على السلطة، وقمعهم للعقائد الدينية المنافسة.. إلا أن الكاتبة تؤكد في نهاية استعراضها لتاريخ المدينة المسيحي: «كانت خبرة الحياة في أورشليم قد دفعت المسيحيين إلى وضع جغرافيا مقدسة كاملة، تقوم على الأساطير التي كانوا يزدرونها في يوم من الأيام، إذ أصبحوا يعدّون أورشليم هي مركز العالم ونبع الحياة الخصب والخلاص والتنوير، ولقد غدت مدينتهم أقرب إلى قلوبهم، وأعز عليهم عما كانت عليه في أي وقت مضى، بعد أن جادت الأعداد الكبيرة منهم بالروح في سبيلها».

الفتح الإسلامي..

وبيت المقدس!

وبعد أن تتوقف عند المكانة الروحية لبيت المقدس، وحادثة الإسراء والمعراج، تنتقل المؤلفة بعد ذلك للحديث عن ظروف وملابسات الفتح الإسلامي للقدس، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٨م) وتصف ذلك الفتح فتقول: «لقد كان فتحاً لم تشهد المدينة مثله في تاريخها الطويل والمأساوي في أغلب الأحوال. فبمجرد أن استسلم المسيحيون، لم يحدث قتل أو تدمير للممتلكات أو إحراق للرموز الدينية المنافسة، وأيضًا لم يكن هناك طرد للسكان، أو نزع للملكية، أو محاولة لإجبار السكان على اعتناق الإسلام. ولو أخذنا احترام سكان المدينة السابقين معياراً لسلامة العقيدة التوحيدية وقوتها، لأمكننا القول هنا: إن الإسلام قد بدأ ولايته الطويلة هناك حسنة جدًا».

لم تشهد المدينة خلال تاريخها الطويل مثيلا للفتح الإسلامي الذي أرسى نظامًا تمكن اليهود والمسيحيون والمسلمون بواسطته - أول مرة - من العيش معًا في بيت المقدس!

وترى المؤلفة في موضوع آخر أن الإسلام أرسى نظامًا تمكن اليهود والمسيحيون والمسلمون بواسطته - أول مرة - من العيش في بيت المقدس.

وتتحدث المؤلفة بعد ذلك عن اهتمام الأمويين بالقدس، وبذخهم عليها، وإنشاء الخليفة عبد الملك بن مروان لقبة الصخرة التي أمر بتشييدها عام ٦٨٨م، وإصلاحه لأبواب المدينة وسورها، ثم إهمال العباسيين لها قياساً لبذخ الأمويين.. ثم العصور الإسلامية المتتالية وصولاً إلى الحملات الصليبية.

الحملة الصليبية..

وجهاد صلاح الدين!

ففي عام ١٠٩٩م وجه البابا أربان الثاني دعوته لما أسماه «حرب تحرير مقدسة»، واستغرقت الرحلة ثلاث سنوات لتصل الجيوش الصليبية التي انطلقت في خريف ١٠٩٦م إلى القدس.

وفي الخامس عشر من يوليو/ تموز عام ١٠٩٩م تمكن الصليبيون من اختراق المدينة والمدافعين عنها. وتستشهد كارين آرمسترونج برواية مؤلف «أعمال الفرنجة» الذي يذكر أنه «لمدة ثلاثة أيام قام الصليبيون بانتظام، بذبح ما يقرب من ثلاثين ألفاً من سكان المدينة، فقد قتلوا كل المسلمين والأتراك، لقد قتلوا كل شخص ذكراً كان أم أنثى»، وتدفقت الدماء في الشوارع حقيقة لا مجازاً، وكما يقول شاهد العيان البروفنسالي ريمون الأجويلي: «كان بالإمكان رؤية أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل.. فقد ركب الرجال على الأقل في المعبد ورواق سليمان والدماء تصل إلى ركبهم وألجمة خيولهم».

وتعلق المؤلفة على هذه الشهادات، وتصف حالة المدينة بعد ذلك فتقول: «وبين عشية وضحاها حول الصليبيون مدينة القدس الزاهرة الآهلة بالسكان إلى مستودع نتن

لجثث القتلى. وحينما أقام الصليبيون سوقًا بعد المذبحة بثلاثة أيام كانت هناك جثث ما زالت في طريقها للتعفن. ووسط مظاهر الاحتفالات والحفاوة العظيمة، قاموا ببيع ما نهبوه وهم في حالة من المرح وعدم الاكتراث إزاء المجزرة، وأدلتها المادية تحت أرجلهم، وإذا نحن اعتبرنا حقوق السلف المقدسة محكًا لمصداقية مثل أي فاتح ينتمي إلى العقيدة التوحيدية، فلا بد أن يأتي الصليبيون أسفل قائمة البشر».

إلا أن الصراع الداخلي سرعان ما أخذ يمزق ممالك الصليبيين التي أقاموها في فلسطين بين الفرنجة الذين ولدوا فيها - ورغبوا في إنشاء علاقات طبيعية مع جيرانهم بعد توطيد حكمهم بسنوات - وبين القادمين الجدد من أوربا الذين رأوا أنه من المحال التساهل مع توجه ديني آخر. وحدث ذلك التناحر في الوقت الذي كان جيرانهم المسلمون، قد بدؤوا ينبذون فرقتهم المدمرة، ويتحدون تحت غمرة قائد قوي نذر نفسه للجهاد هو صلاح الدين الأيوبي الذي حقق نصرًا إسلاميًا ساحقًا عام ١١٨٧م. في موقعة حطين قرب طبرية.. وعلى الرغم من أنه كان ينوي في البدء الثأر لمذبحة عام ١٠٩٩م إلا إنه لم يُقتل مسيحي واحد، وفرض دفع جزية ضئيلة جدًا، أعفى الفقراء منها لاحقًا.. كما قال: إن المسيحيين في جميع أنحاء العالم سيتذكرون ما أفاض عليهم المسلمون من رحمة..

ولعل الاستنتاج المهم الذي تخرج به كارين آرمسترونج من هذه الوقائع التي سيكون لها أثر في علاقة المسلمين بالمدينة هو أن: «أثرت معاناة المسلمين على يد الصليبيين في نظرتهم للمدينة المقدسة، وأصبح هناك توجهات دفاعية في تعلق المسلمين بالقدس، ولذا.. فقد قرر للمدينة أن تصبح إسلامية بأسلوب أكثر عدوانية من أي وقت سابق».



الوجود المسيحي في القدس والجغرافيا المقدسة

السيطرة الغربية والحملة الآثارية!

وبعد أن تتحدث المؤلفة عن المدينة في فترة الحكم العثماني، وكيف أن السلطان سليم(١) قد أمر بإعادة أسوار المدينة، بمهارة عظيمة، ونفقات باهظة، واستحكامات معقدة، إذ انتهى بناء السور عام ١٥٤١م، وأصبحت القدس محصنة أول مرة منذ ما يربو على ثلاثمئة عام.. تشير إلى أن القدس العربية بدأت بالتطور منذ منتصف القرن التاسع عشر، وتم تأسيس أول بلدية للقدس عام ١٨٦٣م وكانت القدس أول مدينة عثمانية بعد استنبول تنشأ فيها هيئة كتلك. وتكوّن المجلس البلدي في البداية من تسعة أعضاء، ستة من المسلمين واثنان من المسيحيين، ويهودي واحد ثم ارتفعت نسبة تمثيل اليهود عام ١٩٠٨م إلى عضوين. وهذا في الحقيقة يدل على تسامح المسلمين مع الديانات الأخرى، وعدم اضطهاد اليهود في المدينة المقدسة، كما ترصد كارين آرمسترونج حركات إحياء المدينة المتعاقبة، وتتوقف عند الحملة الآثارية الأوربية التي بدأت عام ١٨٦٥م تحت ستار إجراء الأبحاث التاريخية والأثرية على الأرض المقدسة، والتي أفصحت في حقيقتها عن الرغبة في التملك، ووصفت بأنها «حملة صليبية سلمية»، وخصوصًا بعد أن تم - نتيجة لرسائل المهندس ويلسون الذي تولى أعمال التنقيب إلى بريطانيا - إنشاء صندوق استكشاف فلسطين عام ١٨٦٥م لإجراء الأبحاث الأثرية والتاريخية على الأرض المقدسة، وترى الكاتبة هنا: «كان العقل الغربي يتجه لإحلال الدراسة العلمية والسيطرة محل الجغرافيا المقدسة».

فترة تحول أليمة!!

وتكثف تاريخ القدس المأساوي بدخول الانتداب البريطاني إلى فلسطين، وتلخص الكاتبة فترة التحول هذه على النحو الآتي: «كانت القدس قد هدمت، وأعيد بناؤها خلال تاريخها الطويل والمأساوي في غالبيته. وبوصول

البريطانيين أصبحت المدينة على شفا فترة تحول أخرى أليمة. وقد ظلت القدس مدينة مهمة لما يقرب من ألف وثلاثمائة عام، باستثناء الفترة الوجيزة التي احتلها فيها الصليبيون.

وبعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية، كان عرب المنطقة على وشك الحصول على استقلالهم. وفي البداية أنشأ البريطانيون والفرنسيون نظم الانتداب والحماية في بلاد الشرق الأدنى، غير أن تلك الدول والممالك العربية قد أخذت في الظهور الواحدة تلو الأخرى،

النهاية، وفي عام ١٩٦٧م انتصرت المناورات العسكرية والدبلوماسية اليهودية، وأصبحت القدس غنيمة لدولة إسرائيل اليهودية. وفي يومنا هذا صارت شخصية المدينة العربية مجرد شبح أو ظل لما كانت عليه حينما دخلها الجنرال اللنبي وقواته. وكان الانتصار الصهيوني انقلابًا غير عادي. ففي عام ١٩١٧م كان العرب يكونون ٩٠٪ من تعداد السكان الكلي لفلسطين، وأقل من ٥٠٪ من تعداد سكان القدس(٢).

متجردة ومنصفة إلى حد كبير.. إنه وثيقة إنسانية وجغرافية وتاريخية وبشرية فريدة من نوعها عن مدينة مقدسة، قدر لها أن تعيش صراعات من شتى الأنواع، وهي مهددة اليوم في هويتها لمصلحة حالة إلغاء دينية واستيطانية تنكر تعايش الأديان السماوية الثلاثة على أرضها. ولعل السطور التي تختم المؤلفة بها كتابها تلخص برؤية تاريخية عميقة وشاملة الدرس الذي تلقنه القدس للغزاة على مر تاريخها إذ تقول: «إن الهدف من المشاريع المعمارية التي قام بها الغزاة كان خلق واقع جديد، إلا أن قوالب الطوب والإسمنت لم تكن أبدًا كافية. فقد استعاد المسلمون مدينتهم، وظل الصليبيون أسرى حلم الكراهية وعدم التسامح. أما في زماننا هذا، فقد عاد الصهاينة إلى «صهيون» خلافًا لجميع الاحتمالات، وخلقوا واقعهم على هيئة مستوطنات حول القدس، إلا أن تاريخ القدس الطويل المأساوي، يبرهن على أنه لا يوجد ما هو دائم أو مضمون، فإن المجتمعات التي دامت أطول وقت في المدينة المقدسة، كانت هي عامة المجتمعات المستعدة لنوع من التسامح والتعايش فيها. إن ذلك، وليس الصراع العقيم من أجل السيادة، هو الوسيلة للاحتفاء بقدسية القدس اليوم».

إذا كان بنو إسرائيل كنعانيين حقًا، فلماذا يصر الكتاب المقدّس إصرارًا حاسمًا على أنهم كانوا من الأجانب؟

وكانت الأردن ولبنان وسورية ومصر والعراق ضمن تلك الدول. وكان من الممكن لفلسطين أيضًا أن تصبح دولة مستقلة عاصمتها القدس التي كانت قد أصبحت مدينة مهمة، وذلك لتوافد العوامل نفسها التي أدت إلى ظهور الدول والممالك العربية الأخرى. بيد أن ذلك لم يحدث، ففي أثناء فترة الانتداب البريطاني أمكن للصهاينة تأكيد وجودهم وتكثيف أعدادهم. وظلت القدس غنيمة دينية وإستراتيجية يتنازع ملكيتها اليهود والعرب والمجتمع الدولي.. بيد أنه في

وحينما يسترجع اليهود والعرب ما حدث تتملكهم الدهشة. فالصهاينة ينظرون إلى ذلك النجاح الذي فاق كل تصوراتهم أنه أمر يصل إلى حد الإعجاز في حين يتحدث العرب عن هزيمتهم أنها "النكبة"!!.»

التسامح والتعايش لا الغزو والاستيطان!

كتاب كارين آرمسترونج «القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث» يبدو في النهاية مدهشًا ومؤلمًا، قابضًا على التاريخ والجغرافيا عبر رؤية موضوعية

المراجع والهوامش

١. هو السلطان سليمان الأول (القانوني) ١٥٢٠ - ١٥٦٦م.

٢. ينوه المترجمان بضرورة التحقق من النسب التي تذكرها المؤلفة هنا، وذلك لاحتمال اعتمادها على مصادر تنقصها الموضوعية. وأيضا بالإمكان إرجاع سبب تراجع نسبة السكان العرب في القدس، إلى نشاط الهجرة الصهيونية، والذي كان قد بدأ في منصف القرن التاسع عشر.



حمد الجاسر:
تكريم في الرياض، وكتاب في صنعاء

الكويت عاصمة للثقافة العربية
عام ٢٠٠١م

حماية تراث دول البحر المتوسط

تلفيق إسرائيلي
لطمس التاريخ الفلسطيني

مدينة للقبور في العراق

جوائز للدوري وآسيا وغوتيريز
ومعلوف وشول

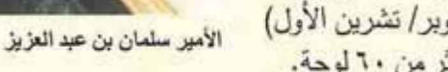


خاتمة المطاف:

المكتبات التجارية
في المملكة
العربية السعودية

ندوة الرحلات لشبه الجزيرة

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز بمركز الملك عبدالعزيز التاريخي «ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية» التي انعقدت في الفترة من ٢٤ - ٢٧ رجب الماضي (٢١ - ٢٤ أكتوبر/ تشرين الأول) وضم أكثر من ٦٠ لوحة.



الأمير سلمان بن عبد العزيز

وفي كلمته بهذه المناسبة دعا سمو الأمير سلمان المراكز العلمية في جميع أنحاء المملكة سواء من الجامعات أو مراكز دراسات أو نوادي علمية أو أدبية أو مؤسسات تعنى بالبحث العلمي إلى «تكثيف الندوات العلمية في كل المجالات، وفي مجال التاريخ بالذات لأن بلادنا كنز للتاريخ، وكتب عنها الكثير، لكننا يجب أن نمحص هذا الكثير».

كما أكد سموه ضرورة الاهتمام بالندوات العلمية، فقال: «إنني ألاحظ بكل أسف أن كثيراً من الندوات العلمية الحضور فيها لا يكون على مستوى ما نرجوه جميعاً من هذه الندوات. وما ألاحظ وأسمع وأقرأ في صحفنا أو في بعض مجتمعاتنا أنّه يجب علينا الاهتمام بالعلوم والندوات والمناقشات العلمية، لكنني بكل أسف ألاحظ عدم الحضور بكثافة من المهتمين بهذه الأمور».

كما افتتح سموه معرض «الجزيرة العربية في الخرائط الأوربية القديمة»، وأكد كل من الدكتور فهد بن عبدالله السماري والدكتور عبدالهادي التازي في كلمتيهما أهمية موضوع الندوة، بوصف الرحلات مصدراً من أهم المصادر التاريخية الأصيلة. وقدم الدكتور خالد العنقري محاضرة بعنوان «دور الرحالة الأوربيين في رسم خريطة الجزيرة العربية ما بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر الميلادي».

واشتملت الندوة على ٢٩ بحثاً وزعت على سبع جلسات خلال يومين.

تكريم حمد الجاسر



الشيخ حمد الجاسر

رحب صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود أمير منطقة الرياض بفكرة تكريم الشيخ حمد الجاسر، والعمل على استمرار الاستفادة من عطاءاته الثرة، مشيراً إلى أن هذا التكريم يعكس ما درجت عليه البلاد من تقدير لكل من يخدمها ويبذل الجهد في سبيلها، وتناول سموه علاقته مع الجاسر قائلاً: الجاسر يستحق كل تقدير وتكريم، فقد خدم هذا الوطن على مدى عمره، خدم تاريخه، وأدبه وصحافته، مضيفاً أن الجاسر كما خدم أرجاء الوطن خدم مدينة الرياض على وجه الخصوص. فقد كان رائداً في إنشاء أول صحيفة وأول مطبعة فيها، وتأليف أول كتاب عنها وتناول تاريخها، وأضاف سموه تربطني بحمد الجاسر - يرحمه الله - علاقة خاصة ومتينة، فقد كنت أستعين به، وأستفيد منه في كثير من البحوث والكتب التاريخية التي أرجع إليه فيها، وآخذ رأيه حولها، وكان يعطي الرأي الدقيق، والرؤية العلمية الصحيحة.

وكانت قد تشكلت لجنة لتكريم الشيخ حمد الجاسر وأقرت تعيين: عبدالله النعيم مستشاراً للجنة التأسيسية للتكريم، والدكتور إبراهيم العواجي، رئيساً لها، وحمد القاضي أميناً لها. كما تم تشكيل لجنة تنفيذية للتكريم برئاسة الدكتور العواجي والأستاذ حمد القاضي أميناً عاماً.

واقترحت اللجنة التنفيذية التي اجتمعت في مقر الغرفة التجارية الصناعية بالرياض، إنشاء مؤسسة ثقافية باسم الشيخ حمد الجاسر تضم مركزاً ثقافياً، يكون فيه مكتبة علامة الجزيرة، وتصدر من خلالها «مجلة العرب»، وإنشاء جائزة باسمه للدراسات التاريخية.

الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية

بدعم ورعاية من صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز، صدر عن دار الدائرة للنشر والتوثيق معجم «الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية»، الذي شارك في إعداده نخبة مختارة من المؤلفين والمراجعين

والمحررين والفنيين، واستغرق إنجازه عشر سنوات.

وقد هدف المعجم، الذي جاء في اثني عشر مجلداً، إلى توثيق الثقافة التقليدية والتراث المادي لكونه يعكس البناء الاجتماعي والتقاليد والأعراف والقيم الثقافية ووسائل التكيف مع الظروف الطبيعية والإنسانية في المملكة العربية السعودية.

غلاف المعجم

وشكّل المجلد الأول، الذي جاء تحت عنوان «مجلد الآثار»، الخلفية الأثرية والأساس التاريخي للموضوعات التي سيتناولها باقي مجلدات الموسوعة، والتي شملت عدة حقول، هي: المواقع الأثرية، والحرف والصناعات، والعمارة، والفلاحة، والإبل، والمعارف الجغرافية، والحياة الفطرية «النبات»، والحياة الفطرية «الحيوان»، والقنص والصيد، والطب والعطارة، والألعاب.

معارض إيرانية وتشكيلية في الرياض



الأمير سلطان بن فهد

تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب، أقيم مؤخراً في الرياض معرض الفن التشكيلي الإيراني المعاصر في صالة الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز في معهد العاصمة النموذجي بالرياض، ويجيء هذا الاحتفال في إطار احتفالات الرياض باختيارها عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م.

وشارك في المعرض ١٧ فناناً وفنانة من التشكيليين الإيرانيين يتقدمهم الفنان التشكيلي مرتضى مميز، وقد عرضوا أعمالاً لمختلف التجارب والمدارس الفنية، وضم المعرض ٨٢ لوحة. وهذا يعدّ أول تعاون فني وثقافي بين البلدين، وقد استمر حتى السابع والعشرين من رجب الماضي.

من جانب آخر، شهدت مدينة الرياض مؤخراً تحت رعاية الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز افتتاح معرض «عشر شخصيات متخصصة في التصوير الفوتوغرافي والجرافيك التشكيلي». واشتمل المعرض على ٥٠ عملاً فنياً لأفضل عشر شخصيات متخصصة في مجالي التصوير والجرافيك وصفت البيئة التشكيلية المعاصرة.

صنعاء تصدر آخر كتاب للجاسر



محمد علي الأكوع

«اليمن بين مؤرخين معاصرين» هو آخر كتب الشيخ حمد الجاسر الذي صدر قبل أسابيع قليلة من وفاته (٢٠٠٠/٩/١٤م) عن وزارة الإعلام اليمنية في صنعاء.

ويتناول الكتاب سيرة اثنين من مؤرخي اليمن المعاصرين هما محمد وإسماعيل علي الأكوع، وكان الجاسر قد كتبه إثر رحيل المؤرخ محمد علي الأكوع في ١٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٩م، وقام بنشره في حينه في حلقات في إحدى المطبوعات الثقافية السعودية، ثم جمعه في كتاب جاء في ٨٨ صفحة من القطع المتوسط بعد أن نقحه وأضاف إليه بعض الفقرات المهمة.

تعرض الجاسر في بداية الكتاب لتاريخ اليمن ومكانته في مجال العلم والدين والتيارات السياسية التي تنازعته، وجذور الفتن العصبية التي حدثت بين القحطانيين والعدنانيين، وجاء ذلك في ٣٥ صفحة، ثم خصص باقي صفحات الكتاب للحديث عن الأخوين محمد وإسماعيل ابني علي الأكوع وآثارهما ومساهمتهما في تاريخ اليمن، فقد أخرج القاضي محمد علي الأكوع نحو ثمانية عشر كتاباً محققاً وألف عشرة كتب في تاريخ اليمن القديم، ووضع أخوه إسماعيل ستة وثلاثين عملاً فكرياً بين كتاب وبحث في التاريخ والتراجم والأنساب والعادات والتقاليد وغيرها.

تل رمي أفران الفخار

تمكن فريق من الباحثين الأثريين السعوديين يتكون من ٩ أشخاص برئاسة عبدالحميد محمد الحشاش من اكتشاف موقع أثري جديد في مدينة «ثاج» التي تقع على بعد ١٥٠ كيلو متراً غرب مدينة الدمام، وهي مدينة ذات موقع أثري

قديم، ومحاطة بسور خارجي ضخم يبلغ محيطه نحو ٢٥٣٥ متراً تقريباً. وكان الأثر المكتشف قبراً منبوشاً يقع في موقع رقم التل (١) والمعروف بـ «تل رمي أفران الفخار» من كثرة الرماد والكسر الفخارية المحروقة، وهذا القبر المنبوش لطفلة صغيرة وجدت به مرفقاتها الجنائزية وبقايا أربع أرجل من المعدن لسرير الطفلة، وقد قُدر أن تاريخ هذه الموجودات يعود إلى ما بين القرن الأول والثاني الميلاديين.

جائزة جونكور لشول


أحمد وكوروما

أعلنت لجنة تحكيم أكاديمية جونكور في باريس، برئاسة الكاتب العجوز فرانسوا نوريسييه - الذي ترشحه الأوساط الأدبية للفوز بجائزة نوبل للآداب - في ٣٠ من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، أنها منحت جائزتها الأدبية للرواية المكتوبة باللغة الفرنسية إلى جان جاك شول عن روايته «أنجريد كافن» الصادرة عن دار جاليمار.

وكان شول قد نال أربعة أصوات من مجموع عشرة، في مقابل ثلاثة أصوات حصل عليها منافسه أحمد وكوروما من ساحل العاج عن روايته «الإيمان ليس بالإكراه» الصادرة عن منشورات سوى، لينال وكوروما جائزة رينودو التي تمنح مترافقة مع جائزة جونكور، ولكنها أقل قيمة منها.

وكان الروائي الفائز قد نشر روايتين من قبل هما «وردي غباري» و«تيليكس رقم ١»، ثم صام عن الكتابة ربع قرن قبل أن ينشر روايته الثالثة التي فازت بجائزة جونكور عام ٢٠٠٠م.

وتدور أحداث الرواية الفائزة حول المغنية والممثلة الألمانية أنجريد كافن وهي زوجة المؤلف، وتستعيد الرواية أجواء جيل السبعينيات في أوربا بأسلوب يوصف بالطليعي في الأدب الفرنسي.

إسرائيل والواسطي

نظم معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية في ٢٣ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي في القاهرة، ندوة عن «التراث



العربي المخطوط في فلسطين» تناولت - على مدى يومين - هموم ضياع المخطوطات العربية والإسلامية في فلسطين بسبب الاحتلال الإسرائيلي الذي استهدف هذه المخطوطات لأنها تمثل ذاكرة الأمة العربية.

وكان محورا الندوة عن التراث والسياسة في فلسطين، وجهود الرواد الأوائل في حماية هذا التراث والحفاظ عليه. وألقى الباحثون من خلال هذه المحاور الأضواء على المخطوطات التي استولى عليها اليهود بعد إقامة دولتهم في عام ١٩٤٨م، ثم مرة أخرى عام ١٩٦٧م بعد أن احتلوا بقية الأراضي الفلسطينية، وأكدوا «أن وجود هذه المخطوطات العربية والإسلامية في فلسطين في حد ذاته يزعج المستعمر الغاصب ويؤرقه، لأن صاحب الأرض يملك قوة هائلة لا تقهرها جيوش، وذلك بامتلاكه ثقافة امتزاج الجغرافيا بالتاريخ في ثقافته الموروثة، يقابله الإسرائيليون الذين لا تاريخ لهم على الأرض»، كما يقول الباحث كمال نبهان.

وتعد مخطوطة «فضائل البيت المقدس» للواسطي من أهم المخطوطات التي استولى عليها اليهود، وهي نسخة نادرة يعود تاريخ كتابتها إلى سنة ٥٨٣ هجرية، وكان قد تم نقلها مع غيرها من المخطوطات من المكتبة الأحمدية التابعة لمسجد أحمد باشا الجزار إلى مكتبة الجامعة العبرية.

العودة إلى العلوم

كان الإقبال على معرض الكتاب العربي السادس عشر الذي أقامته مكتبة الأسد بدمشق مؤخراً، متوسطاً من القراء والمهتمين بالشأن الثقافي، ولكنه مع ذلك يعد أحسن حالاً من

معرضي الجزائر وعمان، وبخاصة أن الأخير تزامن مع بداية انتفاضة الأقصى الشريف التي أثرت سلبياً في إقبال المواطنين على زيارة المعرض.

ولكن مما لفت الأنظار في معرض دمشق هو تحول اهتمامات القراء إلى الكتاب العلمي، ولا سيما الكتب الخاصة بالمعلوماتية والكمبيوتر، مما ينم على وعي متزايد بضرورة مواكبة تحولات العصر، كما تراجعت مبيعات كتب الشعر والقصة باستثناء الشعراء الكبار، أمثال محمود درويش ونزار قباني، وزاد الاهتمام بكتب الأطفال بشكل ملحوظ، كما زاد الإقبال على الكتب الفكرية والتاريخية والرواية المترجمة.

عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠١م


محمد الرميحي

برعاية أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح، تنطلق في السادس من يناير/كانون الثاني المقبل فعاليات الاحتفال باختيار الكويت عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠١م متزامنة مع افتتاح مهرجان القرين الثقافي السابع، وستستمر احتفالات الكويت بهذا الاختيار حتى ٣١ ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠١م.

وأعلن الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت الدكتور محمد الرميحي أن الكويت ستعمل من خلال هذه الاحتفالات على إكمال البنية التحتية الثقافية تأسيساً لجيل جديد قادم، وتقديم أنشطة ثقافية جديدة ومتميزة على صعيد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وبقية المؤسسات في الدولة والقطاع الخاص، وتجويد البرامج الثقافية المقدمة حالياً سواء في المجلس الوطني، أم في بقية المؤسسات في الدولة والقطاع المشترك والقطاع الخاص.

وعدد الرميحي بعض المشروعات المزمع تنفيذها مثل: إنشاء مكتبة وطنية، ومجمع ثقافي في وسط العاصمة، وترميم عدد من المعالم الكويتية مثل القبة السماوية، والقصر الأحمر، وبوابات سور الكويت الثلاث، ومدرسة كاظمة في الجهراء.

وفي المجال الثقافي سيتم أيضاً تنفيذ عدد من المشروعات الثقافية منها استكمال تحقيق كتاب «تاج العروس»، ووضع سلسلة «عالم المعرفة» على أقراص مدمجة، وتحويل مكتبة عبدالعزيز حسين إلى مركز ثقافي، إضافة إلى إقامة معرض دائم للكتاب، وغير ذلك من المشروعات الثقافية.

نادجا إلى العربية


أندريه بريتون

قام المترجم كامل عويد بنقل رواية الكاتب الفرنسي أندريه بريتون «نادجا» إلى العربية، وتعدّ هذه الرواية التي استغرق العمل في ترجمتها عاماً كاملاً، وثيقة مهمة لكل من أراد الدراسة أو الكتابة حول المذهب السوريالي.

وقد جعلت صعوبة ترجمة هذا العمل عدداً من المترجمين العرب يحجمون عن ترجمتها، لاعتمادها على أصول البلاغة الفرنسية القديمة، وقد تغلب عويد على هذه العقبة بما أسماه «الصدفة الموضوعية» التي جعلته - كما يقول - يعيش الرواية حتى صار جزءاً منها.

ويواصل عويد حالياً ترجمة رواية أخرى للكاتب الفرنسي كلود سيمون الحائز على جائزة نوبل للآداب عنوانها «الدعوة».

جامعة إلكترونية عالمية


جامعة أكسفورد

قررت بعض الجامعات البريطانية، من بينها جامعه أكسفورد، الدخول في أسواق العولمة الإلكترونية، وذلك بإنشاء جامعة عالمية في الفضاء الحاسوبي قدرت تكاليفها بـ ٤٠٠ مليون جنيه إسترليني، ومن المخطط لهذه الجامعة أن تحقق أرباحاً بعد ثلاث سنوات من مباشرتها العمل.

وينوي المخططون لقيام هذه الجامعة تفادي الجانب التجاري الواضح الذي تتصف به الجامعات الأمريكية، ووعدوا بالتركيز على انهاء الطلاب لمناهج تنافسية وتوفير معايير عالية من الدعم الأكاديمي للطلاب.

سرقة لوحات يونانية

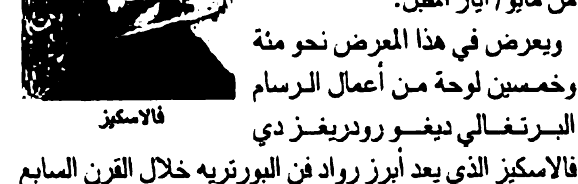
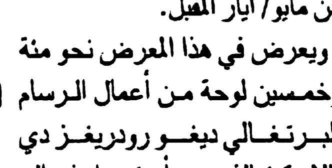
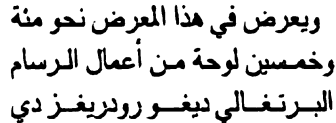

من أعمال الفنانة

فقدت اليونان ٣ لوحات فنية زيتية خاصة بأعمال المسارح والديكور والأزياء من «مجموعة كوستاكس» المودعة في «متحف الدولة للفن المعاصر» في مدينة سالونيكا، وكانت الحكومة اليونانية قد اشترت هذه اللوحات التي رسمتها الفنانة الروسية ليوبوفا بونوفا. وقد فقدت هذه اللوحات في مطار مدريد في إسبانيا وهي في طريقها من أثينا إلى معرض «مسرح الرسامين الأوبراليين الحداثيين» الذي افتتح في الشهر الماضي في مركز الملكة صوفيا في مدريد.

وتوالي السفارة اليونانية في إسبانيا ومسؤولو شركة الطيران اليوناني «أولمبيك»، التي نقلت اللوحات المفقودة على متن إحدى طائراتها، تحرياتهم، بينما تتولى الشرطة الإسبانية والإنتربول التحقيق الرسمي في حادث اختفاء هذه اللوحات.

وكان كثيرون قد اعترضوا على إعارة هذه اللوحات لتعرض خارج اليونان في الوقت الذي لم تعرض فيه حتى في اليونان نفسها، وقد علق مدير متحف سالونيكا على فقد هذه اللوحات بقوله: «على الرغم من القيمة المادية الضئيلة للرسومات، إلا أننا تعرضنا لخسارة كبيرة».!!

معرض لأعمال فالاسكيز




فالاسكيز

«فالاسكيز وفنون البورتريه» هو عنوان المعرض الذي يقام حاليا بمتحف أمستردام بالعاصمة الهولندية، ويستمر حتى السادس من مايو/ أيار المقبل.

ويعرض في هذا المعرض نحو مئة وخمسين لوحة من أعمال الرسام البرتغالي ديغو رودريغز دي فالاسكيز الذي يعد أبرز رواد فن البورتريه خلال القرن السابع عشر، والرسام الأول في بلاط ملك إسبانيا آنذاك.

مؤتمر قضايا الترجمة

شهدت مدينة القاهرة في أكتوبر/ تشرين الأول الماضي فعاليات مؤتمر «قضايا الترجمة وإشكالياتها»، الذي نظمه المجلس الأعلى للثقافة في قاعة الندوات.

شارك في هذا المؤتمر - الذي أقيم بمناسبة صدور ٢٥٠ كتاباً من كتب المشروع القومي للترجمة واستمر مدة ٤ أيام - ٦٠ باحثاً عربياً. وتخللت المؤتمر مجموعة من النشاطات شملت جلسات بحثية، وموائد مستديرة، وشهادات ناقشت تقنيات الترجمة وحدود المترجم، كما قُدمت مجموعة من البحوث حول المشروع القومي للترجمة منها: «الترجمة نقل أم إبداع؟» للدكتور حسن حنفي، و«الترجمة والنحو» لرجاء بن سلامة، و«الثقافة العربية وسياسات الترجمة»، لفيصل دراج، و«جماليات الترجمة الأدبية» لمحمد شاهين، و«مصاعب مهنة الترجمة» لصالح علماني، وغير ذلك من البحوث التي ناقشت دور الترجمة ومستقبلها.

حماية التراث

شارك عدد من الخبراء والمختصين في كل من تونس والجزائر والمغرب ومصر وإسبانيا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا وليبيا وممثلون عن منظمة اليونسكو في فعاليات الندوة العلمية حول تهريب التحف الفنية، والقطع الأثرية التي عقدت في مدينة طرابلس الليبية مؤخراً تحت شعار «نحو دور فاعل لحماية التراث الثقافي» في دول حوض البحر المتوسط.

وأكّد المشاركون في الندوة أهمية مطالبة الدول باسترجاع المسروقات كافة من التحف الفنية، والقطع الأثرية، والمخطوطات، وإعادتها إلى أوطانها الأصلية، كما ناقشوا التعريف بظاهرة سرقة التحف الفنية ونهبها وتهريبها، والأضرار التي تسببها هذه السرقات للتراث الثقافي الإنساني، وتناولوا التدابير والإجراءات الأمنية الكفيلة بحفظ التراث الثقافي على كل المستويات الوطنية والإقليمية والدولية.

وقد عرضت على هامش الندوة نماذج لمخطوطات ليبية قديمة، وصور لبعض المراسلات المتبادلة بين قيادات المجاهدين الليبيين، ونماذج لبعض القطع الأثرية المسروقة أيام الاستعمار والتي توجد في بعض المتاحف الغربية، ونماذج من رسائل المنفيين الليبيين في إيطاليا إلى أهاليهم إبان الاحتلال الإيطالي لبلادهم.

رونوار وبيكاسو


رونوار

أُقيم مؤخراً في متحف الفن الحديث بمدينة مونتريال الكندية معرض بعنوان «بين رونوار وبيكاسو» ألقى الضوء على مراحل تطور الحركات الإبداعية التي ميزت النتاج الإبداعي لكل من الفنانين الفرنسي أوجست رونوار والإسباني بابلو بيكاسو في عدد من المجالات الفنية.

وضم المعرض الذي استمر حتى ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي ، ٣٠٠ عمل فني برزت فيها سيطرة الحركة الانطباعية على أعمال رونوار واستغلاله الألوان البراقة والفاتحة للتعبير عن الانفعالات الوجدانية المختلفة.

وضم المعرض كذلك جناحاً عرضت فيه نماذج من أعمال رونوار في مجال الخزف الصيني الذي بدأ به مشواره الفني، فقد كان يعمل ويتدرب في أحد مصانع الخزف الصينية وهو في الثالثة عشرة من عمره.

مؤتمر عالمي لحوار الحضارات

عقد في العاصمة البريطانية لندن في الفترة من (٢٧ ـ ٢٨) أكتوبر/ تشرين الأول الماضي المؤتمر العالمي لحوار الحضارات الذي نظمه المركز الإسلامي بلندن بالتعاون مع مؤسسات إسلامية وأكاديمية. وشارك في المؤتمر أساتذة وباحثون من الولايات المتحدة، وبريطانيا، ومصر، وإيران، وتناول المشاركون الجوانب المختلفة لقضية حوار الحضارات وآفاقه، بالتزامن مع إعلان الأمم المتحدة عام ٢٠٠١م سنة للحوار بين الحضارات المختلفة.

تلفيق إسرائيل

بدعوة من مجلة فكر اللبنانية، شهد مقر جمعية النهضة الثقافية في بيروت مؤخراً محاضرة بعنوان «تلفيق إسرائيل القديمة ـ طمس التاريخ الفلسطيني» قدمها المؤرخ البريطاني المعروف كيث وايتلام Keith White Lam المتخصص بالتاريخ والدراسات الكتابية، والحائز على درجة الدكتوراه عن تاريخ فلسطين القديم.

وقد انتقد وايتلام في بداية محاضرته التجاهل التام الذي حدث لتاريخ فلسطين القديم الذي يمتد إلى عدة قرون قبل الميلاد، فقد ركز المؤرخون التوراتيون على مرحلة محددة من هذا التاريخ، وهي الفترة التي تمتد من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وهي المرحلة التي يعدونها شهدت الغزو العبراني لفلسطين، وأكد وايتلام أن محاولات تقزيم تاريخ فلسطين وقصره على العبرانيين فقط قد كذبته الحقائق العلمية والدراسات الأثرية التي تزداد عمقاً ووضوحاً مع كل اكتشاف جديد.

ودعا وايتلام إلى الاهتمام بالتاريخ الفلسطيني القديم لكونه موضوعاً قائماً بذاته لا مجرد إطار للسياق الذي ظهرت فيه مملكة «إسرائيل القديمة» التي يشكك وايتلام في وجودها أصلاً، وهي لا تعدو أن تكون ـ في نظره ـ «مجرد تلفيق قام به باحثون مغرضون تحركهم دوافع سياسية ومصالح تتعلق بالأوضاع الراهنة».

الجدير بالذكر أن كيث وايتلام يحاول من خلال دراساته وأبحاثه وضع تاريخ جديد لفلسطين، بديل لما هو مكتوب وما هو موجود في كتاب العهد القديم، كما صرح بذلك الدكتور زياد منى الذي قام بنقل المحاضرة إلى العربية.

الآداب في أزمة

مؤنس الرزاز

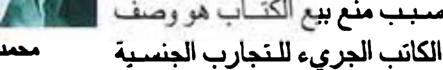
تمر مجلة الآداب اللبنانية التي تصدر عن دار الآداب بأزمة مالية طاحنة تهدد بإغلاقها، وفي محاولة أخيرة لتفادي هذه الأزمة خاطب سماح إدريس المشرف على المجلة جهات رسمية عربية وشخصيات ثقافية طلباً للمساعدة حتى توالي هذه المجلة ـ التي تبلغ قيمة الاشتراك فيها ٨٠ دولاراً ـ الصدور. ولكن يبدو أن هذه المحاولة محكومة بالإخفاق، إذ جاء الرد من الأديب مؤنس الرزاز في رسالة ساخرة يقول فيها: «أثارت رسالتكم في أعماقي مشاعر الألم وأحاسيس العجز والذنب، يؤلمني أن تتعرض الآداب، هذا الصرح الإبداعي الشامخ إلى هذه الضائقة، ويحزنني أن أحيطك علماً بعجزنا، وإذا كنا قصّرنا مع الفلسطينيين المنتفضين واللبنانيين المناضلين، فهل تتوقع منا إنقاذ «الآداب»؟، ثمة حالة عجز عربي على كل المستويات يا صديقي، فارحم رحمك الله».

معرض التوثيق القومي

تحت شعار «التوثيق ذاكرة الوطن»، أقام مركز المعلومات القومي في دمشق معرضه السنوي الرابع على أرض مدينة معرض دمشق الدولي، شارك فيه عدد كبير من مراكز التوثيق والمعلومات والأبحاث والمكتبات والمؤسسات المهتمة بالمعلومات والتوثيق الرسمية والخاصة في سورية والدول العربية والعالم، إضافة إلى مشاركة عدد كبير من الأفراد.

وضم المعرض، الذي استمر حتى الرابع من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني الحالي، وثائق مقروءة ومسموعة ومرئية ومجسّمة.

«الخبز الحافي» في المغرب







محمد شكري

عادت المغرب وسمحت ببيع كتاب محمد شكري «الخبز الحافي» الذي سجل فيه سيرته الذاتية ووصف حياة الفقر التي عاشها خلال طفولته في مدينة طنجة في شمال المغرب، بعد أن منعت بيعه مدة ١٧ عاماً وكان سبب منع بيع الكتاب هو وصف الكاتب الجريء للتجارب الجنسية التي مرّ بها في صباه. وكان «الخبز الحافي» قد ترجم إلى عدة لغات - بسبب هذا المنع - واستنسخت منه طبعات شعبية وزعت سراً. ثم ألحقه شكري بجزء ثانٍ تحت عنوان «الشطار» استكمل فيه سيرته الذاتية أيضاً بالجرأة نفسها.

رحيل إكرام الأنطاكي

توفيت في أواخر شهر أكتوبر/ تشرين الأول الماضي بالمكسيك المؤرخة السورية إكرام الأنطاكي المقيمة هناك منذ عام ١٩٧٦م. ولدت المؤرخة في سورية عام ١٩٤٥م، وهاجرت إلى باريس عام ١٩٦٩م حيث درست الأدب المقارن والعلوم الإنسانية، ونشرت ٢٩ كتاباً باللغات العربية والفرنسية والإسبانية منها: «السر الإلهي» و«ثقافة العرب»، الذي نالت عنه جائزة «ماجدا دوناتو» التي تمنحها الجمعية الوطنية للممثلين المكسيكيين ،ولها إيضاً ١٢ مجلداً في سلسلة مأدبة أفلاطون.

الأنصاري وسوسيولوجيا الأزمة

محمد جابر الأنصاري

اختتمت في الفاتح من نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي بالمنامة أعمال الندوة الفكرية التي نظمها الملتقى الثقافي الأهلي بدولة البحرين لدراسة فكر د. محمد جابر الأنصاري، وجاءت الندوة بعنوان: «محمد جابر الأنصاري: مشروع ومفكر من البحرين».

وقد كرم الملتقى الكتّاب الثلاثة الذين فازت بحوثهم في هذه المسابقة، وهم الدكتور كمال عبداللطيف (المغرب) الذي جاء بحثه بعنوان «نحو إعادة بناء أسئلة النهضة.. قراءة في أعمال محمد جابر الأنصاري»، والثاني للدكتور محمد المالكي (المغرب أيضاً) بعنوان «الأنصاري والاستقلال التاريخي للذات العربي»، أما الثالث فجاء بعنوان «العرب والسياسة: بحث في فكر الأنصاري» الذي قدمه الباحث العماني عبدالله علي العليان.

وقد صدرت البحوث الثلاثة مؤخراً في كتاب بعنوان «الأنصاري وسوسيولوجية الأزمة» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في لبنان.

يوسف عز الدين في ضفاف الثقافة





يوسف عز الدين

تُعدّ حالياً مجلة ضفاف الثقافة التي تصدر في النمسا ملفاً خاصاً عن الأديب الدكتور يوسف عز الدين بمناسبة اعتزاله التدريس بعد ثلاثة وأربعين عاماً من النشاط والإبداع المتعدد الجوانب، ومن أجل إرساء تقاليد ثقافية جديدة في تكريم الأدباء ودعمهم وجهت المجلة الدعوة لكل الذين لهم علاقة ثقافية أو أكاديمية بالدكتور يوسف عز الدين للمساهمة في هذا الملف.

والمحتفى به أديب عراقي ولد في بغداد عام ١٩٢٢م، ونال درجة الماجستير من جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٣م، ودرجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥٧م.

وتقلد عدداً من المناصب فقد عمل بالتدريس في جامعة بغداد والمجمع العلمي العراقي، كما عمل رئيساً لتحرير مجلة

الكتاب، ومديراً عاماً للصحافة والإرشاد في العراق، ثم عميداً لكلية الآداب في جامعة الإمارات، وأستاذاً بكلية التربية بالطائف في المملكة العربية السعودية.

وساهم في كثير من المواسم الثقافية، وقدم مجموعة كبيرة من المحاضرات، كما شارك في إذاعات القاهرة، وبغداد، والهند، وتونس، والرياض، وحضر عدداً من المؤتمرات اللغوية والأدبية، وله عدداً من المؤلفات باللغتين العربية والإنجليزية منها: «الشعر العراقي في القرن التاسع عشر»، و«قلب على سفر» (رواية)، و«في ضمير الزمن»، و«فصول في الأدب الحديث والنقد»، و«التجديد في الشعر الحديث»، و«مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا الوطنية»، و«النورس والمهاجر» (قصة)، و«الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب الحديث» و«من رحلة الحياة» (ديوان شعر).

أسس مجلة الأقلام العراقية، ورأس تحرير مجلة كلية الآداب بالعين، وهو عضو في عدد من المجامع اللغوية والجمعيات الأدبية داخل الوطن العربي وخارجه، وكان من أوائل المساهمين بالكتابة في مجلة الفيصل.

وعنوان المجلة لمن يرغب في المشاركة بالكتابة في هذا الملف:

DHIFAF
P.O. BOX 15, _ A- 4051 St - Martin
Bei Linz, AUSTRIA

الجابري والعولمة العربية

نظم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في إطار مشاركته في احتفالات اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م سلسلة من المحاضرات في مجالات شتى.

الجابري

ففي مساء الاثنين ٢٦ رجب الماضي (٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول) ألقى الدكتور محمد عابد الجابري محاضرة بعنوان «مستقبل الثقافة العربية وتحديات العولمة» افتتحها الدكتور عوض البادي مدير إدارة البحوث والدراسات بالمركز بالتعريف بالمحاضر الذي عدّه علماً من أعلام الفكر العربي، ورمزاً من رموزه.

وقد تحدث الجابري بشكل عام عن الثقافة العربية قائلاً: إن موضوع الثقافة موضوع واسع وذو دلالات كبيرة، وإنه سيقتصر على وضع إطار يتحدث فيه عن التحديات التي تواجه الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، مطالباً بالابتعاد عن حالة الإحباط والنظرة السوداوية، ومشيراً إلى أن هذه النظرة قد تصنع الماضي وتصنع الحاضر، ويمكننا التغلب عليها، مؤكداً أن الحديث عن المستقبل أمر صعب، وليس بالصورة التي تسمح بنتائج خصوصاً في الشؤون الثقافية والإنسانية، لأن الثقافة من الظواهر التي تتطور ببطء شديد ضارباً المثال بالانتكاسة التي حدثت للثورة الثقافية الصينية.

وأضاف أنه يود التخفيف من حالة الإحباط، وذكّر ببداية القرن العشرين حيث كان الحال مغايراً لما هو موجود حالياً، وأشار إلى أنه عند استقلال المغرب كانت كلية الطب في جامعة الرباط تضم ستة طلاب فقط خمسة منهم إسرائيليون، وبريطاني واحد. أما اليوم فعدد الطلاب المغاربة بالآلاف.

وتساءل: هل الرياض قبل خمسين عاماً كانت بهذا الحال؟ ومن كان يعتقد أن الرياض ستصبح عاصمة للثقافة العربية؟ فالحقيقة أن هناك تطوراً مستمراً في الثقافة على الصعيدين الكمي والكيفي. وقال: إن معرفتنا بالتراث ازدادت بشكل أكبر، فلم تبق مخطوطة لها علاقة بأي أمر من الأمور العربية إلا وطبعت، على عكس ما كانت عليه الحال في بداية القرن العشرين عندما كانت مخطوطاتنا وكتبنا لدى الآخرين.

وأطلق على القرن العشرين قرن الإيديولوجيا، وكان للعالم العربي قسط لا بأس به في الأيديولوجيا بغض النظر عن صحتها وعدم صحتها.

وقال: علينا أن ننطلق من هذه النظرة لنطرح ما يلزم أو ما ينبغي أن يكون، فأول هذه التحديات هي تركة القرن العشرين السلبية بما فيها الأمية وبقاؤها وانتشارها بشكل متصل إلى وقتنا الحاضر، وهناك ما هو أخطر في كل قطر عربي يتمثل في وجود عالمين: عالم النخبة وعالم الأرياف مما يؤدي إلى هوة واسعة بين النخبة والمجتمع فمثلاً في مصر هناك تباين بين المدينة والريف، مما يسبب انشطاراً للمجتمع فهناك فريق ينمو وفريق آخر ثابت على الأرض، ومن ثم يفقد المجتمع حيويته، وقد يتطور الأمر إلى حدوث صراع بين الطرفين.

وثمة تحد آخر في هذا القرن هو سرعة العصر والنمو الثقافي المتزايد في العالم، لأن القرن الحادي والعشرين هو قرن الثقافة والمعلومات، وطالب إستراتيجية جديدة تساير العولمة، وإذا

كانت هناك عولمة أمريكية وفرنسية وألمانية فإننا بوصفنا عرباً مهيؤون أن تكون لنا عولمة خاصة بنا تراعي ثوابتنا. وأكد دور اللغة العربية وضرورة نشرها. ودعا إلى تعريب العالم الإسلامي مشيراً إلى أنه سمع الرئيس الأندونيسي عبدالرحمن واحد يتحدث العربية (فاعتبر أندونيسيا في جيبه)!!.

وعن التحديات الأخرى أكد الجابري مؤكداً أن مستوى البحث في العالم العربي مازال ضعيفاً، ولا بد من جهد عربي مشترك لتحسين مستوى الدعم للبحث العلمي، فنحن بحاجة إلى تبادل الخبرات والباحثين وتسهيل إجراءاتهم ليتمكنوا من الانتقال بين الدول العربية. وهذه إجراءات مهمة في قيام العولمة العربية، كما أشار إلى العقول العربية العاملة في أمريكا، وأوربا، وهي بالآلاف. وأضاف أنه يمكنك القول: إن العالم العربي لديه مقومات وإمكانات مثل النفط، والموقع الإستراتيجي، والعقول المهاجرة. ومن التحديات (القضية الفلسطينية) وتعدّ أهم التحديات، فقبل انهيار الكتلة الشرقية وبداية عصر العولمة برزت ثقافة التحرير في العالم العربي، ولكن بعد معاهدات السلام وعملية السلام برزت ثقافة التطبيع.

وأضاف أن العرب يملكون إمكانات التقدم والمقاومة، ولكن يجب أن يتحرك القادة العرب ومعهم الشعوب، فوجودنا مهدد، ولكننا نملك الإمكانات.

عقب ذلك فتح الحوار باب المداخلات والنقاش، فكانت مداخلات المثقفين والأكاديميين حول القضايا التي تحدث عنها الجابري في محاضرته التي لم تكن مكتوبة بل ارتجلها ارتجالاً!!. وحضر المحاضرة حشد كبير من رجال الأدب والفكر والفن.

«يحدث كل ليلة»

منحت جائزة الآداب عن القصة القصيرة عام ٢٠٠٠م، للكاتبة الكويتية ليلى العثمان عن مجموعتها القصصية الأخيرة «يحدث كل ليلة»، وهي جائزة تشجيعية تمنحها دولة الكويت سنوياً للمبدعين في مجالات الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية والإنسانية.

يذكر أن ليلى العثمان ولدت في مدينة الكويت عام ١٩٤٥م من أب كويتي وأم عراقية، وتلقت فيها علومها الأولية والجامعية، وصدر كتابها الأول «همسات» عام ١٩٧٢م متضمناً قصائد شعرية وخواطر أدبية، ثم انتقلت إلى الكتابة القصصية فأصدرت المجموعات الآتية: «امرأة في إناء» ١٩٧٦م، و«الرحيل» ١٩٧٩م، و«في الليل تأتي العيون» ١٩٨٠م، و«الحب له صور» ١٩٨٢م، و«فتحية تختار موتها» ١٩٨٥م، و«لا يصلح للحب» ١٩٨٧م، و«حالة حب مجنونة»، و«٥٥ حكاية قصيرة»، و«الحواجز السوداء ١٩٩٤م».

أما في حقل الرواية فأصدرت روايتين: «المرأة والقطة» عام ١٩٨٥م، و«سمية تخرج من البحر» عام ١٩٨٦م.

وقد أثارت بعض كتاباتها ضجة كبيرة مؤخراً وتعرضت بسببها للمحاكمة.

المستعربون والمتأسبنون


محمد عفيفي مطر

نظم المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ندوة بعنوان «الدراسات العربية في إسبانيا»، شارك فيها أدباء وأكاديميون عرب، وتناولت الندوة محاور منها: الدراسات العربية في إسبانيا، والدراسات الإسبانية في مصر. والاتجاهات الجديدة والسياق الاجتماعي والتعرف إلى دراسات المستعربين، والأسطورة الشرقية والمستعربون المتأسبنون، والمتأسبنون المستعربون، وتاريخ كلية الألسن، وتعليم اللغة.

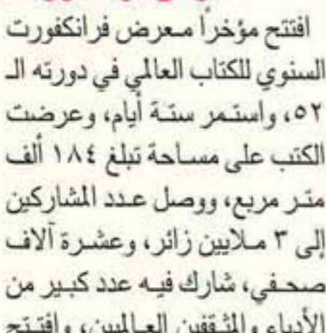
كما ناقشت الندوة صورة الأندلس في الأدب الإسباني الحديث، والقهوة ومكانتها الشعرية، والواقع والإسقاط والاستعارة والنسخ وإسهاماتها في اللغة العربية، والألفاظ الأولية في اللغة العربية، والأدب بين العربية والإسبانية، والسرد والتاريخ في أعمال سالم حميش، وخصصت الندوة محوراً خاصاً للتاريخ والحقوق، وتم فيه تقييم دور ابن القاسم المصري في نقل المذهب المالكي في الأندلس، ومكان إسبانيا في الدراسات التاريخية في مصر خلال الخمسين سنة الماضية، ودراسة أعمال حنين بن إسحاق الموجودة بالمكتبة العربية بالأسكوريال، وأسلوب تحديث الفكر العربي بمصر في القرنين التاسع عشر والعشرين.

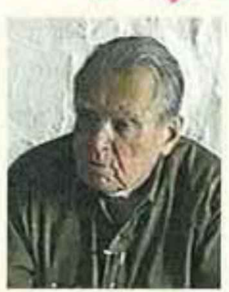
واختتمت الندوة بحلقة نقاشية عن مدرسة المترجمين بطليطلة تعرضت فيها لإشكالية ترجمة الشعر، وحضور

الأدب العربي الحديث في إسبانيا، وحضور الأدب الإسباني الحديث في العالم العربي من خلال الترجمة.

وأقيمت على هامش الندوة أمسية شعرية خاصة للشاعر محمد عفيفي مطر، قدم فيها مجموعة من قصائده الحديثة صاحبتها ترجمة إسبانية.

معرض فرانكفورت العالمي للكتاب





سيسلافا ميلوس

افتتح مؤخراً معرض فرانكفورت السنوي للكتاب العالمي في دورته الـ ٥٢، واستمر ستة أيام، وعرضت الكتب على مساحة تبلغ ١٨٤ ألف متر مربع، ووصل عدد المشاركين إلى ٣ ملايين زائر، وعشرة آلاف صحفي، شارك فيه عدد كبير من الأدباء والمثقفين العالميين، وافتتح المعرض البولنديان الحائزان على جائزة نوبل: سيسلافا ميلوس، وفيسيلافا شيمبورسكا، لكون بولندا البلد المستضاف في هذه السنة، وقرأ الشاعر ميلوس قصيدة شعرية تحدث فيها عن دور الكتاب عبر التاريخ وحرية الكتب وطباعتها، كما شارك في المعرض ١٠٠ شخصية بين مؤلف ومترجم وناشر وناقد بولندي بالإضافة إلى معارض الرسم والفعاليات الثقافية البولندية الأخرى.

واستضاف المعرض هذا العام الكاتب الصيني غاو كسينغيانغ - الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٠م - الذي ألقى كلمة أمام ما يقارب ٢٠٠٠ صحافي من شتى أنحاء العالم. تحدث قائلاً: « لا أمارس السياسة - أؤكد أنني فنان»، وأضاف «لقد كانت جائزة نوبل مفاجأة سحرية، غيرت حياتي الهادئة، أعرف أن عليّ أن أنظم حياتي لكي أستمر بالكتابة، لكني على اقتناع أنه من غير الممكن أن يكتب المرء بانتظار نوبل».

كما حضر الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسين ليقدم كتابه «عشر سنوات في الكرملين» إلا أن تدهور حالته الصحية أدى إلى إلغاء المؤتمر الصحفي الذي نظم بهذه المناسبة، وقد التقى يلتسين الصحفيين مصادفة وقال لهم بصعوبة بالغة «اليوم أنا لست رئيساً لروسيا لكن حتى الآن بإمكاني أن أصنع ما هو خير لروسيا وألمانيا. أنا سعيد لحضوري معرض الكتاب في فرانكفورت».

واشتمل المعرض على نشاطات أدبية من بينها «دعوة الناشرين الشباب للمشاركة ببرنامج عمل خاص بخبرة النشر، والإعلان عن تأسيس مجلة لبرلمان الكتاب العالمي ضد الرقابة، سوف تتولى نشرها خمس دور نشر أوربية، وعلق مديرها المسؤول كريستيان سالمون على هذه الخطوة بقوله: «ولدت المجلة لكي تعطي صوتاً لكل الكتاب وكمكان للتواصل للكتّاب الذين يعانون الاضطهاد والنفي لكي لا يشعروا بأنفسهم معزولين».



فيسيلافا شيمبورسكا

وعلى الرغم من التطور الذي يطرأ على وضع الكتاب عاماً بعد عام إلا أن هذا التطور لم يشمل القاعة رقم ٩ من الطابق الأول حيث يعرض الكتاب العربي!!

وتوزعت دور النشر العربية قسمين: دور نشر رسمية تمثل وزارات الثقافة في بلدانها، وهي تعرض كتباً دعائية للحكومات، والثانية دور نشر خاصة تأتي عن طريق المنحة التي تقدمها بورصة الكتب الألمانية وإدارة المعرض لاتحاد الناشرين العرب.

تميز المعرض هذا العام بحجم المشاركة الواسع لدور النشر الإلكتروني الذي جاوز إنتاجها نصف محتويات المعرض، وخصصت للإنتاج الأدبي الإلكتروني جائزة هي الأولى في تاريخ المعرض قيمتها ١٠٠ ألف دولار، وخصص جانب من المعرض للأفلام الكرتونية التي أصبحت أدباً عالمياً جديداً.

رحيل رجاء أحمد

توفيت الصحافية والقاصة العراقية رجاء أحمد في ٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي في لندن بعد صراع طويل مع المرض. وقد نعاها اتحاد الكتاب والصحافيين العراقيين في بريطانيا.

غادرت رجاء العراق عام ١٩٧٩م مع غيرها من المثقفين والصحافيين العراقيين إثر قمع السلطات لهم، وكانت قد عملت في الصحافة العراقية منذ بداية السبعينيات محررة ومترجمة، وقدمت مشاركات قصصية في المجلات الأدبية العراقية، وتوجهت إلى أولى محطاتها بيروت فعملت في مجلات المقاومة الفلسطينية، وغادرت لبنان في أثناء الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢م، ثم نالت بعدها حق اللجوء السياسي في المملكة المتحدة.

جائزة أوديبرتي لمعلوف

تسلم الكاتب اللبناني أمين معلوف جائزة «جاك أوديبرتي» الفرنسية الأدبية السنوية تقديراً لمجموعة أعماله وخصوصاً كتابه الأخير «رحلة بلا إسار»، وأقيم حفل بهذه المناسبة نظمته بلدية مدينة انتيب - جوان لي بان (جنوب فرنسا). تحدث في الحفل الأمين العام للجائزة بيار جوانون واصفاً معلوف بقوله: «فتح أمامنا أبواب الشرق الذي لا تفصلنا عنه سوى حلقة الوصل التي يمثلها البحر الأبيض المتوسط الذي كان مهد تقاليدنا ومحور نزاعاتنا، قبل أن يتحول إلى ميراثنا الأغلى والأكثر تهديداً».


أمين معلوف

يذكر أن الجائزة أسست عام ١٩٨٩م، ومن أهم الأسماء التي حصلت عليها: فرناندو أرابال، لورانس دوريل، وأنطونيو تابوتشي، وألبير كوسيدي.

تكريم نصر الله

نظم المركز الثقافي في جمعية العناية بالطفل والأم في بيروت لقاءً تكريمياً للأديبة اللبنانية إميلي نصر الله، أُلقيت فيه ثلاث دراسات حاولت إلقاء الضوء على مسار الأديبة ونتاجها، وقدم تلك الدراسات د. جميل جبر، ود. هبة شبارو سنو، ود. متري بولس.


أميلي نصرالله

وخُتم اللقاء بحوار مفتوح مع إميلي نصر الله، التي تعد من أبرز الكاتبات اللبنانيات، وقد أدرجت بعض نصوصها ضمن المناهج المدرسية اللبنانية بدءاً من الصفوف الأولى حتى المرحلة النهائية. وتناولت في هذا الحوار عدة جوانب من تجربتها الروائية والصحافية والإنسانية.

ثقافة القرن ٢١

عُقد في القاهرة مؤتمر دولي يومي السادس والسابع من نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي بعنوان «الثقافة في القرن الواحد والعشرين: آفاق التجديد، واحتمالات التردي»، وذلك ضمن نشاطات منظمة تضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية، وشارك في أعماله ١٥٠ مفكراً ومثقفاً من الدول العربية والأجنبية، ودارت مناقشات المؤتمر حول أربعة محاور رئيسة هي: الثقافة بين العولمة والخصوصيات القومية، والثقافة والسلطة، وثقافة الصورة وثقافة الكلمة، واستشراف آفاق المستقبل.

وكان الهدف من تنظيم المؤتمر - كما ذكرت المنظمة - هو احتلال قضية الثقافة في عصر العولمة قمة أجندة الهموم الوطنية في كل المجتمعات الإنسانية، وبصفة خاصة في آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية «التي تقلقها بشكل خاص علاقة هذه الظاهرة الكوكبية بالخصوصيات الثقافية».

مدينة القبور

كشف العلماء في «أم العقارب» في العراق أضخم مدافن السومريين في بلاد ما بين النهرين، وتعود إلى قرابة خمسة آلاف سنة مضت. ويؤكد بعض علماء الآثار العراقيين على لسان رئيس علماء الآثار في الموقع دوني يوكانا أن هذا الاكتشاف غير مسبوق؛ فلم يتم الكشف قبل اليوم عن مقبرة بهذا الحجم، ويرجح أنها تضم مئات الألوف من القبور.

وقد تعرضت هذه القبور للنهب من لصوص المقابر الذين سرقوا منها كثيراً من التحف الذهبية، والأحجار النفيسة، والتماثيل؛ فقد كان من عادة السومريين أن يدفنوا أغلى ما يملكون مع الأموات.

وكانت الحضارة السومرية ظهرت في جنوب ما بين النهرين في القرن الخامس قبل الميلاد وتحديداً في عام ٣٠٠٠ ق.م، واستطاع السومريون امتلاك قوة كبيرة أساسها الزراعة المروية والفنون الجميلة ووضعهم نظام كتابة خاص ربما كان الأول في تاريخ البشرية.

مكتبة الملك فهد على الإنترنت

تعاقدت مكتبة الملك فهد الوطنية مع إحدى الشركات المحلية، لتصميم موقع للمكتبة على الإنترنت؛ يمكن المستفيد من الاطلاع على الخدمات التي تقدمها المكتبة وما يستجد فيها من أخبار ومطبوعات وغيرها، كما حرصت المكتبة عند تصميم الموقع على أن يكون شاملاً لجميع متطلبات الزائر للموقع، واعتمد فيه على أحدث الطرق المتبعة في تصميم المواقع العالمية؛ لتقليل الوقت

المطلوب للتنقل بين صفحات الموقع.

ويشتمل الموقع على عشرة أبواب رئيسة لأهم النشاطات التي تقدمها المكتبة مثل: أوعية المعلومات، والمعارض، وتقنية المعلومات، والجديد في المكتبة، ومعلومات إحصائية، مع الإجابة عن الاستفسارات، وغيرها من النشاطات المختلفة.

وسيتم قريباً ربط الموقع بفهرس المكتبة لإحلال نظام الأفق محل نظام المكتبة الآلي، لدعم التطبيقات الحديثة وخدمات الإنترنت، وحتى يمكن ربط الموقع بقواعد البيانات المحلية والعالمية؛ مما يتيح للمستفيد الوصول إلى المعلومة بأيسر الطرق وأسرعها. كما زودت المكتبة العاملين فيها بخدمة البريد الإلكتروني؛ ليسهل التواصل بينهم وبين المستفيدين من خارج المكتبة، إضافة إلى خدمات الاتصال الأخرى المتاحة.

ويمكن الوصول إلى الموقع عن طريق أحد العنوانين الآتيين: Kfnl.gov.sa أو Kfnl.org.sa .

جائزة للدوري

عبد العزيز الدوري

أعلنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي تتخذ من تونس مقراً لها أن الجائزة التقديرية للثقافة العربية في مجال الحضارة الإنسانية وتأثيرها في الثقافة الإنسانية، قد منحت هذا العام إلى المفكر والمؤرخ العراقي الدكتور عبدالعزيز الدوري.

وأوضحت المنظمة في بيان لها أن منح هذه الجائزة للدكتور الدوري جاء تقديراً للجهود التي بذلها في دراسة الفكر القومي وجذوره التاريخية، وتأكيده إبراز علاقات الأمة العربية بالأمم والشعوب والثقافات الإسلامية، ولاهتمامه بدراسة النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الحضارة العربية الإسلامية.

وأشارت المنظمة إلى أن اللجنة التي منحت الجائزة للدوري تشكلت من الأساتذة: محمد عابد الجابري، وخير الدين حسيب، وعلي عقلة عرسان، وحسن حنفي، وحاتم بن عثمان، ومحمد العيلي، ومحمد صالح الجابري.

إحياء المقاطعة العربية

قرر اتحاد الكتاب العرب في القاهرة اعتماد يوم ١٩ من أكتوبر/ تشرين الأول من كل عام «يوماً لفلسطين»، وبدأ الكُتَّاب العرب هذا العام يومهم للتضامن مع الشعب الفلسطيني بالصلاة على أرواح شهداء انتفاضة القدس، كما قرر أعضاء الاتحاد إصدار كتاب مصور باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية يتضمن المذابح التي ارتكبتها اسرائيل طوال سنوات وجودها ضد أبناء الشعب العربي في أقطار المواجهة كافة؛ وسيقوم الاتحاد بإرسال نسخة من الإصدار إلى جميع اتحادات كتاب العالم والمنظمات الدولية لفضح حقيقة الوجود الصهيوني في فلسطين. كما نظم الاتحاد ندوات مساندة للقضية الفلسطينية.

وأوصى الكتاب المصريون بضرورة إحياء مجلس المقاطعة لإسرائيل بجامعة الدول العربية.

وأقام اتحاد الكُتَّاب والأدباء الأردنيين مهرجاناً شعرياً تضامنياً مع أبناء الشعب الفلسطيني والانتفاضة، وقف الحضور في بدايته دقيقة صمت لقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء. وشارك في المهرجان كل من الشعراء: عطا الله محمد أبو زياد، وهيام دردنجي، وعصام العمد، وغيرهم.

وفي دمشق وقع عدد كبير من المثقفين والفنانين السوريين على بيان يعلنون فيه دعمهم المطلق ومساندتهم التامة «لانتفاضة الأهل والشعب في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ويحمّلون شارون وباراك وأركان حكمه المسؤولية التامة عن كل المجازر والأعمال الوحشية التي يتعرض لها أبناء الشعب الفلسطيني».

ودعا البيان الدول العربية إلى الدعم الفعلي للانتفاضة مادياً ومعنوياً، وقطع كل أشكال التطبيع مع إسرائيل.

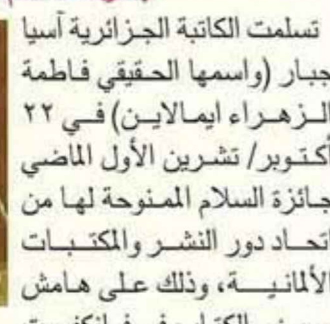
متحف متنقل للآثار

ضمن فعاليات الاحتفال باختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، وضمن خطة التنشيط التثقيفي التي تقوم بها وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف حول مدن المملكة وقراها، أقيم المعرض المتنقل لآثار المملكة وتراثها في مجمع الراشد بالخبر في الفترة من ٢ إلى ١٧من شعبان الماضي، شارك في المعرض متحف الرياض المتنقل، والمتحف الإقليمي بالدمام،

ومتاحف خاصة. وعرض فيه تصاميم ومجسمات قديمة للتراث المحلي، إضافة إلى الآثار، وعُرضت بعض الأفلام الوثائقية عن الآثار في المملكة، ووزعت بعض الكتيبات والمطبوعات التي أصدرتها وكالة الآثار بهذا الخصوص.

وكان الهدف من المعرض التعريف بالآثار والتراث في المملكة وتأكيد أهمية المحافظة عليه.

جائزة السلام لآسيا



آسيا جبار

تسلمت الكاتبة الجزائرية آسيا جبار (واسمها الحقيقي فاطمة الزهراء ايمالاين) في ٢٢ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي جائزة السلام الممنوحة لها من اتحاد دور النشر والمكتبات الألمانية، وذلك على هامش معرض الكتاب في فرانكفورت الذي يعد من أكبر التظاهرات العالمية للنشر.

وأعلنت لجنة التحكيم أنها منحت آسيا جبار هذه الجائزة مكافأة على التزامها من أجل الديمقراطية والسلام في بلادها، ولأنها ساهمت بقسط كبير في توعية جديدة للمرأة في العالم العربي، ولأنها رفعت صوت المغرب العربي في محافل الآداب الأوروبية المعاصرة.

القيمة المادية للجائزة بلغت ١٢٨٠٠ يورو، تمول من هبات الناشرين وأصحاب المكتبات، وجرى التقليد أن تمنح جائزة السلام سنوياً منذ عام ١٩٥٠م إلى إحدى الشخصيات الأدبية أو العلمية أو الفنية في العالم، وقد منحت للكاتب التركي ياشار كمال ١٩٧٧م، والتشيكي فاتسلاف هافيل ١٩٨٩م، والكاتب البيروفي ماريو فارغاس ليوسا.

وأكدت آسيا في كلمتها قائلة: «إلى أرواح الكتاب الضحايا الجزائريين الذين أعدموا على أيدي العصابات من أجل أن يعود السلام، السلام العادل وضد النسيان أريد أن أهدي جائزة السلام هذه للكتّاب: طاهر جعوث، ويوسف سبتي، وعبدالقادر علولة ثلاثتهم قتلوا... أهديها أيضاً إلى أول أديب عندنا في المغرب العربي، كاتب ياسين».

خارج المكان للعربية


إدوارد سعيد

صدر مؤخراً عن دار الآداب في بيروت الترجمة العربية لكتاب «خارج المكان» للمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد، فهو سيرة شخصية تتناول حياته، وقام بالترجمة فواز طرابلسي.

وعرف الناشر بالكتاب بأنه «قصة استثنائية عن المنفى وسرد لارتحالات عدة واحتفال بماض لم يستعد، ففي عام ١٩٩١م تلقى سعيد تشخيصاً طبياً مبرماً أقنعه بضرورة أن يخلف سجلاً عن المكان الذي ولد فيه، وأمضى فيه طفولته».

في هذه المذكرات يعيد إدوارد سعيد اكتشاف المشهد العربي لسنواته الأولى.. «أماكن عدة زالت، وأشخاص كثيرون لم يعودوا على قيد الحياة، تحولت فلسطين إلى إسرائيل، وانقلب لبنان رأساً على عقب، وزالت مصر (فاروق) إلى غير عودة عام ١٩٥٢م».

وعن الحملة التي شنت على الكتاب والكاتب ـ ومحاولة إنكار انتماء سعيد إلى فلسطين وملكيته لبيت عائلي في القدس ـ قال المترجم فواز طرابلسي: «أجد في تلك الحملة ما هو أبعد من ذلك.. تنطوي الصهيونية على مضمر أساسي بل وجودي.. وهذا المضمر هو السرقة. حدث ولا حرج عن سرقة الأرض (والتراب أحياناً كما في جنوب لبنان) والمياه والآثار التاريخية، والتاريخ ذاته، والذاكرة، والمأكولات (من الفول والحمص إلى التبولة والفلافل)، والعمارة والعادات والتقاليد الشعبية».

وثيقة ولادة أمريكا

تعمل المكتبة الوطنية الأمريكية على جمع ١٤ مليون دولار من أموال المتبرعين، لشراء خريطة «نصف الكرة الأرضية» النادرة والمزخرفة بتقنيات الطباعة في عصر النهضة للعالم الجغرافي الألماني مارتن فالدسيمولر (١٤٧٠ ـ ١٥١٨م)، الذي ابتكر في عام ١٥٠٧م اسم «أمريكا» للتدليل على القارة الجديدة.

وهذه هي المرة الأولى التي تعرض فيها هذه الخريطة للبيع، وهي جزء من إرث يتألف أيضاً من «الخريطة البحرية» للعالم الجغرافي نفسه، وهي أول خريطة مائية للعالم الحديث نشرت في عام ١٥١٦م.

ويملك هذه الخريطة النادرة الأمير يوهانس فالدبورغ - فولفغ، وكان فالدسيمولر قام بإعداد طبعة جديدة لأطلس (بطليموس) الفلكي والجغرافي اليوناني بهدف إضافة الاكتشافات الحديثة للبحارة والإسبان والبرتغاليين، واستوحى في إنجاز عمله من كتابات المستكشف الإيطالي أمريغو فيسبوشي الذي كان في رأي فالدسيمولر أول من أعدّ العالم الجديد أرضاً مجهولة. فيما يظن كريستوفر كولمبس أنه وصل إلى الهند، لذلك قرر أن يطلق اسم أمريغو على هذه الأراضي الجديدة.

وولد فالدسيمولر في عام ١٤٧٠م في رودوليفتسل على ضفاف بحيرة كونستانس، واعتنق الرهبانية في ألمانيا، وانكب على دراسة الآداب القديمة. ثم استقر فترة في فريبورغ عاملاً في رسم الخرائط. ثم انتقل إلى سان ديي في منطقة فوغ، ويسكن في قصر دوق لورين. ثم قام بإعداد أطلس بطليموس الشهير.

ملتقى أبي فراس الحمداني

محمد الثبيتي

افتتح الرئيس الجزائري عبدالعزيز بوتفليقة في صباح الثلاثاء ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي ملتقى «أبو فراس الحمداني» الذي تقيمه مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وقدم بوتفليقة في كلمته موازنة بين الأميرين أبي فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري مشيراً إلى الاتفاق بينهما في النشأة ورحلة الكفاح والأسر.

وقد استمر الملتقى الذي حضره أكثر من ٥٠٠ شخصية ثقافية وأكاديمية وإعلامية، بالإضافة إلى والدة الطفل الشهيد محمد الدرة الذي اغتالته رصاصات العدو الصهيوني بين أحضان أبيه إلى ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، وقد طغت على فعالياته أجواء الانتفاضة الفلسطينية .

بدأ حفل الافتتاح بكلمة الدكتور عز الدين ميهوبي رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين أكد فيها «ضرورة التواصل الثقافي بين الدول العربية لتقوية العرب في مواجهة أي عدوان عليهم».

وقال عبدالعزيز البابطين صاحب مؤسسة البابطين «وإذا كانت السياسة قد فرقتنا فإن الثقافة هي التي تعمل على تحقيق وحدتنا».

وقدمت المؤسسة نداء إلى شعراء الأمة لإصدار ديوان الشهيد محمد الدرة. وتسلمت في أيام قليلة أكثر من ٦٠٠ قصيدة.

وقد تم تكريم الفائزين بجوائز المؤسسة لهذا العام وهم: سليمان العيسى (جائزة الإبداع)، والدكتور مبروك المناعي في مجال (أفضل نقد)، والدكتور عبداللطيف عبدالحليم (أفضل ديوان)، ومحمد الثبيتي (أفضل قصيدة). ثم ألقيت مجموعة من القصائد لعدد كبير من الشعراء العرب مهداة إلى الشهيد محمد الدرة.

في الوقت نفسه أقيمت مجموعة ندوات عن الأمير عبدالقادر الجزائري، وأصدرت مؤسسة البابطين كتباً عن أبي فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري، وأعدت المؤسسة مسلسلاً عن الأمير عبدالقادر الجزائري في ثلاثين حلقة.

فوز غوتيريز



غلاف أحد كتبه

منحت جائزة ألفونسو غارسيا راموس للكاتب الكوبي بيدرو خوان غوتيريز عن روايته «حيوان استوائي»، وهي جائزة أدبية إسبانية رفيعة تبلغ قيمتها ٥٠ ألف دولار، قدمتها الحكومة المحلية لجزيرة تينيريف (الكناري)، ودار نشر إسبانية. وقد اختيرت الرواية من بين ١١٣ رواية. وتدور أحداث الرواية في تفاصيل الحياة اليومية للأحياء الفقيرة والمهملة في هافانا، وتضمنت كلمات جافة وشخصيات فظة، وواقعية لم يألفها الكوبيون.

وقد اشتهر غوتيريز - الذي غالباً ما يقارن بالكاتبين الأمريكيين تشارلز بوكوفسكي وهنري ميللر في الأدب الأمريكي - عبر روايتيه «تريلوجيا سوسيا دولا هافانا» و«إل راي دولا هافانا» المنشورتين في إسبانيا.

غوتيريز عضو في الاتحاد الوطني للكتاب والفنانين في كوبا، وهو ليس معروفاً كثيراً في بلاده، حتى إن الصحافة الكوبية تغاضت عن نشر خبر فوزه بالجائزة الإسبانية؛ خدم غوتيريز في الجندية، وكان مدرباً للسباحة وعاملاً زراعياً وصحافياً ورساماً ونحاتاً، ونشرت له فقط بضع مقطوعات من الشعر.

وعن تمسكه بالبقاء في وطنه قال غوتيريز: «في كوبا جذوري وأصدقائي وأولادي الثلاثة وأمي، هؤلاء هم المادة الأولية لكتاباتي».

جورافسكي، أليكسي/ الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف محمد الجراد.. دمشق: دار الفكر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٢٣٠ص.

تتناول هذه الدراسة إشكالية الحوار الإسلامي ـ المسيحي في سياق العلاقات التفاعلية التبادلية بين الثقافتين العربية ـ الإسلامية والمسيحية، ومستويات العلاقات التاريخية المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين، وهي تتميز بالشمول والعمق في قضية العلاقة الحساسة بين هذين الدينين السماويين مع الموضوعية والبعد عن التحامل.

فهو بهذا يرمي إلى أن يتقبل الطرفان بعضهما بعضاً لإنشاء حوار متبادل بعيداً عن الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة.



الفرج، خالد بن محمد/ الخبر والعيان في تاريخ نجد (وهو شرح قصيدة تاريخ نجد البائية)، تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله الشقير.. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٥٩٥ص.

هذا الكتاب قصيدة بائية من البحر الطويل تبلغ أبياتها أكثر من أربعمئة بيت تتناول تاريخ نجد من الدولة السعودية الأولى (منذ قيام الإمام محمد بن سعود) إلى ما بعد معركة السبلة. ومطلعها:

إلى مجدك العلياء تعزى وتنسب
وفي ذكرك التاريخ يُملى ويكتب
وفي عدلك الشرع الشريف ممثل
وفي حلمك الأمثال تتلى وتضرب

رفع المؤلف هذه المنظومة لجلالة الملك عبدالعزيز في حلقتين: الأولى في ٢٢٩ بيتاً ، وذلك في ١٢ شوال سنة ١٣٤٦هـ، وأما الثانية فكانت في ٢١ رمضان ١٣٤٨هـ وهي تقع في ١٧٤ بيتاً، وبها تمت المنظومة. وقد أعجب الملك عبدالعزيز بالقصيدة وأبدى رغبته في وضع شرح يفسر ما غمض منها؛ وقد قام المؤلف بشرح القصيدة بعد فراغه من كتابه الآخر «أحسن القصص»، وأضاف إلى القصيدة كثيراً من الحوادث والوقائع التي أهمل ذكرها في المنظومة.

ولم يسبق للكتاب النشر على هذه الصورة، ولكن نُشرت المنظومة كاملة في حينها في جريدة أم القرى، ثم نُشرت في ديوان خالد الفرج، ونُشر جزء منها في مجلة الكويت؛ فهذه أول مرة ينشر فيها الكتاب محققاً على هذه الهيئة عن ثلاث نسخ خطية جميعها بخط المؤلف.

جودة، صادق أحمد داود/ القضاة آل أبي الشوارب: قضاة الدولة العباسية ـ خلال العصرين التركي والبويهي.. الرياض: دار آجا، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٩٤ص.

اشتهرت جماعات في القضاء وأبدعت في إمضاء قضائها وأحكامها المستمدة من الشريعة، ومن هؤلاء القضاة قضاة آل أبي الشوارب؛ الذين يعود نسبهم إلى الفرع الأموي من قريش. وأبو الشوارب هو محمد بن عبدالله ابن أبي أبو عثمان بن عبدالله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف البصري الشواربي، وقد تولى القضاء من أولاده وأحفاده وأولادهم وأولاد أولادهم أربعة وعشرون شخصاً، وصل ثمانية منهم إلى أعلى منصب في القضاء وهو (قضاء القضاة).

تأتي هذه الدراسة محاولة لتقصي أخبار القضاة من آل أبي الشوارب، كما تلقي الضوء على العصر الذي عاشوا فيه بكل معطياته الأخلاقية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

وختم الكتاب بملحقين: أحدهما بأسماء الخلفاء العباسيين المعاصرين لفترة ظهور آل أبي الشوارب، والآخر عن أصول آل أبي الشوارب.

سيلا، سعيد محمد بابا/ أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم.. بريطانيا: الحكمة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ٥١٧ص (سلسلة إصدارات الحكمة؛٣).

تتبع المؤلف أخبار الأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن الكريم، مع عرض موجز لما توافر عنهم من معلومات، كتحديد زمانهم ومساكنهم، كما أحصى أسباب هلاكهم التي تمثلت في: الشرك، والاستكبار، والتكذيب، والاستهزاء بالآيات، وإيذاء الرسل وأتباعهم، وكفران النعم، وانتهاك حرمات الله تعالى، وعمل قوم لوط، ونقص الميزان والمكيال. كما استقرأ أصناف الهلاك وهي: الغرق، والريح، والصيحة، والرجفة، والصاعقة، وقلب الديار، والحجارة، والظلة، والخسف، والمسخ.

حاول المؤلف أن يورد هذه الأمم حسب التسلسل التاريخي متى ما كان ذلك ممكنًا؛ وإذا ما تعذر ذلك كان يلجأ إلى ترتيبها حسب ورودها في القرآن الكريم، وكان قوم نوح عليه السلام هم أول الأمم الهالكة التي ورد خبرها في القرآن الكريم، بينما جاء أصحاب الفيل - الذين هلكوا في العام نفسه الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم - آخر هذه الأمم الهالكة.

خُتم الكتاب بفهارس شاملة، بالإضافة إلى خريطة تقريبية لمواقع بعض الأمم الهالكة.



العبادي، الحسن/ فقه النوازل في سوس: قضايا وأعلام من القرن التاسع إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري.. أكادير: كلية الشريعة، جامعة القرويين، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ٦١١ص (منشورات كلية الشريعة بأكادير، رسائل وأطروحات جامعية؛ ٥).

النوازل الفقهية هي الحوادث والوقائع اليومية التي تنزل بالناس فيتجهون إلى الفقهاء للبحث عن الحلول الشرعية لها، وقد تتبع المؤلف طبقات فقهاء النوازل في منطقة سوس بالمغرب ابتداء من القرن التاسع حين ظهور النوازل إلى القرن الرابع عشر الهجري، وقد ذكر من كل طبقة أشهر فقهائها مكتفيًا بتراجم مختصرة ونماذج من إنتاجهم في فقه النوازل.

تناول المؤلف هذا الموضوع في ثلاثة أبواب وتمهيد، حدد في التمهيد منطقة سوس وسكانها، وتحدث عن المراكز العلمية الأولى فيها، ثم خصص الباب الأول للحديث عن فقه النوازل في الغرب الإسلامي عمومًا، وبيّن مدى مساهمة المغاربة في هذا المجال، ثم تحدث في الباب الثاني عن طبقات النوازليين في سوس وأعلامهم، وخصص الباب الثالث للحديث عن مقتطفات مختارة من النوازل السوسية، ذاكرًا خصائصها، وموازنًا بينها وبين النوازل الأخرى.

وخُتم الكتاب بعدد من الفهارس، وخريطة توضح حدود قبائل سوس في نهاية القرن ١٩م ومطلع القرن ٢٠م.

الزحيلي، وهبة/ حق الحرية في العالم.. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٠م، ٢٩٢ص.

الحرية أعذب ما يعشق الإنسان بعد عقيدة الإيمان الحق بالله تعالى، وقد شغلت نغمة الحرية العالم كله، واعتنى بها الفلاسفة والمفكرون والعلماء والمصلحون، وعُنيت بها الأديان السماوية، وقد ظهرت معالمها في الغرب في منتصف القرن الثامن عشر بعد أن كانت معدومة أو شبه معدومة لدى الأمم والشعوب غير المؤمنة.

أما في الإسلام فقد أقرت الشريعة الإسلامية الحرية، وضمنت حقوق الإنسان، وسبقت الديمقراطية الحقيقية لا الشكلية الهشة بجميع أنواعها السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والإنسانية.

اشتمل الكتاب على تمهيد يبيّن قيمة الحرية بين

حقوق الإنسان وأساسها ونصوصها القانونية، وثلاثة فصول: جاء الفصل الأول عن معنى الحرية وقيودها، ونسبيّتها، وأزمتها، وتاريخها، وتطورها، وحمايتها، وضوابط ممارستها، وجاء الثاني عن أنواع الحرية، وخصائصها في العالم وفي الإسلام وطبيعتها، وتناول الفصل الثالث بحث حكم بعض أنواع الحريات العامة أو الخاصة.

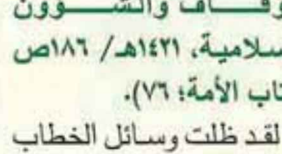
الذييب، سليمان بن عبدالرحمن/ المعجم النبطي: دراسة مقارنة للمفردات والألفاظ النبطية.. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٣٠٣ص (السلسلة الثالثة؛ ٤٥).

يعد هذا المعجم إضافة جديدة إلى الدراسات العلمية التاريخية المعنية بتاريخ الحضارات القديمة التي ازدهرت في شمال الجزيرة العربية، والتي تعد امتداداً لتاريخ المملكة. ويلبي هذا المعجم حاجة كثيرين من المختصين والدارسين في مجال اللغات القديمة والآثار لأن المكتبة العربية تفتقر إلى المعاجم الخاصة بالنقوش العربية؛ إذ إن أغلب هذه المعاجم يصدر باللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية.

يضم المعجم العشرات من المفردات النبطية التي قام المؤلف بترتيبها حسب المنهج المعروف في إعداد المعاجم الخاصة بالنقوش القديمة، وهو الترتيب الهجائي السامي الشمالي.

ولم يكتف المؤلف بإعطاء المعنى العربي للفظة فحسب، ولكنه أضاف أرقام النقوش التي وردت فيها هذه اللفظة، مع موازنتها - أي اللفظة - بمثيلاتها من النقوش السامية الأخرى، ونبه على أن بعض الألفاظ - وهي قليلة - قد تحتمل معنيين مترادفين أو مختلفين.

وختم الكتاب بثبت تضمن المصادر والمراجع العربية والأجنبية والعبرية التي اعتمد عليها الباحث.



عبدالرحمن، عبدالله الزبير/ دعوة الجماهير: مكونات الخطاب ووسائل التسديد.. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢١هـ/ ١٨٦ص (كتاب الأمة؛ ٧٦).

لقد ظلت وسائل الخطاب المعاصرة وتقنياتها تتطور يوميًا لدرجة قد يعجز الإنسان الفرد والمؤسسة الواحدة عن رصدها، كما أن أدوات الإعلام والاتصال من الإنترنت والفضائيات تسعى إلى العالمية أو إلى عولمة العالم وإلغاء خصوصياته الثقافية والدينية.. وغيرها، فإلى أي مدى ينعكس ذلك على مواصفات الخطاب الإسلامي، وأهدافه، ومراحله؟

قدم المؤلف هذا البحث مساهمة في تأصيل قضايا الخطاب الدعوي الجماهيري، فجاء البحث ممهداً بأصلين للدعوة هما الجهرية والجماهيرية، ليكون ذلك مدخلاً ممهداً لفصلين - أحدهما تكويني والآخر تنفيذي - تناول الفصل الأول أهم مكوّنات الخطاب الدعوي الجماهيري، من قرآنية الخطاب، وعموميته وشموليته، وزمانيته، ومكانيته، ومقصديته، ومعروفيته. وخصص الثاني لوسائل تسديد الدعوة الجماهيرية من تعديد الوسائل وإيجاد البدائل، وتكوين الرأي العام، وتبني هموم الناس، واقتحام الأبواب المغلقة.

عبدالرحمن، عبدالوهاب أحمد/ الخليج العربي والمحرمات البريطانية الثلاث (١٧٧٨ - ١٩١٤م).. العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ١٨٩ص.

يعالج هذا الكتاب السياسة البريطانية في الخليج العربي منذ الربع الأخير للقرن الثامن عشر حتى بداية الحرب العالمية

الثانية، وقد ارتكزت هذه السياسة على تأمين مصالح بريطانيا الاستعمارية في الهند التي كانت تعرف بمسمى (درة التاج البريطاني)، ويشكل الخليج العربي أحد الممرات إلى هذه المستعمرة المهمة.

عملت بريطانيا من أجل الحفاظ على أمن امبراطوريتها في الهند واستقرارها على التصدي لكل القوى الاستعمارية المنافسة لها في الخليج العربي؛ فأقصت الفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين، كما تصدت لحركات المقاومة الوطنية المحلية كافة التي قادها زعماء القواسم وحلفاؤهم من القبائل العربية الأخرى الذين شكلوا خطراً حقيقياً على مصالحها التجارية في الهند.

وفي سبيل التصدي لهذه الحركات الوطنية الرافضة للهيمنة البريطانية تذرعت بريطانيا بمحاربة القرصنة، وتجارة الرقيق، وتجارة السلاح، فقد شكّلت هذه المحرّمات الثلاث المحور الرئيس الذي دارت حوله التحركات البريطانية العسكرية منها والدبلوماسية، وقد تناولها المؤلف في ثلاثة فصول هي التي يتكوّن منها الكتاب.

مجموعة باحثين/ حقوق الإنسان العربي.- بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ٣٠٠ص (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ١٧).

يرمي الكتاب إلى الموازنة بين درجة التقدم التي حققتها قضية حقوق الإنسان على المستوى العالمي منذ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م، وما وصلت إليه في وقتنا الحاضر.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام هي: «حقوق الإنسان في الإطار العربي»، و«حقوق الإنسان في الإطار الإسلامي»، و«حقوق الإنسان في الإطار العالمي». ويبحث في مسائل مختلفة متصلة بقضية حقوق الإنسان منها: الديمقراطية والمشاركة السياسية والتنمية، ونظرة الإسلام إلى حقوق الإنسان، وإشكالية العالمية والخصوصية بما تتضمنه من الحقوق المتنازع عليها، كما يُبرز ضرورة تفعيل آليات حماية حقوق الإنسان الدولية والإقليمية؛ بتقديم نظرية تحليلية لحقوق الإنسان من خلال المواثيق وإعلان المنظمات.



بركات، مصطفى/ الفهرس الوصفي للمخطوطات العلمية.- الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٠هـ، ٣٦٠ص.

يمثل عصر المخطوطات في تاريخ الإنسانية عصراً فاصلاً بين عصري ما قبل التاريخ واختراع الطباعة على يد الألماني يوحنا جوتنبرج في القرن الخامس عشر الميلادي، وقد تعرضت المخطوطات العربية لكوارث عدة تسببت في ضياع معظمها؛ مما جعل مفهرسي المخطوطات يواجهون عقبات جمة حتى قال بعضهم: «إذا نجا المفهرس من النقد فقد ظفر».

ينقسم الكتاب قسمين هما: أولاً: الطب والصيدلة والبيطرة، وثانيًا: الحساب والهندسة والجبر. وقد طبّق المفهرس في هذا الفهرس قواعد الفهرسة الأنجلو أمريكية في فهرسة المخطوطات، واشتمل الفهرس على عدة حقول، التزم المفهرس فيها: ذكر عنوان المخطوط، واسم المؤلف كاملاً (مع الاهتمام بذكر لقبه وكنيته ومذهبه ونسبته، وتاريخ حياته أو وفاته قدر الإمكان)، كما أورد بداية المخطوط ونهايته، والهدف من التأليف، بالإضافة إلى حقل الملحوظات الذي استعرض فيه المفهرس ملامح المخطوط المادية.

وختم الفهرس بكشافين: الأول بعناوين المخطوطات، والآخر بأسماء النّساخ.



الجندي، إبراهيم صادق/ الطب الشرعي في التحقيقات الجنائية.. الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ٣٠١ص.



وضع المؤلف هذا الكتاب لبيان الدور المهم للطب الشرعي في التحقيقات الجنائية المتعلقة بالقضايا الطبية القضائية، وهو العلم الداخل في دائرة اهتمام كل من : الطبيب الشرعي، وضابط الشرطة، والمحقق الجنائي، وضابط مسرح الحادث، وخبراء الأدلة..

قسم المؤلف الكتاب أربعة فصول هي: تعريف وتمهيد عن الطب الشرعي ومجالاته ودوره، ودور فحص الجثة في كشف الجريمة، والآثار المادية ودورها في الإدانة الجنائية، والسموم وأهميتها من الوجهة الطبية الجنائية. إضافة إلى ملحقين بصور حقيقية لبعض الجرائم، والتدليل بما فيها من آثار على نوع الجريمة.

القشعمي، محمد/ بدايات: فصول من السيرة الذاتية.. بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠م، ١٦٠ص.

«هي ليست ذاكرة متعمقة، كما أنها ليست سرداً وتوثيقاً لمرحلة تاريخية بكل أحداثها وتحولاتها، بل هي أقرب ما تكون إلى الانطباعية العفوية لمواقف عاشها وشاهدها الفتى في أيام طفولته، وفي فترة شبابه المبكر قبل أكثر من نصف قرن».

كذا وقَّع المؤلف على فصوله التي أهداها إلى القصصي الراحل عبدالعزيز مشري، الذي دفع المؤلف إلى تأليف هذه الفصول، واختار لها عنوانها «بدايات». رجع المؤلف بذكرياته إلى المراحل الأولى من حياته، فكان أول ما استحضرته الذاكرة حلقة الدراسة في الكتاتيب؛ فأول جملة في البدايات: «قال المطوع بصوت مرتفع للقرّاية المتحلقين حوله اقرؤوا بصوت عال حتى أسمعكم...».

وألحق المؤلف بالكتاب مسرداً بمعاني ٥٥ اسماً ومفردة عامية.

جالبريث، جون كينيث/ تاريخ الفكر الاقتصادي: الماضي صورة الحاضر، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع.. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٣٥٩ص (سلسلة عالم المعرفة؛ ٢٦١).



هذا الكتاب تاريخ لعلم الاقتصاد، وليس مجرد تاريخ للاقتصاديين ولفكرهم، فقد تجاوز فيه المؤلف الباحثين والأبحاث إلى الأحداث التي شكّلت جوهر الموضوع، وعند الضرورة إلى الأحداث التي شكّلت تاريخ علم الاقتصاد عندما لم يكن هناك اقتصاديون.

وقد حمل الكتاب رسالة أساسية هي أن «الأفكار الاقتصادية إلى حد كبير نتاج لزمانها ومكانها، ولذا إذا ما أردنا أن نتفهم علم الاقتصاد الحديث، فليس بوسعنا أن نفعل ذلك إلا من خلال فهمنا لماضيه، بما في ذلك المصالح القوية والمكتسبة التي صاغت النظريات الاقتصادية على نحو يعود عليها بالنفع».

وقد تناول المؤلف ذلك في اثنين وعشرين فصلاً بدأت «بنظرة على الساحة»، وانتهت «بالحاضر صورة المستقبل».

دراسات في علم الآثار والتراث (ع ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)



مجلة محكمة تعنى بالآثار والتراث والحضارة في الجزيرة العربية، تصدرها الجمعية السعودية للدراسات الأثرية في قسم الآثار والمتاحف في كلية الآداب بجامعة الملك سعود.

وقد حددت المجلة في هذا العدد جزيرة العرب مداراً لبحوثها؛ ومن هذه البحوث: «موقع بلاد (بنت) وتجارة اللبان في ظفار» للدكتور عاطف عوض الله، و«زخارف الحلي التقليدية في المملكة العربية السعودية» للدكتورة ليلى صالح البسام، و«سد من العصر الأموي في وادي داماء بيني الحارث بالطائف» للدكتور ناصر علي الحارثي، و«الحجون بمكة: موقعه وإصلاح طريقه» للدكتور عادل غباشي، وغير هذه البحوث.

العنوان:

الجمعية السعودية للدراسات الأثرية
قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود
ص.ب ٢٤٥٦ الرياض ١١٤٥١ - هاتف ٤٦٧٤٩٤٢ - ١ - ٠٠٩٦٦
ناسوخ ٤٦٧٤٩٤١ - ١ - ٠٠٩٦٦

التاريخ العربي (ع ١٥، صيف: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)

صدر هذا العدد من مجلة التاريخ العربي زاخراً بموضوعات تتناول التاريخ العربي والفكر الإسلامي، منها: «ريادة فكرية بين مصر والمغرب» لعبدالعزيز بنعبدالله، و«مسألة نحوية لأبي بكر بن العربي - قوله عليه السلام: «لا تَصُرّوا الإبل» للدكتورة حياة قارة، و«المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين» لعبدالمجيد بهيني، و«الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي (ق٨هـ/١٤م) - ملاحظات حول دورها الحضاري في التفاعل بين دفتي الصحراء» لمحمد الشريف، بالإضافة إلى ديوان المجلة الذي جاء هذه المرة عن «العهد: في الذكرى الأولى لجلوس محمد السادس على عرش أجداده الميامين» للشاعر محمد الحلوي.

العنوان

جمعية المؤرخين المغاربة: قصبة الأوداية - الرباط - المملكة المغربية
الهاتف: ٧٣٢٩٥٤ / ٧٢٣٥٧٠ - الفاكس: ٢٠٧٥٣٠

الثقافة العالمية (ع١٠٢، ٩/ ٢٠٠٠م)



صدر العدد الجديد من مجلة الثقافة العالمية، وهو يحمل مجموعة من البحوث والمقالات المترجمة بدأت بموضوع عن «الرأسمالية: هل هي قابلة للإصلاح؟» بقلم برنار ليفاسير وترجمة حليم طوسون، ثم موضوع عن «معركة رأس المال» وهو مناظرة بين توماس ل.فريدمان وإيجناسيو رامونيه بقلم باول أ.كونتر وترجمة شهرت العالم، و«تأملات في تأريخ القوميات المحلية التابعة في الأزمنة الحديثة» لسليا إبيلجيت وترجمة شوقي جلال، وغير ذلك من الموضوعات.

وجاء ملف هذا العدد ليجيب عن سؤال: من قتل باتريس لومومبا؟ ويلقي أضواء جديدة على الغموض الذي صاحب مصرعه زمناً طويلاً، وخُتمت المجلة باستعراض بعض الكتب التي صدرت حديثاً.

العنوان:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - مجلة الثقافة العالمية.
ص.ب: ٢٣٩٩٦ - الصفاة - الرمز البريدي ١٣١٠٠ - دولة الكويت.
فاكس: ٢٤٣١٢٢٩ - تلفون: ٢٤٣١٨٦٠

مجلة كلية الشريعة أكادير (ع ١، مايو ٢٠٠٠م)

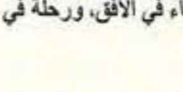
صدر العدد الأول من هذه الدورية التي تصدرها كلية الشريعة بجامعة القرويين بأكادير، مشتملاً على مجموعة من البحوث منها: «نزعة رفض الاحتجاج بالسنة في كتابات الإسلاميين خلال العصر الراهن» لعبدالرزاق هرماس، و«محدثو القرنين السادس والسابع بالأندلس في دراسات المستشرقين» لحسن عزوزي، و«أشهر من ألف في شرح الدرر اللوامع» لأحمد البوشيخي، و«من مظاهر تكريم الإنسان في الحضارتين الإسلامية والغربية» لسعيد شبار، وغير ذلك من البحوث.

العنوان:

كلية الشريعة ص.ب: ٥٢ايت ملول
الرمز البريدي: ٨٠١٥٠ الفاكس: ٢٤١٢٢٨ (٨٠)
ايت ملول - أكادير

المنهل (س٦٦، مج٦١، ع٥٦٩، رجب ١٤٢١هـ/ أكتوبر ٢٠٠٠م)

جاء هذا العدد من مجلة المنهل زاخراً بعدد من الموضوعات المتنوعة في مجالات الثقافة المختلفة، ففي باب أول الغيث جاء موضوع عن مسجد ومركز خادم الحرمين الشريفين في سراييفو، وآخر عن ندوة الدعوة الإسلامية في الجزائر: الواقع والآفاق. وفي باب وفيات الأعيان جاء الحديث عن الراحلين حمد الجاسر والفريق يحيى بن عبدالله المعلمي، وكتب الدكتور كمال الحنون في باب تحقيقات مصورة عن الجبال الجليدية العائمة، كما تناول عثمان إسماعيل موضوع الإسراء والمعراج بين عظمة التشريف وجلال التكليف، وغير ذلك من البحوث العلمية والأدبية والاجتماعية والتي جاءت تحت عدد من الأبواب كتاب شاعر وقصيدة وأحماض أدبية، ولقاء في الأفق، ورحلة في الذاكرة، ومن شعراء التراث، وغيرها.



العنوان:

جدة - الشرفية ص.ب ٢٩٢٥
رمز بريدي ٢١٤٦١ - فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ - تلفون: ٦٤٢٧٨٣١

المكتبات التجارية في المملكة العربية السعودية

أنس كاريتش
سراييفو - البوسنة

مع أنني زرت المملكة العربية السعودية مرتين في زيارتين قصيرتين كان لهما طابعهما الرسمي، إلا أنني لم أستطع أن أعرفها جيداً، والواقع أن إقامتي من قبل في الرياض ومكة المكرمة وجدة في أثناء هاتين الزيارتين جاءت عابرة، ولم تترك في نفسي سوى انطباعات سريعة، لا تصلح لكي يبنى عليها حكم جازم.

وقد أتيح لي في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من هذا العام أن أقضي الشهر بأكمله في ربوع هذه البلاد العزيزة لأرى وأسمع نبضها عن كثب بدعوة كريمة من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض. وكان انطباعي الأول، وأنا أجوب أرجاء المملكة العربية السعودية، هو أنها بلد واسع الأرجاء، يمتد بلا حدود.

وقد تعودنا، ونحن ننظر إلى شبه الجزيرة العربية وموقعها في الخرائط الجغرافية بين قارتي إفريقية الكبيرة وآسيا الأكبر منها، أن نتصور هذا البلد، على ضخامة مساحته، أنه بلد صغير بينما تبلغ مساحة المملكة العربية السعودية وحدها نحو مليونين ومئة وخمسين ألف كيلو متر مربع! أما شبه الجزيرة العربية ككل فتبلغ مساحتها ثلث مساحة أوربا كلها.

وفي عاصمتها الرياض تستقبلك السعة والضخامة والجمال في كل مكان، ويتولد لديك إحساس بالخفة والحيوية يدغدغك من كل جانب، وأنت تمشي في شوارع الرياض الواسعة أيام الخريف، وقد باتت الشمس أقل حرارة عما كانت عليه في الصيف، وأصبح الهواء لطيفاً.

ولكن إذا كان الجمال والسعة والضخامة تستقبلك حيثما تكون في الرياض، فإن الهدوء يظل مفتقداً. ففي شوارع الرياض الممتدة الواسعة على مدى البصر تسير مئات الألوف من السيارات وأغلبها يتميز بالفخامة والأبهة، ويمكن القول: إنك ترى أرتالاً من السيارات الفخمة التي يقذف بها إلى السوق يومياً عالم التجارة والمال.

وفي سماء الرياض ترى كل يوم مئات من الطائرات تقلع أو تهبط، فتلاحظ في الأجواء أيضاً سرعة في الحركة. ولا تعلو على ثرثرة الآلات على أرض الرياض أو في سمائها إلا أصوات الأذان، تدوي من مئات المساجد البيضاء. وإن أردت موازنة مساجد الرياض بالصيدليات، فلك ذلك، لأنها تبدو عموماً في منتهى النظافة، وتفوح منها رائحة البخور. وهم يحافظون على الحصائر والبسط التي يضع عليها المصلون جباههم في الصلوات الخمس كل يوم، نظيفة، حيث تعمل على ذلك فرق خاصة من الناس مستخدمين المكانس الآلية القوية. وجوامع الرياض مزودة بأجهزة التكييف الصامتة.

ويدخل مئات الألوف من المتعبدين لله دور العبادة هذه لا للراحة الروحية فحسب، بل أيضاً للاستجمام والانتعاش الجسدي.

وما أكثر ما يمكن أن يكتب عن الرياض من الأشياء الجميلة، فعلى سبيل المثال، تستحق الشوارع الواسعة، والمحال التجارية الضخمة أن تخصها بالكتابة والوصف. وهذه المحال في الواقع ليست مجرد محال، بل هي مبان يحجم أحياء تعجز العين عن استيعابها بنظرة واحدة. وكأنما هي مدن في داخل مدينة.

وفي تلك المباني نجد ما نسميها بالمحال التجارية، على أن المحال التجارية السعودية إذا أردنا التوضيح بالموازنة تصل إلى سعة أضعاف محالنا التجارية في البوسنة والهرسك. وفيها يسرع الناس، بل يهرولون. وقد التقى في جنباتها الشرق والغرب عن طريق التجارة. ففي هذه المحال نجد البضائع والسلع المحلية وكذلك السلع الغربية والأخرى الآتية من مختلف بقاع الأرض. وتجد هناك مئات المحال التي تبيع السلع الفاخرة مثل منتجات فرساتشي وهوغو بوص وكريستيان ديور وتشيروتي...

أما الأماكن التي وجدت فيه مسرة وراحة بمعنى الكلمة، فهي المكتبات التجارية الكبيرة ومحال بيع الكتب في مدينة الرياض.

وهذه المكتبات تعطيك انطباعاً عن أنها أسهل مما سواها من الأماكن، وأن المملكة العربية السعودية تعيش بإيقاع أسرع مما كان في الماضي.

والواقع أنك - مثلاً - حين تجد نفسك في مكتبة جرير في شارع العليا أو في أي مكتبة أخرى كمكتبة الشقراء أو العبيكان أو تهامة، تشعر كأنهم جلبوا إليها كل كتب العالم. وبلغة الأرقام تجد نفسك بين ملايين الكتب المصنفة بعناية حسب ما تتناول من ضروب المعرفة من أدب وفقه، وعلوم طبية، ومعاجم، وعلم المعلوماتية والكومبيوتر التي لا بد منها.

ولولا خوفي من الحط من قدر الكتب، لقلت: إنني رأيت في مكتبة جرير لبيع الكتب وفي المحال والمكتبات الأخرى التجارية والعامة التي تشابهها في الرياض مثل مكتبة الملك فهد الوطنية، مئات بل آلاف الأطنان من الكتب.

وهناك تأملت في العراقة المدهشة للغة. إذ إن العرب يفخرون بأبدية لغتهم ويتباهون بذلك، إن جاز التعبير. وفي مكتبة جرير هذه، وهي سلسلة مكتبات موجودة، إلى جانب الرياض، في مدن الخبر وجدة والدمام، تجد الكتب باللغة العربية مصنفة حسب القرون، أو بالتسلسل التاريخي. فهناك الشعر الجاهلي في رفوف خاصة وهناك تتصفح كتب الشعر العربي ودواوين الشعر من القرن الثاني والثالث والرابع والخامس الميلادي. عند تلك المجلدات الفاخرة من الشعر العربي الجاهلي الراقي تجد نفسك أمام الشاعر عنترة وكتاب المعلقات السبع أو العشر، التي كان العرب يكرّمونها بتعليقها على جدران الكعبة.

ثم تأتي في هذه المكتبات الضخمة إلى القرون الإسلامية التي تمتد أكثر من خمسة عشر قرناً. وبالطبع تجد أولاً أمامك القرآن بمختلف الطبعات، من طبعة الجيب المكتوبة بماء الذهب إلى الأقراص المدمجة. وعلى الرفوف أيضاً ترجمات القرآن، ثم التفسير مصنفاً حسب القرون.

وفكرت في ذاك المثل القائل بأن عليك أن تعيش مئتي عام لكي تتمكن من قراءة تلك التفسيرات الضخمة للقرآن باللغة العربية القديمة. ولكن لا يمكن أن يمتد العمر بالإنسان كل تلك السنين.

كذلك تجد أصنافاً من كتب الحديث والفقه مرصوفة في أقسامها إلى جانب القرآن الكريم وتفاسيره. ثم هناك أقسام الكتب التاريخية (تاريخ بغداد، تاريخ دمشق، تاريخ القاهرة.. وهي قليل من كثير من العناوين من عدة مجلدات من الطباعة الفاخرة...). ومقدمة ابن خلدون معروضة بمختلف الطبعات، ومن بينها طبعة فاخرة مخطوطة على الطريقة التي يتبعها في البوسنة والهرسك السيدان زعيموفيتش واكشاميا في إعداد الكتب.

وهناك أقسام أو أجنحة بأكملها من الإنسيكلوبيديات (دوائر المعارف) العربية والإنجليزية والفرنسية...إلخ، الملأى بدرجة تذهل العقل، لا بأسعارها فحسب، بل أيضاً بصفحاتها ومجلداتها. وآخر موسوعة تحمل اسم الموسوعة العربية العالمية المكونة من عدد الكراسات على طول متر بأكمله؛ وهي آخر ما أنتج الناشرون العرب.

ثم تأتي المعاجم، العربية - الإنجليزية - والإنجليزية العربية، والعربية - الفرنسية، والفرنسية - العربية... وهكذا، معاجم عربية وإسبانية وروسية، وألمانية، وإيطالية، وصينية... وبالعكس. ثم هناك رفوف من المعاجم المتخصصة، العربية - الإنجليزية وبالعكس، والطب والفيزياء والكيمياء والأحياء والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وعلم النبات وعلم الضبط Cybernetics والمعلوماتية.

ويسير الناشرون قدماً بخطوات كبيرة أيضاً في مجال ترجمة ما نسميه بالأدب الجميل، والأعمال الفلسفية الكلاسيكية. فقد شاهدت أعمال تولستوي الأدبية مترجمة إلى اللغة العربية مثل «الحرب والسلم»، و«البؤساء» لفيكتور هيجو...إلخ. وأعمال دوستويفسكي أيضاً مترجمة، مثل روايته «الجريمة والعقاب»...إلخ. وثمن الأعمال الكاملة لأفلاطون يزيد قليلاً على خمسمئة ريال (نحو مئتين وخمسين ماركاً ألمانياً)؛ لكن الناشرين العرب لأعمال أفلاطون هذه أنزلوا الفيلسوف اليوناني بهذه الطبعات ارفع منزلة.

وهناك أقسام بآلاف الأمتار المربعة مخصصة للكومبيوترات (الحواسيب) والتقنية التابعة لها والدلائل المعلوماتية وأدبياتها. وكل شيء مترجم إلى اللغة العربية، كل البرامج - Word, Windows...إلخ. وتجد كل ما هو مهم في الأقراص المدمجة العربية من معاجم الطب وعلم الأحياء والفلسفة إلى تفسير القرآن الكريم ودوائر المعارف والمعاجم.

ومما يسر المرء، أن الناشرين العرب فعلوا الكثير في تقنية الوسائل البصرية والسمعية لتعلم اللغة العربية و نشرها، وكل ما شاهدته في مكتبة مارك آند سبنسر في أكسفورد بالنسبة إلى تعلم اللغة الإنجليزية ونشرها، شاهدته في الرياض بالنسبة إلى تعلم اللغة العربية ونشرها.

ونجد في أشرطة السجلات والأقراص المدمجة وما شابهها من الوسائل، الحكايات العربية الكلاسيكية، مثل «كليلة ودمنة»، و«مختارات من ألف ليلة وليلة»، كما نجد الكثير من الترجمات والتسجيلات العربية في أشرطة الكاسيت لأساطير لافونتين الخيالية على لسان الحيوان والطير وكذلك الحكايات الروسية...إلخ. ويقرأ أشهر الممثلين والممثلات العرب هذه النصوص بلغة عربية فصيحة صحيحة.

وتبيع المكتبات في السعودية بشكل طبيعي جداً الكتاب الإنجليزي والفرنسي والألماني في مجال العلوم والأدب والفن والرياضة والطهي والبساتين والموسيقى. وقد لاحظت أقساماً خاصة للكتب المتنوعة عن الخيل وركوبها، وكتب أخرى كثيرة عن الإبل.

وللأدب الإنجليزي وجود خاص. فقد رأيت عدة طبعات للأعمال الكاملة لشكسبير، وسلسلة غنية من كتب بينغوين، ومئات من الكتب الإنجليزية والأمريكية والأسترالية التي وجدت رواجاً كبيراً في مختلف الفترات.

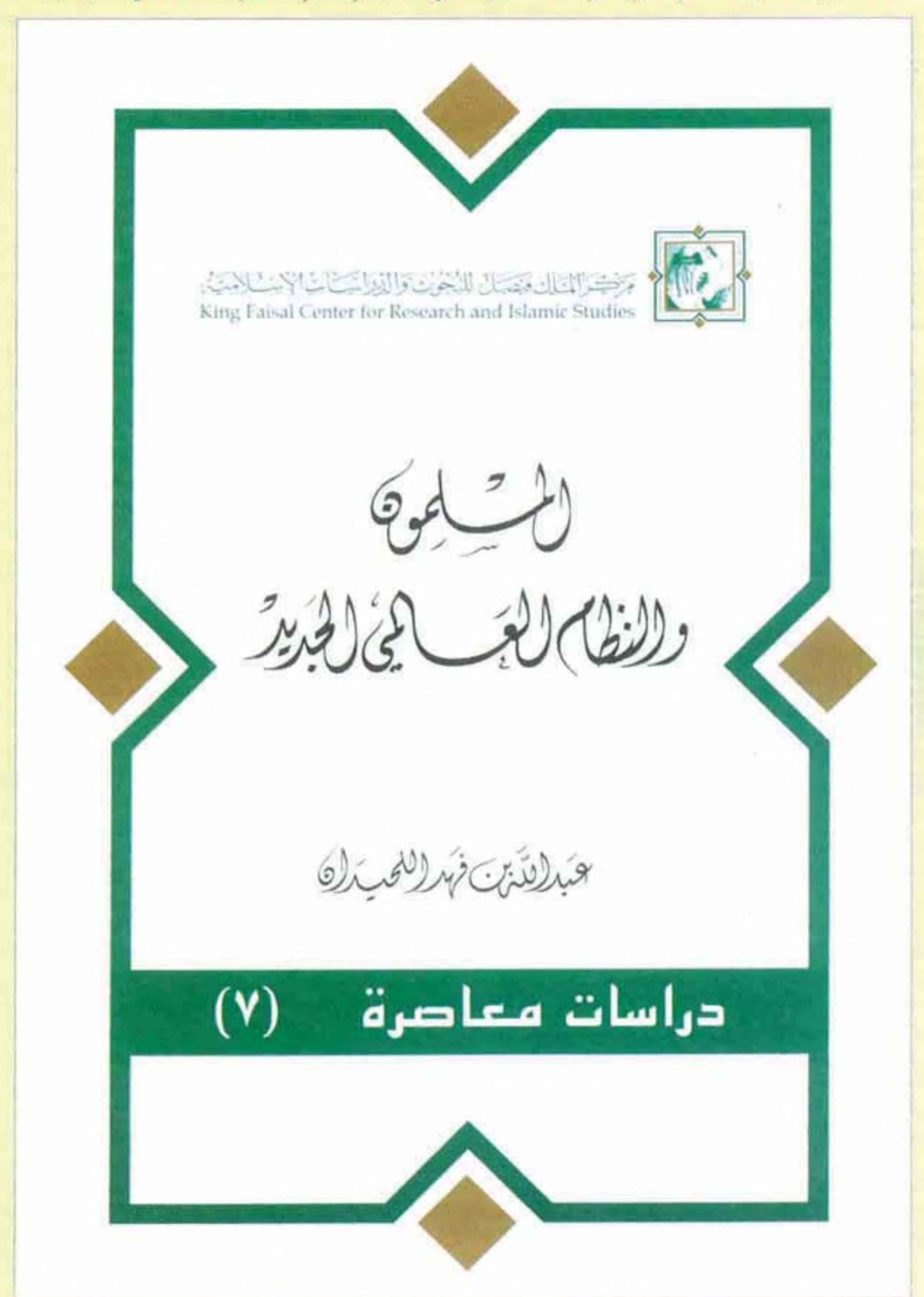
وبالطبع هناك أكداس من كتب تعلم اللغة الإنجليزية على الرفوف وكذلك الكتب الإسلامية باللغة الإنجليزية.



وفي المكتبات السعودية أقسام خاصة للصحف، حيث يمكن فيها شراء عشرات الصحف اليومية، ومئات الصحف الأسبوعية باللغة العربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية.

ومن الصعب أن نقيس بالمعايير الشحيحة لمكتباتنا ضخامة المكتبات ومحال بيع الكتب السعودية وثراءها، إضافة إلى فخامتها المعقولة. وتترك المكتبات السعودية لديك انطباعاً بأنك في معرض فرانكفورت، وأنت ترى آلاف الزوار من الرجال والنساء. ولا يتوقف شراء الكتب ليلاً أو نهاراً مع الصحف وأفلام الفيديو. وقبل أن يأتي وقت الصلاة بعشرين دقيقة، سواء أكنت في مكتبة أم في محل تجاري آخر، سيرجو منك المذيع بصوت لطيف مهذب باللغة العربية أو الإنجليزية أن تتوجه نحو مكان الدفع استعداداً للصلاة، مع أن هناك مساجد داخلية يمكن أن يؤدوا فيها الصلاة. أما بالنسبة إلى غير المسلمين فهناك مكان للجلوس.

وخلاصة ما يمكن قوله: أن المملكة العربية السعودية تشهد تقدماً هائلاً ومذهلاً، وقد تعلم أبناؤها وتبوؤا أعلى المناصب، وفيها طبقة واسعة مستنيرة منفتحة على العالم الخارجي، وعلى قدر كبير من العلم بحيث تقبل الحوار مع الآخر بثقة وثبات.


مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies
المسلمون والنظام العالمي الجديد
عبدالله بن فهد اللحيدان
دراسات معاصرة (٧)